الحوار

شريعة.. وواقعا.. وتاريخا

د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



الحوار

شريعة.. وواقعا.. وتاريخا

تأليف

د. منير محمد الغضبان

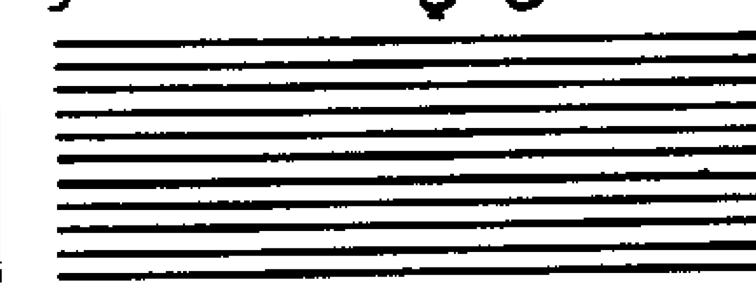
دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الغضبان ، منير محمد .
الحوار : شريعة وواقعًا وتاريخًا / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠م .
٢٥٦ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٧ ٩٧٣ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - آداب المحادثة والحوار .
٢ - الحوار في القرآن .
٣ - الحديث - آداب .
أ - العنوان .
٣٩٥,٥٩



للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *



مُقَدِّمَة

بسم اللّـه الرحمن الرحيم، الحمد للّـه رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

الحديث عن الحوار شيق وممتع. وكم يتمنى المرء أن تقوم الحياة عليه بعيدًا عن التنازع والخصومة.

فأصل الحوار هو الرجوع، ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤] وهو أول معاني الحوْر في اللغة؛ فالأصل في الحوار هو السعي للوصول إلى الحق والرجوع إليه، وفي اللغة (الحَوْر: الرجوع. والحَوار، ويكسر: مراجعة النطق، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم)[١].

وفي المعجم الوسيط: (حار حورًا وحُؤورًا: رجع، وفي التنزيل الحميد: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾. وحارَ الجواب: رده. يقال: سأله فلم يحر جوابًا، وحاوره محاورة وحوارًا: جاوبه وجادله. وفي التنزيل العزيز: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾. وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، وتجادلوا. وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة: ١] واستحاره: استنطقه. والحِوار: حديث يجري بين شخصين أو أكثر من العمل القصصي، أو بين ممثلَيْن أو أكثر على المسرح، والمحورَة: الجواب)[٢] .

فالمعنى اللغوي للحوار والمحاورة لا يعدو عرض الحجج ومراجعة الكلام بعيدًا عن اللدد والخصومة. ويختلف الأصل اللغوي للحوار عن الأصل اللغوي للجدال، مع أنهما يأتيان أحيانًا بمعنىً واحد كما في الآية الكريمة: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] ولو تعمقنا في الآية نفسها لوجدنا أن الأنصارية - رضي اللَّه عنها - والتي جاءت تجادل النبي ﷺ في زوجها، كانت محتدة مشتدة في البداية، لكن جواب النبي ﷺ الهادئ حوَّل الجدال إلى حوار. والحادثة تشي بهذا الفهم؛ فعن خولة بنت ثعلبة قالت: ... جئت رسول اللَّه ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه (أي من زوجي) وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول اللَّه ﷺ

---

(١) القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة (ص ٤٨٦، ٤٨٧).

(٢) المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وزملاؤه، دار الفكر (١/ ٢٠٥، ٢٠٦).

يقول: « يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي اللَّه فيه » قالت: فواللَّه ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن[١]. أما شدة شكواها فكان مما ورد في الرواية الثانية عن عائشة (يا رسول اللَّه، أَكَلَ شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي؛ ظاهر مني، اللَّهم إني أشكو إليك)[٢].

فالأصل اللغوي في الجدال كما في القاموس المحيط:

(الجدَل - محركة -: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله فهو جَدِل ومِجدل)[٣]. وفي المعجم الوسيط: (جَدِل جدلاً: اشتدت خصومته، وجادله مجادلة وجدالًا: ناقشه وخاصمه. وتجادلا في الأمر: اختصما فيه، والجدَل: طريقة في المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصور مختلفة، وهو عند مناطقة المسلمين: قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات. والمجادلة: في علم المناظرة: هي المناظرة لا لإظهار الصواب؛ بل لإلزام الخصم)[٤].

ولذلك عندما جاء الجدل في باب المديح في كتاب اللَّه جاء مقيدًا بالتي هي أحسن، ولم يجئ مطلقًا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

(ومن ذلك تبين الفرق بين الحوار والجدل؛ إذ إنهما يلتقيان في كونهما حديثًا أو مراجعة للكلام بين طرفين، ويفترقان في أن الجدال فيه لدد في الخصومة وشدة في الكلام مع التمسك بالرأي والتعصب له. وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة؛ بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب ونحوه)[٥].

ويمكن أن نصل إلى القول بأن الحوار ضروري في كل وقت؛ فهو في الصف الواحد أقرب إلى المشاورة، وبين الخصومة أقرب إلى عرض وجهات النظر؛ وهو المصطلح القرآني: الدعوة.

فهي دعوة وليست إلزامًا أو فرضًا أو إكراهًا، وحدَّد القرآن الكريم وسائلها الثلاثة المهمة:

(١، ٢) تفسير ابن كثير (ص ١٨٣٥)، دار ابن حزم.

(٣) القاموس المحيط للفيروز آبادي مؤسسة الرسالة (ص ١٢٦١)

(٤) المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وزملاؤه (١/ ١١١).

(٥) الحوار، آدابه وضوابطه في القرآن والسنة، د. يحيى زمزمي.

١ - الحكمة.

٢ - الموعظة الحسنة.

٣ - الجدال بالتي هي أحسن، والجدال بالتي هي أحسن هو الحوار ومراجعة الكلام وعرض الحجج دون الدخول في الخصومة والمشادة وفرض الرأي.

من خلال هذا الفهم للحوار يمكن استعراض دوره وأهميته في الدعوة إلى اللّٰه ﷻ، ولا شك أن استنباط آداب الحوار وشروطه من خلال النصوص أجدى من التأطير النظري.

وما عَرَضَ القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة الشريفة من نماذج عالية للحوار حققت أهدافها وثمارها المرجوة - هو ما يعطينا القدوة العالية والفهم العميق لهذه النماذج والسير على هداها، ونحن مكلفون بذلك؛ فإذا كان رسول اللّٰه ﷺ سيد الخلق يأمره ربه ﷻ أن يقتدي بالذين سبقوه من الرسل: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ونحن مأمورون بالاقتداء بإمام الأنبياء محمد - عليه الصلاة والسلام - ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ومأمورون بالاقتداء بصحبه الطاهرين الذين حملوا راية هذا الدين إلى أنحاء الأرض. ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

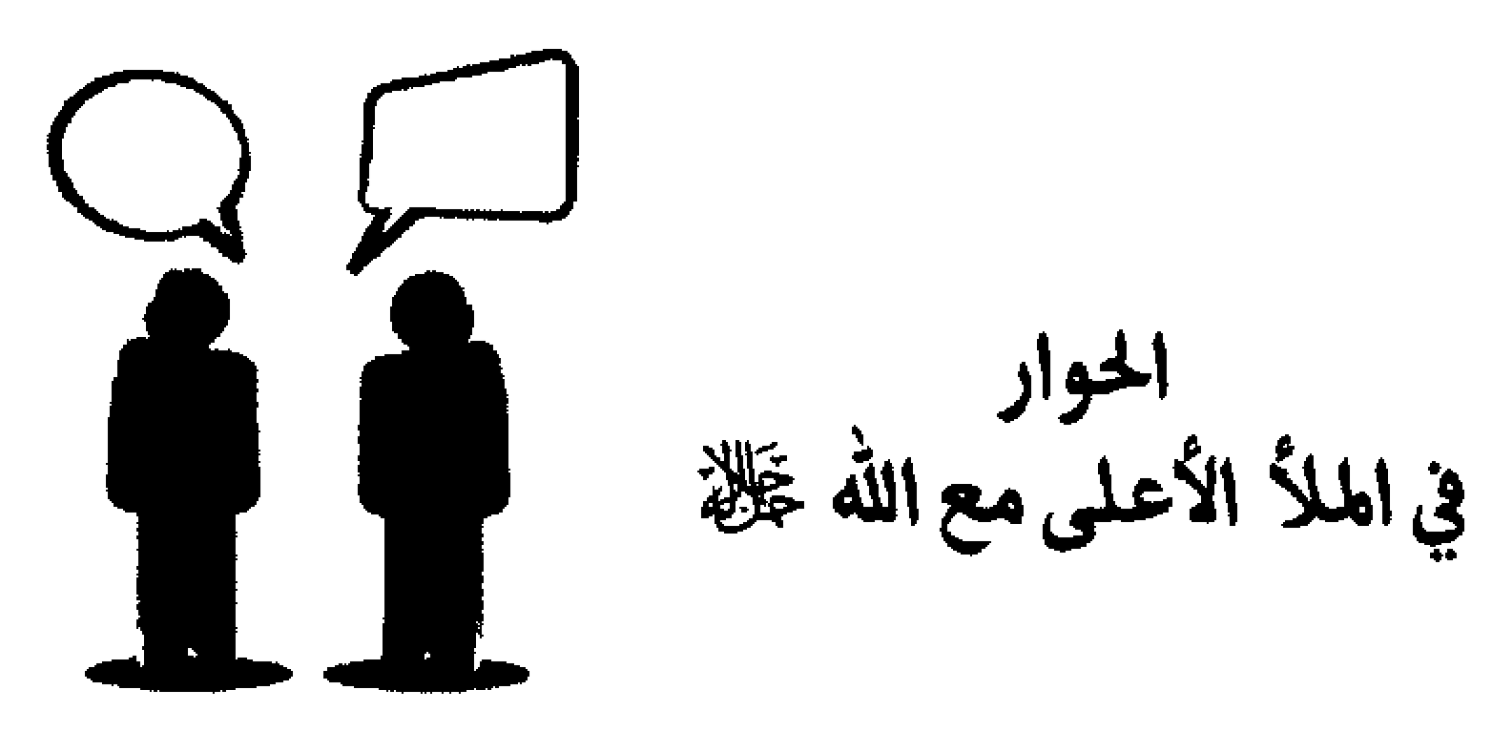
فمن المثل الأعلى في التوراة، والمثل الأعلى في الإنجيل، والمثل الأعلى في القرآن. ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومن خلال هذه النماذج نقدم الصورة المثلى للحوار في الإسلام، واللّٰه نسأل أن يهدينا سواء السبيل: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وآخر دعوانا أن الحمد للّٰه رب العالمين.

مُنير محمد الغضبان

* * *





الحوار
في الملأ الأعلى مع الله ﷻ

١ - حوار الملائكة مع ربهم:

كان ذلك قبل أن يُخلق الإنسان، وقبل أن تطأ قدماه الأرض، ولم نكن نعرف عن هذا الحوار شيئًا لولا أن أعلمَناه اللَّهُ في كتابه المنزل.

قال جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. والملائكة عنصر نوراني لا يقدرون أصلًا على المعصية ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

إنما يسألون عن الحكمة من خلق هذا الخليفة في الأرض، فيعصي ربه - كما يرون من الجن الذين يفعلون ذلك - والأصل في الخلق كلهم الطاعة. والملائكة في السماوات العلا يسبحون بحمد اللَّه ويقدسونه.

إنه سؤال تردد عندهم فلم يجدوا حرجًا أن يسألوا رب العزة عن حكمة خلق عصاة في الأرض.

وكان جواب رب العزة ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلم يكن الجواب حظرهم عن السؤال أو منعهم من الحوار؛ بل كان الجواب: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢]. (لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها على يد خليفة اللَّه في أرضه، هذا الذي قد يفسد أحيانًا وقد يسفك الدماء أحيانًا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل؛ خير النمو الدائم والرقي الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف والتطلع الذي لا يقف. والتغيير

والتطوير في هذا الملك الكبير)[١].

إنهم لم يعلموا الأسماء التي علَّمها اللَّه - تعالى - لنبيه آدم؛ لأنهم لا حاجة لهم بها، وليسوا مسؤولين عن الخلافة في الأرض، أما آدم - عليه الصلاة والسلام - فقد كانت الخاصية الأولى له في هذه الخلافة العلم؛ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣].

لقد أقيمت الحجة من رب العالمين على ملائكته حين شهدوا علمه، وكانت الحجة لفظية وعملية. وعرف الملائكة أنهم أمام مخلوق أعظم منهم بما أعطاه اللّـه - تعالى - من العلم، رغم أنه قد يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ [البقرة: ٣٤] (إنه التكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وُهِب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة؛ لقد وهب سر المعرفة كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.

إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه واضطلاعه بأمانة الهداية إلى اللَّه بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه.

ولقد سجد الملائكة امتثالًا للأمر العلوي الجليل)[٢] لقد كان السجود بعد حوار مع رب العزة ﷻ من مخلوقاته من الملائكة التي لا تعرف إلا الطاعة، وأثمر هذا الحوار الاستجابة الكاملة للسجود لآدم.

فهو أول حوار في الملأ الأعلى يثمر الطاعة التامة لرب العزة ﷻ. ولنتصور كم تختلف الصورة عند الملائكة لو دعوا للسجود إلى هذا المخلوق الجديد الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، قبل أن يقع هذا الحوار الذي شاءته إرادة الجليل الأعلى سبحانه. وقبل أن تطمئن قلوبهم إلى هذا المخلوق الفريد الذي يطيع بإرادته وهو قادر على المعصية.

٢ - حوار إبليس مع ربه:

إبليس لم يكن ابتداءً من الملائكة، كما هو منصوص عليه في كتاب اللَّه ﷻ: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان من الملائكة لما عصى اللَّه سبحانه؛ لأن الملائكة ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. وإبليس مخلوق أقرب إلى طبيعة آدم منه إلى طبيعة الملائكة فهو قادر على الطاعة والمعصية.

(١، ٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/ ١/ ٥٧)، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة.

لقد انتهت قصة الملائكة وسجدوا لآدم بعدما بيَّن لهم ربهم - سبحانه - الميزات التي تستدعي السجود له، لكن إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، وجاهر بالمعصية وهو في الملأ الأعلى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١١ - ١٨].

إنه حوار بين خالق السماوات والأرض وبين إبليس - رمز الشر في الوجود - شاءت إرادته ﷻ أن يسمح له بهذا الحوار، وأن ينقل لنا هذا الحوار في كتابه الكريم فلم يقصمه رب العزة - جل ثناؤه - عندما أعلن هذا التحدي، مجاهرًا بمعصية أمر ربه؛ بل سأله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

واللَّه تعالى يعلم أنه ليس خيرًا منه، لكنه جعل له رأيًا يجاهر فيه ربه بالمعصية.

ولا داعي للرد على هذا المخلوق من هو خير؛ فهذا يكون في الدنيا وعلى الأرض، أما في الملأ الأعلى فلا مقام للعاصين عندهم.

قال: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] فالملأ الأعلى لا مقام بينهم لمتكبر أو عاصٍ أو مجاهر بالمعصية. ونوع خلق الجن مثل الإنس قادر على المعصية والطاعة ولا تفرض عليه هذه أو تلك، غير أن مقامهم في الأرض التي اختيروا للخلافة فيها.

وحيث إن هذا المخلوق - إبليس - كان من إرادة اللَّه - تعالى - أن يكون له إرادة واختيار؛ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩].

وكما نرى فهو مؤمن بربه ﴿ رَبِّ ﴾ ومؤمن باليوم الآخر ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ومؤمن بالثواب والعقاب، وإنها للجنة أبدًا أو النار أبدًا. وها هو يحرم الجنة وصحبة الملأ الأعلى بسبب آدم؛ إنه الكبر الذي حدا به لرفض السجود رغم أمر اللَّه له، وإنه الحقد على هذا المخلوق المكرم عليه. وطلب النظرة إلى يوم الدين كي ينتقم من هذا المخلوق الذي بسببه أهبط من الجنة. ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥].

ويعلن إبليس خطة بين يدي ربه رب العزة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]. فسيقوم بإغواء آدم وذريته وصرفهم عن الإيمان والهدى، وستكون رسالته الإفساد في الأرض بكل وسيلة يملكها ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

ولم يكن جواب الحوار قصمه وقد أعلن عن خطته، ولم يكن الجواب قتله وقد أعلن عن نفسه، عن أنه إمام الشر في الوجود؛ فهو مخلوق يريد ويختار، ويعاقب على إرادته واختياره بعد البعث والنشور؛ إنما كان الأمر الرباني أن يطرد من الجنة ويخرج منها مذؤومًا مدحورًا، والعقوبة بعد إتاحة الفرصة له ولأتباعه في الدنيا وفي الأرض. وجهنم موعدهم أجمعين حيث تحتمل الأرضُ الطاعةَ عليها والمعصيةَ، أما السماء فلا؛ فهي للملائكة الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

نحن بحاجة إلى حفظ هذا المبدأ منذ أول الطريق: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والحرية قائمة عند هذا المخلوق على الأرض يطيع أو يعصي، يؤمن أو يكفر. وسيعود إلى اللّه ثانية ليحاسبه على ما عمل.

إن إبليس يحاور ربه لا ليصل إلى الهدى ويتعرف على الحقيقة؛ ولكنه يحاوره ليعلن عن حربه على آدم وبنيه وإصراره على إضلالهم ما استطاع سبيلًا إلى ذلك.

ولم يحقق الحوار ثمرة؛ لأنه لم يكن هدفه الوصول إلى الحق، إنما كان هدفه عند الشيطان الرجيم الإصرار على المعصية، والإصرار على الكبر، والإصرار على الإضلال والإغواء، وكان له ما يريد؛ وذلك في حوار لم نكن نعرف عنه شيئًا إلا ما علّمناه اللّهُ من كنوز غيبه، وما أعطانا اللّه – تعالى – من فضل علمه ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

كان بقدرة اللّه – تعالى – أن يجتث الشر من الوجود بعدم إنظار إبليس، وإذن فأين المخلوق القادر على الخير والشر والمستحق للمثوبة والعقوبة؟؟ إنها مرحلة من مراحل هذا الوجود أرادها خالق هذا الكون، وهذه بعض معالمها القادمة.

٣ – الحوار بين: آدم وإبليس، وبين: آدم ورب العزة ﷻ:

قال اللّه تعالى لآدم بعد أن نفخ فيه من روحه، وبعد أن خلق له زوجه حواء: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧ – ١١٩] فقد كان عون اللّـه – تعالى – له واضحًا في تحديد عدوه، وأعطاه رغد العيش في الجنة، وأصدر له أمرًا أن يأكل حيث يشاء في هذه الجنة يسعد ويتنعم،

إلا شجرة واحدة، حرَّم عليه الأكلَ منها ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] وعون اللـه – تعالى – ثانية لهما كان في إيضاح خطورة المعصية، و في إيضاح خطورة المخالفة: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وجاء دور الشيطان ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٠ – ٢٢].

فإبليس ينفذ ما صمم عليه بين يدي ربه: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦] وها هو يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فيقسم لهم أنه ناصح أمين – والقسم بالله رب العالمين رب العزة ﷻ – فحرك الشهوة عندهم في أبعادها الأربعة: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وشهوة الخلود والحياة، وشهوة الاستعلاء والذكر ﴿ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وإبليس المصمم على إغواء بني آدم يعرف نقاط ضعفه في شهواته ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢] وأوقع آدم وزوجته في الخطيئة.

إننا أمام حوار جديد يكاد يكون من طرف واحد هو طرف إبليس بكل ما يملك من طاقات الإغواء، ولم يَدُر بخلد آدم أن يتجرأ إبليس على القسم بربه أنه صادق فيما يدعيه ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

– فضعف أمام هذا الإغواء ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١٢١] وأدرك آدم وزوجه الخطيئة الكبرى في معصية أمر اللـه – سبحانه – والاستجابة لأمر إبليس وإغوائه؛ حيث بدت عاقبة الخطيئة مباشرة، وبدت لهما سوآتهما. وراحا يغطيان هاتين السوأتين بورق الجنة، وجاءهما النداء الرباني ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٢ – ٢٥].

لقد شعر آدم عليه السلام بعظم الخطيئة مع زوجه حواء – عليها السلام – منذ أن بدت لهما سوآتهما، فليست الخطيئة عن سبق عمد وإصرار وتكبر وعجب؛ إنما هي خطيئة عن ضعف وشهوة وإغراء وإغواء. ومن أجل ذلك اختلف الموقف جذريًّا بين الفريقين؛ فريق إبليس – لعنه اللَّه – الذي أصر على المعصية والتحدي: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢] وفريق آدم عليه السلام الذي ندم واستغفر وأناب مع زوجه: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وجاء الجواب الرباني بالهبوط إلى الأرض؛ لأن الجنة ليست دار المعصية، ولا يبقى العاصي فيها، بغض النظر عن بواعث المعصية وأسبابها. واستحق الفريقان الهبوط إلى الأرض، وبقي آدم وزوجه - عليهما السلام - يبكيان ويرجوان توبة اللَّه عليهما ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ويستمر الحوار مع رب العزة ﷻ ويتلقى آدم أمر اللَّه تعالى بعد هبوطه مع زوجه إلى الجنة ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]. لقد توضح خط هذا الخليفة وهو يحط قدمه على الأرض ويخط سطر حياته في هذا الوجود.

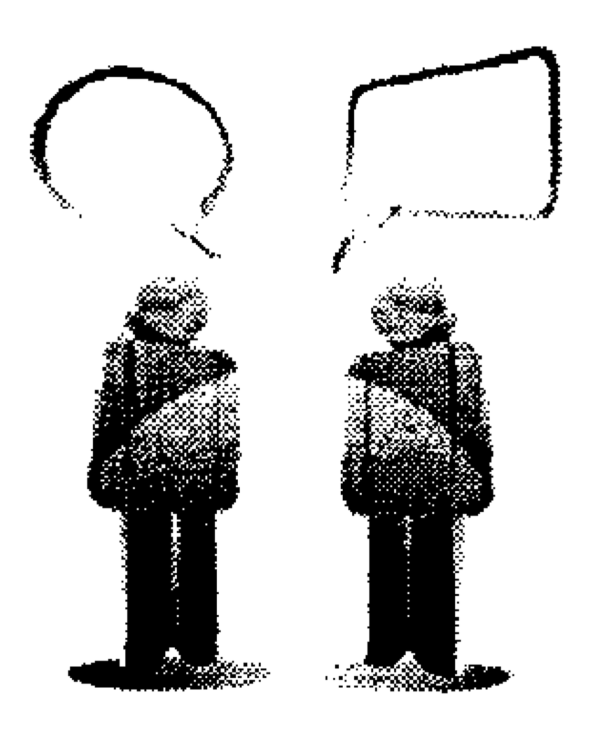
هذا الخط هو الحرية في الحياة وعدم الإجبار على الطاعة، إنما حرية الاختيار فيها بين الإيمان والكفر؛ فلا إكراه في الدين ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩] وبقيت مهمة دعاة الهدى في الأرض إيضاح هذا الهدى للناس وتبيانه لهم بالحجة والكلام: قال، قلت، قلنا. وليس في فرض الهدى عليهم، والأرض مؤهلة لقيام الطاعة والمعصية عليها؛ ولذلك تم الهبوط عليها من إبليس وذريته وآدم وذريته، وفيها تستمر الحياة، ويستمر العمل، طاعة أو معصية. ومنها الخروج ثانية إلى اللَّه تعالى؛ فإما النار وإما الجنة بعد يوم الحساب.

وأعظم معلم نصل إليه - من خلال الاستماع لفجر البشرية، وبدء خلق الإنسان - هو: حرية الاختيار وحرية الإرادة، والحوار هو السبيل لإيضاح رسالة اللَّه - تعالى - إلى خلقه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [لقمان: ١، ٢]، ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ

أَسَفًا ﴾ [الكهف: ١ - ٦] قد تهلك نفسك شفقة عليهم ورحمة بهم ليؤمنوا؛ لكنك لا تملك أبدًا أن تجبرهم على الهدى.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥].

* * *



الحوار
بين رسل الله - تعالى - وأقوامهم

لن نستعرض بالتأكيد تفصيلات الحوارات بين رسل اللَّه - تعالى - وأقوامهم، والذين جاؤوا إليهم بالهدى؛ لكننا نستعرض المنهج الذي حكم كل نبي مع قومه، ونرى أن المنهج واحدٌ لم يتغير مع جميع أنبياء اللَّه وأقوامهم؛ ألا وهو الحوار المباشر للإقناع وللوصول إلى الحقيقة. والذي يتبع العنف والإرهاب هم الملأ الذين كفروا، وما كان لدى المؤمنين إلا الصبر على الأذى ومتابعة الطريق على كل مصاعبه وعوائقه إلى أن يحكم اللَّه - تعالى - بين المؤمنين والكافرين.

لقد قال اللَّه - تعالى - لنبيه آدم ولزوجته حواء إن الهدى سيتنزل من السماء إلى الأرض وسيختلف موقف الناس منه اتباعًا أو مخالفة إلى أن يحين موعد الحساب.

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩] .

(والآن تمضي الرحلة، وتجري القصة، ويبرز الموكب الإيماني الجليل يهتف بالبشرية الضالة، يذكرها وينذرها، ويحذرها سوء المصير، والبشريةُ الضالة تلوي وتعاند ، وتواجه الدعوةَ الخيرةَ بالعناد والتمرد، ثم بالطغيان والبطش، ويتولى اللَّه - سبحانه - المعركةَ بعد أن يؤدي الرسل واجبَهم من التذكير والإنذار. فيقابَلوا من قومهم بالتكذيب والإعراض، ثم بالبطش والإيذاء. وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة، ويختاروا اللَّه وحده ويدعوا الأمرَ له كله)[1].

ولعل أوسع عرض تفصيلي جاء في كتاب اللَّه عن حوار الرسل والأنبياء مع أقوامهم إنما جاء في سورة الأعراف التي تكاد تكون كلها تمثل هذا العرض.

يحدثنا عنه سيد قطب - رحمه اللَّه - فيقول:

(ويعرض السياق قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب.. مع أقوامهم. وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ٨/ ١٢٤٩).

غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويجادلهم قومهم في إفراد اللَّه سبحانه بالألوهية، ويستنكرون أن تكون للَّه وحدة الربوبية، كما يجادلونهم في إرسال اللَّه بشرًا من الناس بالرسالة، ويجادل بعضهم في أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا، ويتحكم في المعاملات المالية والتجارية... ويعرض السياق مصارع المكذبين في نهاية كل قصة.

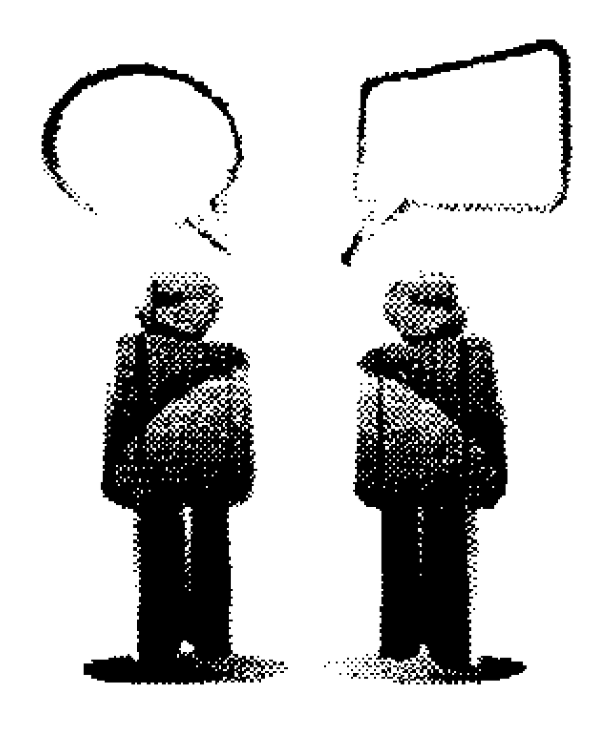
ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله في السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ويتقدم لهم بالحقيقة التي استحفظه عليها ربه تقدُّم الناصح الملخص المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التي تتربص بهم وهم عنها غافلون، ولكنهم لا يقدِّرون نصح رسولهم لهم. ولا يتدبرون عاقبة أمرهم. ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذي يحمله قلب الرسول وعمق التجرد من كل مصلحة، وعمق الإحساس بفخامة التبعة)[1].

وبصدد الحديث عن المنهج نجد القرآن الكريم قد قدَّم أكثر من عرض مجمل لهذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم. نذكر منها على سبيل المثال ما ورد في سورة إبراهيم عليه السلام:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٤].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٨/ ١٢٤٩).



المرحلة المكية والحوار الإسلامي

لقد كان القصص النبوي في كتاب اللَّه - والذي تحدثنا عنه آنفًا - جزءًا أساسيًّا من منهج الدعوة والمواجهة بين رسول اللَّه ﷺ والملأ من قومه ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]؛ فالهدف منه الوصول إلى الهدى، والوصول إلى الرحمة، والاعتبار بالماضين ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

والقضية التي لا يجادل فيها أحد هي أن المرحلة المكية - والتي استمرت ثلاثة عشرة عامًا - إنما قامت على الحوار - والحوار فقط - بين رسول اللَّه ﷺ - والمؤمنين معه - والمشركين. ويكاد القرآن المكي كله - وهو أكثر من ثلث القرآن - يكون عرضًا لهذا الحوار بين الفريقين، وتقديمًا لحجج ودحضًا لأخرى. إنما الذي يخرج على مبادئ هذا الحوار هم المشركون الذين كانوا يؤذون النبي والذين معه بكل أنواع الأذى المادي والمعنوي. وتُوِّج ذلك بتبييت قتله - عليه الصلاة والسلام - قبل الهجرة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. **هذا ونعرض أوسع حوار في المرحلة المكية بين رسول اللَّه ﷺ وقومه. والذي عرضه القرآن فيما بعد.**

قال ابن إسحاق:

(ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين. ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة... اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذِروا فيه؛ فبعثوا إليه:

إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فأتهم؛ فجاءهم رسول اللَّه ﷺ سريعًا، وهو يظن أن بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء[1] وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم:

---

(١) بدا له في هذا الأمر بداء: أي نشأ له فيه رأي.

فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا واللَّه ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة؛ فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا - فربما كان ذلك؛ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « **ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن اللَّه بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا. فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم** » - أو كما قال ﷺ -.

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك؛ فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدًا، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشًا منا؛ فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند اللَّه وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم - صلوات اللَّه عليه -: « **ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من عند اللَّه بما بعثني به وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم؛ فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر اللَّه - تعالى - حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم** ».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا؛ فخذ لنفسك، وسل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدِّقك بما تقول، وراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه - حتى نعرف منزلك وفضلك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ:

« **ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن اللَّه بعثني بشيرًا**

ونذيرًا - أو كما قال - **فإن تقبلوا ما جئتم به؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر اللَّه؛ حتى يحكم بيني وبينكم** ».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ذلك إلى اللَّه إن شاء أن يفعله بكم فعل** ».

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلبه؛ فيتقدم إليك فيعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا واللَّه لا نؤمن بالرحمن أبدًا؛ فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا واللَّه لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات اللَّه. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا باللَّه والملائكة قبيلًا.

فلما قالوا ذلك لرسول اللَّه ﷺ، قام عنهم، وقام عبد اللَّه بن أبي أمية بن المغيرة - وهو ابن عمته - فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك عند اللَّه كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك عند اللَّه فلم تفعل - أو كما قال له - فواللَّه لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم اللَّه لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

ثم انصرف عن رسول اللَّه ﷺ، وانصرف عنه رسول اللَّه ﷺ حزينًا آسفًا لما فاته، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه)[١].

لقد أنزل اللَّه ﷻ صورة هذا النقاش في سورة الإسراء في الآيات الآتية:

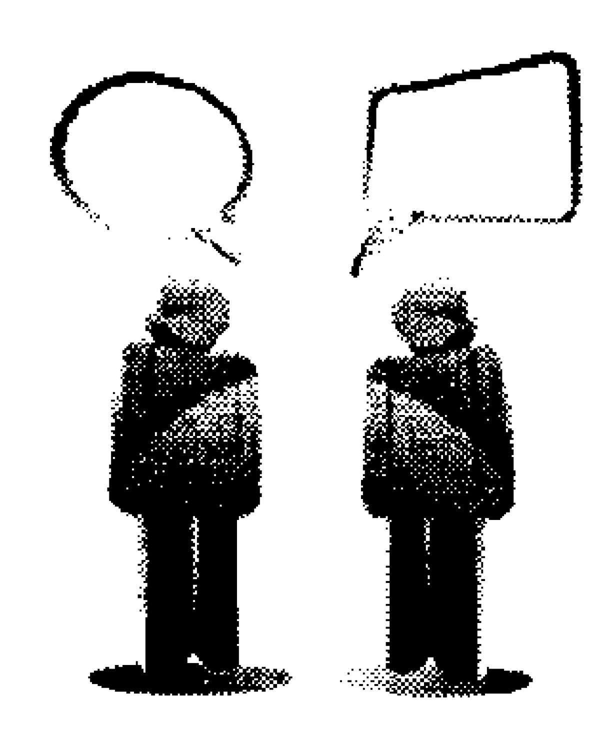
﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٥ - ٢٩٨).

ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٥]

وسنحاول من خلال العرض القرآني، وعرض السيرة أن نصل إلى آداب الحوار الذي نشهده في ثنايا كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ من قبل الفريق المؤمن، والمتمثل بالجدال بالتي هي أحسن، وعدم تقيد الفريق الكافر بهذه الآداب.

* * *



آداب الحوار
بين الحوار والجدال
على ضوء الكتاب والسنة

لقد استعمل القرآن الكريم مصطلح الجدال مع الكافرين، وأعداء الرسل، ولم يستعمل مصطلح الحوار؛ فللجدال آدابه، وللحوار آدابه. والأصل في الفريق المؤمن أن يحافظ على آداب الجدال والحوار، سواء تقيد بها خصمه أم لا.

لكن القرآن الكريم طالب المؤمنين في أكثر من آية أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

والموقف المدعو إليه المسلم في الجدال هو أعلى الدرجات وهي كما يأتي:

١ - الاعتداء.

٢ - الرد بالمثل (السيئة بالسيئة).

٣ - الرد بالحسنة على السيئة.

٤ - الرد بأحسن.

٥ - الرد بالتي هي أحسن.

وسنتتبع هذا المنهج (التي هي أحسن) لنحدد معالمه من ثنايا كتاب اللّٰه وسنة رسوله، في الوقت الذي نشهد فيه الجدال المقيت واللجاج في الخصومة، والإصرار على الباطل: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨]، ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ٣]، وهذا الجدل أقرب ما يكون إلى أسلوب الشيطان مع ربه ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

(والخلاصة: إن الجدال لم يؤمر به، ولم يمدح في الكتاب والسنة على إطلاقه؛ وإنما الممدوح منه ما قيد بالحسنى أو بالحق كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وإن الأصل في الجدل أنه مذموم ما لم يقيد كما تدل الآيات والأحاديث التي أطلق فيها.

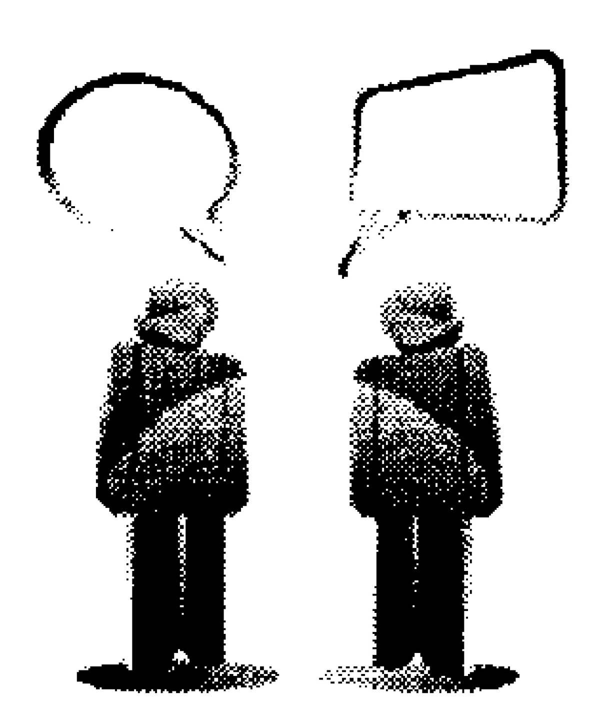
ومن ذلك يتبين الفرق بين الحوار والجدال؛ إذ إنهما يلتقيان في كونها حديثًا ومراجعة للكلام بين طرفين، ويفترقان في أن الجدال فيه لدد في الخصومة، وشدة في الكلام مع التمسك بالرأي والتعصب له. وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين طرفين دون وجود خصومة بالضرورة؛ بل الغالب علية الهدوء، والبعد عن التعصب ونحوه)[1].

وعلى ضوء هذا التفريق بين الحوار والجدل، يمكن القول: أن أعداء الرسل إنما اتخذوا أسلوب الجدل المقيت على الأنبياء وأتباعهم، لكن الرسل وأتباعهم إنما اختاروا الجدال بالتي هي أحسن، والتي هي أرفع مستويات الجدل - المستوى الخامس - وهي آداب الحوار مع الأعداء الألداء، والتي سنتبينها في ثنايا الآيات الكريمة القرآنية، وفي ثنايا الجدال الطويل بين الرسل وأتباعهم، مع ملاحظة أن هذا الجدل قلما تم الإيمان من خلاله، وينتهي الجدال بإصرار أعداء الرسل على رأيهم واستحقاقهم العقوبة الربانية التي تقضى عليهم.

* * *

---

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، د. يحيى زمزمي، ط دار التربية والتراث، مكة المكرمة، الأولى (١٤١٤هـ).



آداب الجدال والخصومة

١ - تحديد الهدف:

وهذا الهدف إنما يتم تحديده من قبل رسل اللَّه - صلوات اللَّه وسلامه عليهم - والذي يكون في معظم الأحيان: الدعوة إلى الوحدانية، والإيمان بالرسالة، والإيمان بالبعث.

أ - الدعوة إلى الوحدانية:

(ويعرض السياق قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب مع أقوامهم، وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويجادلهم قومهم في إفراد اللَّه - سبحانه - بالألوهية، ويستنكرون أن تكون للَّه وحده الربوبية..)[1].

وقد أجمل القرآن هذا المعنى بقول اللَّـه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [إبراهيم: ٩، ١٠]، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ... ﴾ [النحل: ٣٦]. وقولـه ﷻ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

ب - الدعوة إلى الإيمان بالرسالة:

بقوله تعالي: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٨/ ١٢٤٩).

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن اللَّه بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم »[1].

جـ - الدعوة إلى الإيمان بالبعث واليوم الآخر:

بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٣ - ٨]، وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

٢ - الخوف والإشفاق على الخصم:

وليس الحقد والرغبة في التشفي والانتصار والإذلال ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٣ - إبداء الرغبة بالهداية والنصح لهم:

فبالرغم من أنهم اتهموه مباشرة بالضلال المبين؛ إلا أنه لم يغضب لنفسه ولم يغير أسلوب حديثه، إنما نفى الضلالة عن نفسه، وأكد لهم أنه ناصح صادق لهم، وهو مرسل من اللَّه - تعالى - لهم: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

٤ - مهمة الرسالة الرحمة والهدى:

وإذا تعجب الكفار والمشركون أن يكلم اللَّه - تعالى - بشرًا، وينزل عليه وحيًا؛ ففيم العجب، ورحمة اللَّه بعباده أن يبعث لهم بشرًا من أنفسهم - يعرفونه - يهديهم إلى الحق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (ص٢٩٦).

حتى تنالهم رحمته ورضاه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣]؟!

٥ - طلب المفاصلة بالحق بعد الإصرار المستمر على التكذيب:

ولم يكن هذا الإصرار لساعة أو لشهر أو لسنة؛ بل كان لقرابة ألف سنة، وليس الإصرار على التكذيب فقط؛ بل التهديد بالرجم والموت: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١١٨].

٦ - التذكير بالنعم الربانية، والعبرة التاريخية:

ومع أن الخصم الكافر لا يتقيد بأدب الخصومة إطلاقًا، إنما يسب الدعاة ويشتمهم ويتهمهم بالكذب والسفاهة؛ لكن المؤمنين لا يستجرون إلى معركة شخصية لذواتهم، إنما يبقون في الأفق الأعلى، يوضحون الدعوة، ويجلون النعم الربانية على الكفرة، ويذكرونهم بماضي الطغاة قبلهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٦ - ٦٩].

٧ - الأمر بالمعروف والنهي المنكر:

وقد يكون القوم لا ينكرون الإله الواحد؛ لكن فهمهم له قاصر، يرون أنه لا علاقة له بحياة البشر كما هو الحال عند كثير من أهل هذا الزمان. ومهمة الرسول الداعية أن يوضح لقومه خطورة فسقهم وفسادهم وتفردهم في الفاحشة - إن كانوا بها متفردين - بأسلوب لين، لعلهم يتذكرون أو يخشون، ولم يكن الجواب على هذا التذكير إلا طردهم من بلدهم.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٨٠ - ٨٢] وصارت الطهارة عيبًا عندهم، ويحاول أن يستجيش مكامن الخير عندهم، ويذكرهم بقيم معهودة فيهم؛ غير أن الفاحشة عندهم قتلت كل معاني الخير فيهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٨، ٧٩].

٨ - الصبر على الأذى ولو طال:

هذه مهمة الداعية؛ ولو أن خصمه الكافر لم يصبر، وهدَّد بإخراجه من بلده. ما لم يكفر بدين اللَّه، إنه يصبر حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه، ويترك وطنه وأهله وبلده ولا يترك دينه ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧ - ٨٩].

٩ - الثبات على الدين ولو أدى إلى خسارة الأرواح والأوطان:

فقوم شعيب رفضوا العودة في ملة الكفر ولو أصر قومهم على إخراجهم من قريتهم، والسحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون هددهم فرعون بالصلب وقطع الأيدى والأرجل من خلاف ما لم يرجعوا عن دينهم؛ فرفضوا ذلك بثبات وإصرار وإيمان عجيب. إنه الإيمان الذي لم يمرَّ عليه أكثر من ساعةٍ فَعَلَ فعله بنفوس هؤلاء السحرة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١ - ١٢٦].

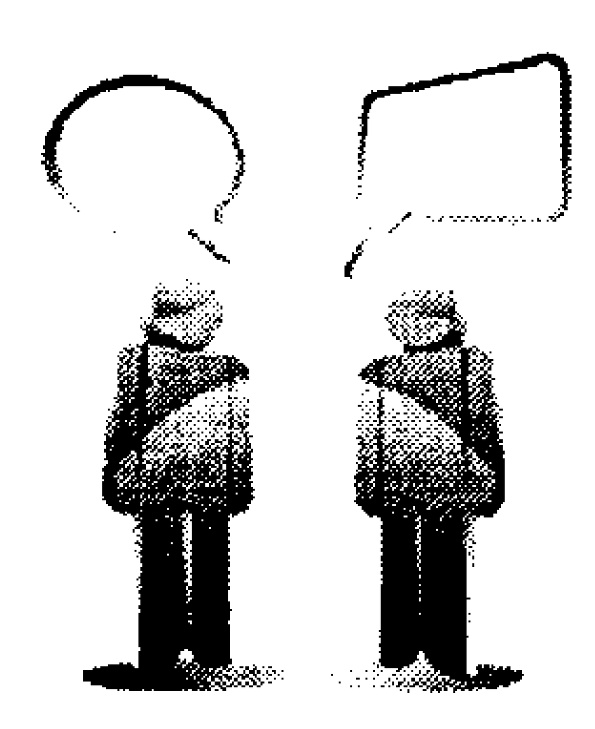
١٠ - الثقة بنصر اللَّه مهما ادلهمَّ الخطب:

ومع أن القوة كلها بيد الأعداء الكافرين، يتحكمون في رقاب المؤمنين يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ثم يتهمون المؤمنين بالفساد في الأرض؛ إلا أن هذا كله لم يمنع الرسل من الثقة باللَّه رغم عتو الكافرين الطغاة ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٢٨]، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَٰهِدِينَ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٧]. ويوم كان رسول الله ﷺ في الغار، والكتيبة المدججة في السلاح على فمه، تبحث عنه لتقتله مع صاحبه. قال له صاحبه: لو نظر أحدهم إلى خلل قدميه لرآنا. قال: « **يا أبا بكر، ما قولك في اثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا** ».

وخلَّد الله تعالى هذا الموقف في كتابه إذ قال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

* * *



صفات
الكفرة والمشركين المجادلين

١ - يجادلون بغير علم:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٨، ٩]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣، ٤].

٢ - الكبر والاستعلاء هو الذي يحركهم وليس طلب الهدى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

٣ - تأليه أنفسهم من دون اللّـه:

﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٤، ٢٥]، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٨، ٣٩]، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤ - يمثلون دومًا - الملأ - الذين يفرضون آراءهم بالقوة:

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]، ﴿ قَالَ

ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

٥ - الحجة التي يقدمونها دومًا اتباع الآباء والأجداد:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢٠، ٢١]، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٤]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

٦ - طلب البينات من الرسل للتعجيز:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٢ - ١٤]، ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٥٩، ٦٠] فقد رأى أهل مكة المعجزة تلو المعجزة بعد ليلة الإسراء - من وصف بيت المقدس كأنه رأي عين، ومن وصول القافلة التي أضلت البعير وسمعت من يدلها عليه، والقافلة التي شُرب من إنائها - وأصروا على أنه أسحر أهل الأرض.

٧ - رفض رسالة البشر وأن اللـه أعظم من أن يكلمهم:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٤، ٩٥]، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[إبراهيم: ١٠، ١١].

٨ - اتهام الرسل بالسفاهة والكذب والجنون والسحر:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠]، ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ١، ٢]، ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٢].

٩ - اتهام الرسل المصلحين بالفساد في الأرض:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] وفَهْمهم عن الفساد هو إثارة المستضعفين على الطغاة وتبصيرهم بظلمهم وضلالهم: (يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة؛ فما بقي من أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك).

١٠ - الاستهزاء والسخرية بالرسل والمصلحين:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦]، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢]، ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

١١ - اتباع الهوى هو الذي يحكم الطغاة المستكبرين:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩]، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد: ١٤].

١٢ - الأقلية المستضعفة والأكثرية المؤمنة:

وفي اتباع خط الأنبياء كله وحيث يكون الجدل هو الحكم؛ فيبقى المؤمنون أقلية ضعيفة بينما يبقى الطغاة وأتباعهم هم الأكثرية الساحقة، حيث يأتيهم العذاب بعد إصرارهم على كفرهم ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

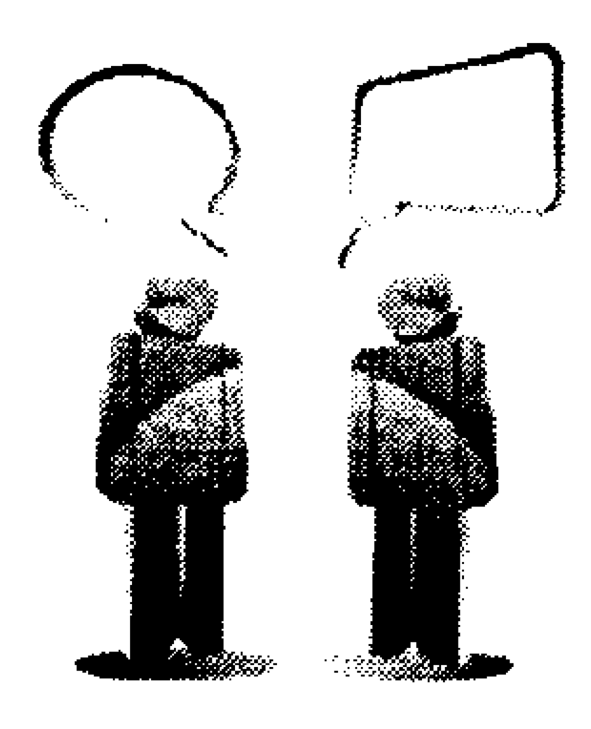
إن الجدل قلما يأتي بخير، وما كان الجدل سبيلًا للإيمان في معظم الأحيان؛ لأن الجدل دائمًا بين قوي متسلط متكبر، وضعيف لا سلطان له ولا نفوذ. وأكثر الناس تبع للمتسلطين المتنفذين يخافون على حياتهم إن خالفوهم، ويخافون على مصالحهم، ويخافون على أرواحهم وأرواح أهليهم وذويهم من الإتلاف.

ملاحظة مهمة:

رغم هذه السمات العامة للجدل بين المؤمنين والكافرين؛ فقد ذُكر الجدل في كتاب الله ﷻ بمعنى الحوار تمامًا، وذكرا معًا في آية المجادلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

كما جاء الحوار في موقع الجدل بين الرجلين: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [الكهف: ٣٧ - ٤٠]؛ فقد كان المؤمن يحاور، أما الكافر فيجادل ويكابر: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤].

* * *



أول حوار إسلامي
وإسلام رئيس الدولة

إن ما جرى بين رسول اللَّه ﷺ وبين المشركين هو جدل عقيم أكثر منه حوار هادف؛ فالمشركون مصرون ابتداءً على رفض الإسلام وقبول أي حل دونه، ورسول اللَّه ﷺ لا يريد من قومه إلا الهداية للإسلام.

لكن ما جرى في الحبشة في العهد المكي بين جعفر بن أبي طالب ﷺ وعمرو بن العاص موفد المشركين من مكة - حوار يتساوى فيه الطرفان. ومع أن عمرو وعبد اللَّه بن أبي أمية لم يسلما؛ إلا أن الطرف الثالث الحكم هو الذي أصغى إلى الحوار مع عمرو، وإلى الحوار معه. وانتهى بأكبر نصر حققه المسلمون في عهد الدعوة والمصابرة؛ هو إسلام النجاشي، وتحول الحبشة إلى قاعدة آمنة للمسلمين في مكة.

عن أم سلمة - رضي اللَّه عنها - قالت:

(لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا فيها خير جار - النجاشي - أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا اللَّه - تعالى - لا نؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه الأدم[١]. فجمعوا له أدمًا كثيرًا ولم يتركوا بطريقًا من بطارقته إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد اللَّه بن أبي ربيعة[٢] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بِطْريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن بخير دار عند خير جار؛ فلم يبق بِطْريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي؛ فقبلها منهم، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بَعَثَنَا إليك فيهم

---

(١) الأَدَم: الجلود.

(٢) عبد اللَّـه بن أبي ربيعة هو صاحب الموقف العنيف مع رسول اللَّـه ﷺ في مكة؛ فهو ابن عمة النبي ﷺ والذي قال له أنه لن يؤمن به حتى يصعد إلى السماء، ويأتي بكتاب منها وشهود من الملائكة.

أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا[1]، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد اللَّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. فقال بطارقته حوله: صدقًا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لاها اللَّه[2] إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي؛ حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني، ثم أرسل إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول واللَّه ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا - وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم، فقال لهم:

ما هذا الذي فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب. فقال له:

أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدَّد عليهم أمور الإسلام.

فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من اللَّه؛ فعبدنا اللَّه وحده ولم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللَّه - تعالى - وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما

(١) أعلى بهم عينًا: أبصر بهم.

(٢) لاها اللَّـه: لا واللَّـه.

قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن اللَّه من شيء؟

فقال له جعفر: نعم.

فقال النجاشي: فاقرأه علي.

قالت: فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١] فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته[١]، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال لهم: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا واللَّه لا أسلمهم إليكما.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: واللَّه لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم[٢]، فقال له عبد اللَّه بن ربيعة - قالت: وكان أتقى الرجلين فينا -: لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا. قال: واللَّه لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك: إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، ولم ينزلْ بنا مثلُها قط؛ فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول واللَّه ما قال اللَّه، وجاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسي ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد اللَّه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي بيده في الأرض، فأخذ منها عود، ثم قال: واللَّه ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم واللَّه، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - مَنْ سبكم غرم، مَنْ سبكم غرم، مَنْ سبكم غرم. ما أحب أن لي دبرًا من ذهب[٣] وأني آذيت رجلًا منكم، ردوا عليهم هداياهم؛ فواللَّه ما أخذ اللَّه الرشوة مني حين رد إليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

---

(١) اخضلت لحيته: بللتها الدموع.

(٢) خضراؤهم: شجرتهم التي منها تفرعوا.

(٣) دبرًا من ذهب: جبلًا من ذهب.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار).

لا بد من الوقوف هنا مليًّا للتفريق بين نقطتين:

النقطة الأولى: الفكرة والمبدأ الذي يجب أن يُعرض.

النقطة الثانية: أسلوب عرض المبدأ والفكرة.

وكثيرًا ما يختلط الأمر لدى الدعاة إلى اللَّه؛ فيطيحون بالأسلوب جانبًا ويقدمون ما يحفظون من نص مهما كان أسلوب عرضه فيخفقوا لعدم وجود الحكمة التي أمرهم اللَّه بها ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] فيعودوا بالإخفاق على الناس وباللوم لهم وسبابهم، دون أن يدركوا أنهم الذين نفروا الناس بأسلوبهم الفج. ولم يكونوا دعاة إلى اللَّه ورسوله.

ولعل الوقوف أمام الأسلوب الرائع الأخاذ - الذي عرض به جعفر ﷺ دين اللَّه تعالى - يبصِّر دعاة اليوم بمنهج الدعوة وطريقها.

هذا وقبل المضي في الحديث عن الأسلوب يحسن الوقوف أمام شخصية جعفر ﷺ الذي تم اختياره من المسلمين ليكون خطيبًا للَّه ولرسوله بين يدي الملوك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص وبليغهم الذي كان عمر بن الخطاب ﷺ يضرب المثل بفصاحته حين يرى عَيِيًّا يتكلم فيقول: سبحان اللَّه! خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

فجعفر ابن عم رسول اللَّه ﷺ، ولا شك حين يتكلم أمام النجاشي ابن عم المبعوث رحمة للعالمين وأقرب الناس إليه - يجعل النجاشي أكثر اطمئنانًا وثقة بما يعرض عن ابن عمه.

ولنسمع لجانب من هذه الرواية حول أهمية قرابة جعفر:

قال عمير بن إسحاق: حدثني عمرو بن العاص قال:

(لما رأيت جعفرًا وأصحابه آمنين بأرض الحبشة حسدته، قلت: لأستقبلن لهذا وأصحابه. فأتيت النجاشي فقلت: ائذن لعمرو بن العاص، فأذن لي، فدخلت، وقلت: إن بأرضنا ابن عم لهذا - يعني جعفرًا - يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنا واللَّه إن لم ترحمنا منه وأصحابه لا قطعت إليك هذه النطفة[1] ولا أحد من أصحابي أبدًا.

---

(١) النطفة: البحر.

فقال: وأين هو؟ قلت: إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولًا، فوجدناه قاعدًا بين أصحابه فدعاه فجاء؛ فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمرو بن العاص، ونادى خلفي: ائذن لحزب الله ﷻ.

فسمع صوته، فأذن له قبلي، فدخل ودخلت، وإذا النجاشي على السرير. قال: فذهبت حتى قعدت بين يديه، وجعلته - أي جعفرًا - خلفي. وجعلت بين كل رَجُلَين من أصحابه رجلًا من أصحابي.

فقال النجاشي: نجروا (أي تكلموا). قلت: إن بأرضك رجلًا ابن عمه في أرضنا، ويزعم أن ليس للناس إلا إله واحد. وذلك إن لم تقطعه وأصحابه لا أقطع إليك هذه النطفة أنا ولا أحد من أصحابي أبدًا. قال جعفر: صدق ابن عمي، وأنا على دينه. فصاح صياحًا وقال: أوه، حتى قلت: ما لابن الحبشية لا يتكلم؟

فقال: أناموسٌ كناموسِ موسى؟

قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

قال: أقول: هو روح الله وكلمته.

قال عمرو: فتناول شيئًا من الأرض فقال: ما أخطأ في أمره مثل هذا. فوالله لولا ملكي لاتبعتكم.

وقال لي: ما كنت أبالي أنك لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبدًا.

وقال لجعفر: أنت آمن في أرضي، من ضربَكَ قتلتُه، ومن سبَّك غرَّمْتُهُ. وقال لآذنه: متى استأذنك هذا فائذن له إلا أن أكون عند أهلي، فإن أَبَى فأْذَنْ له)[1].

ويكفينا أهم جانبين في جعفر ﷺ شهد له بهما رسول الله ﷺ، وهما: خُلُق جعفر القابس من مشكاة النبوة، وجمال خَلْقه المنحدر من أصلاب النبوة؛ فعن عبد الله بن أسلم مولى رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لجعفر: « **أشبهت خَلْقي وخُلُقي** »[2].

فالخطيب بين يدي النجاشي عنده سمة النبي ﷺ في هيأته وسمته في خلقه، وكفى بذلك فخرًا؛ فطاقات النجاح المهمة إذن متوفرة لديه.

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي وقال: رواه الطبراني والبزار. وعمير بن إسحاق وثقه ابن حبان وغيره، وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٢٧٣)، وقال فيه: رواه أحمد وإسناده حسن.

اختار جعفر ﷺ للإجابة - التي وجدها فرصة سانحة بين يدي النجاشي - الأسلوب الأمثل في العرض، من خلال الخطوات الآتية:

أ - وصف ما كان عليه أهل الجاهلية، وركَّز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوة.

ب - عرض شخصية الرسول ﷺ في هذا المجتمع الآسن المليء بالرذائل، وكيف كان بعيدًا عن هذه النقائص كلها، ومعروفًا بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فهو المؤهل للرسالة.

جـ - تحدث عن المبادئ العامة للدعوة، أو عرض أخلاقيات هذا الدين التي تلتقي مع كل أخلاقيات دعوات الأنبياء؛ نبذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، والكف عن المحارم والدماء، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وكون النجاشي وبطارقته موغلون في النصرانية؛ فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التي بعثوا بها من لدن آدم وموسى عليهم الصلاة والسلام.

د - فضح ما فعلته قريش بهم؛ لأنهم رفضوا عبادة الحجارة، وآمنوا بما نُزِّل على محمد، وتخلَّقوا بخلقه.

هـ - أحسن الثناء على الملك بما هو أهله: أنه لا يُظلَم عنده أحد، وأنه يقيم العدل في قومه.

و - وأوضح أنهم اختاروه كهفًا من دون الناس فرارًا من ظلم هؤلاء الذين يطالبون بهم.

وبهذه الخطوات البينة الواضحة، دحر بلاغة عمرو وفصاحته، واستأثر بلب النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بعقل ولب البطارقة والقسيسين الحاضرين.

ز - وعندما طلب النجاشي الملك شيئًا مما نزِّل على محمد جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير حتى بكى النجاشي وأساقفته، وبلُّوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع.

إن عبقرية جعفر ﷺ في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح، والشحنة العاطفية - أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه ليكون جنديًّا من جنود الدعوة.

رواية أخرى للحوار بين الرجلين والملك:

لا أرى بأسًا من عرض رواية أخرى تعطينا إضاءات أكثر حول الداعية العظيم جعفر ﷺ لتكون نبراسًا بين أيدينا نتأسى بها ونحن على طريق الدعوة:

فعن عروة بن الزبير ﷺ قال: (... فبعثت قريش في آثارهم عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص السهمي، وأمروهما أن يسرعا السير حتى يسبقاهم إلى النجاشي ففعلا. فقدما على النجاشي فدخلا عليه فقالا له: إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا وأفسد فينا - تناولك ليفسد عليك دينك وملكك، وأهل سلطانك، ونحن لك ناصحون... وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك؛ فبَعَثَنَا قومُنا إليك لننذرك فساد ملكك، وهؤلاء نفر من أصحاب الرجل الذي خرج فينا، ونخبرك بما نعرف من خلافهم الحق؛ أنهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهًا، ولا يسجدون لك إذا دخلوا عليك؛ فادفعهم إلينا فلنكفيكهم.

فلما قدم جعفر وأصحابه وهم على ذلك من الحديث، وعمرو وعمارة عند النجاشي، وجعفر وأصحابه على ذلك الحال - قال: فلما رأوا أن الرجلين قد سبقا ودخلا صاح جعفر على الباب: يستأذن حزب اللَّه.

فسمعها النجاشي؛ فأذن لهم فدخلوا عليه. فلما دخلوا - وعمرو وعمارة عند النجاشي - قال: أيكم صاح عند الباب؟ فقال جعفر: أنا هو. فأمره، فعادلها. فلما دخلوا وسلموا تسليم أهل الإيمان ولم يسجدوا له؛ فقال عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد: ألم نبين لك خبر القوم؟ فلما سمع النجاشي ذلك أقبل عليهم وقال: أخبروني أيها الرهط، ما جاء بكم؟ وما شأنكم؟ ولستم بتجار ولا سؤَّال؟ وما نبيكم هذا الذي خرج؟ وأخبروني ما لكم؟ لِمَ لَمْ تحيُّوني كما يحييني من أتاني من أهل بلدكم؟ وأخبروني ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقام جعفر بن أبي طالب - وكان خطيب القوم - فقال: إنما كلامي ثلاث كلمات إن صدقتُ فصدِّقني وإن كذبت فكذِّبني. فأْمُر أحدًا من الرجلين فليتكلم، ولينصت الآخر. قال عمرو: أنا أتكلم. قال النجاشي: أنت يا جعفر، فتكلم قبله.

فقال جعفر: إنما كلامي من ثلاث كلمات. سل هذا الرجل: أعبيد نحن أبِقْنا من أربابنا؟ فارددنا إلى أربابنا.

فقال النجاشي: أعبيد هم يا عمرو؟

قال عمرو: بل أحرار كرام.

قال جعفر: سل هذا الرجل: هل أهرقنا دمًا بغير حقه؟ فادفعنا إلى أهل الدم.

فقال: هل أهرقوا دمًا بغير حقه؟

فقال: لا، ولا قطرة واحدة من دم.

ثم قال جعفر: سل هذا الرجل: أأخذنا أموال الناس بالباطل فعندنا قضاء؟

فقال النجاشي: يا عمرو، إن كان على هؤلاء قنطار من ذهب فهو عليَّ.

قال عمرو: ولا قيراط. فقال النجاشي: ما تطلبونهم به؟

قال عمرو: فكنا نحن على دين واحد، وأمر واحد؛ فتركوه ولزمناه.

فقال النجاشي: ما هذا الذي كنتم عليه فتركتموه، وتبعتم غيره؟

فقال جعفر: أما الذي كنا عليه فدين الشيطان وأمر الشيطان؛ نكفر بالله، ونعبد الحجارة. فأما الذي نحن عليه فدين الله ﷻ نخبرك أن الله بعث إلينا رسولًا كما بعث إلى الذين من قبلنا؛ فأتانا بالصدق والبر، ونهانا عن عبادة الأوثان؛ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه. فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وأرادوا قتل النبي الصادق، وردّنا في عبادة الأوثان؛ ففررنا إليك بديننا ودمائنا، ولو أقرّنا قومنا لاستقررنا. فذلك خبرنا.

وأما شأن التحية: فقد حييناك بتحية رسول الله ﷺ والذي يحيي به بعضنا بعضًا، أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحية أهل الجنة السلام فحييناك بالسلام.

وأما السجود: فمعاذ الله أن نسجد إلا لله، وأن نعدلك به.

وأما في شأن عيسى ابن مريم: فإن الله ﷻ أنزل في كتابه على نبينا أنه رسول قد خلت من قبله الرسل، ولدته الصديقة العذراء البتول الحصان، وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وهذا شأن عيسى ابن مريم.

فلما سمع النجاشي قول جعفر أخذ بيده عودًا ثم قال لمن حوله: صدق هؤلاء النفر، وصدق نبيهم، والله ما يزيد عيسى ابن مريم على ما يقول هذا الرجل وزن هذا العود.

فقال لهم النجاشي: امكثوا فإنكم سيوم - آمنون - قد منعكم الله. وأمر لهم بما يصلحهم، فقال النجاشي: أيكم أدرس للكتاب الذي نزل على نبيكم؟ قالوا: جعفر.

فقرأ عليه جعفر سورة مريم. فلما سمعها عرف أنه الحق وقال: صدقتم، وصدق نبيكم، أنتم والله صديقون، امكثوا على اسم الله وبركته آمنين ممنوعين. وألقى عليكم المحبة من النجاشي)[١].

الدروس المستفادة من هذا الحوار:

لقد كان عمرو بن العاص - وهو يمثل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله - على

---

(١) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (ص ١١١ - ١١٣).

مستوى نادر من الذكاء والعبقرية، وكان في عرضه لأمر جعفر قد شحن كل ما لديه من حجة، وألقى بها بين يدي النجاشي من **خلال النقاط الآتية**:

أ - تحدث عن بلبلة جو مكة، وفساد ذات بينها من خلال دعوة محمد ﷺ، وهو وافد مكة وممثلها بين يدي النجاشي، فكلامه مصدق لا يعتريه الشك، وهو عند النجاشي موضع ثقته.

ب - طرق على أخطر وتر يخافه الحاكم، وهو خطر زوال السلطة، وأتباع محمد الذين جاؤوا الحبشة سيزلزلون الأرض تحت قدمي النجاشي، كما أفسدوا جو مكة. ولولا حب قريش للنجاشي وصداقتها معه، ما تعنوا هذا العناء لنصحه (وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ويأمن تاجرنا عندك) فلا أقل من رد المعروف بمثله، ولا أقل من أن نفي حسن الجوار والعلاقة بين مكة والحبشة من تحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

جـ - وأخطر ما في أمرهم، هو خروجهم على عقيدة النجاشي، وكفرهم بها (فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إله، فليسوا على دين قومهم، وليسوا على دينك، وهم مبتدعة دعاة فتنة).

د - ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به أن كل الناس يسجدون للملك لكنهم لا يفعلون ذلك. فكيف يتم إيواؤهم عندك؟ وهو عودة إلى إثارة الرعب في نفسه من عدم احترام الدعاة له حين يستخفون بملكه ولا يسجدون له.

وما فعله عمرو في هذا الموقف يمثل في كل جيل دقة التخطيط في حرب الإسلام ودعاته، وتغذية الحاكمين بهذا السم الزعاف الذي ينفثونه على الدعاة ليقتلوهم به؛ هو أن الدعوة ورجالها خطر على النظام الحاكم، وخارجة عليه، وسوف تبتلع النظام والحاكم ما لم يبادر إلى وأدها في مهدها.

وتحت هذه الراية أبيد الذين يأمرون بالقسط من الناس في كل مكان في الأرض.

هـ - لم يكن حزب الله غافلًا عن المؤامرة، وكان يراقب تحركات العدو؛ ومن أجل ذلك أسرع فاستلم زمام المبادرة. ووصل جعفر ووفده. ولم ينتظر حتى تأتي الظروف المواتية لأنها قد لا تأتي، وقد تأتي الكارثة ما لم تتم المبادرة الواعية، ومن أجل ذلك كان على الباب يستأذن. وبم يستأذن؟ (حزب الله يستأذن عليك).

فقد لامس بحكمة ولباقة واعية الجانب الديني في نفس النجاشي وأراد مباشرة أن يكسر الطوق الذي أحكمه عمرو، في أن قريشًا والنجاشي تحت راية واحدة. لقد حطم تلك الراية، ونفذ إلى أعماق النجاشي ليؤكد له أن جعفرًا ومن معه هم والنجاشي تحت راية واحدة؛

راية التوحيد، والوحي من اللّٰه، والكتاب المنزل من عنده. بينما تخرج قريش خارج هذه الحظيرة، وهم يعبدون الأوثان والأصنام ويقدسونها من دون اللّٰه.

و - ومن أجلها لم يتمالك النجاشي نفسه من الإذن بلا وعي، فهل يتأخر عن الإذن لحزب اللّٰه؟ ولانسجامه مع هذا النداء الذي لامس أوتار قلبه؛ طلب ثانية إعادة الاستئذان من الرجل الذي صرخ (حزب اللّٰه يستأذن عليك).

ز - والمعركة على ضراوتها بين عمرو وجعفر، فاهتبل عمرو فرصة عدم سجود جعفر ووفده للملك، وقال مباشرة: ألم نبين لك خبر القوم؟ وصار النجاشي في وضع محير، وإن كان لا يزال ألصق بقلبه لعمرو وعمارة؛ فكانت الأسئلة وكأنها لائحة الاتهامات المطروحة بأسلوب لبق من النجاشي.

(ما شأنكم؟ وما نبيكم هذا الذي خرج؟ وأخبروني لم لا تحيوني كما يحييني من جاءني من أهل بلدكم؟ وأخبروني ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟).

ح - وبدلًا من أن يستسلم جعفر لهذا الهجوم، ويأخذ في الدفاع كان واعيًا لكل ما يجري حوله. واستلم ثانية زمام المبادرة ونقل الاتهام إلى عمرو وقومه في كلمات موضحة محددة. إن مطالبة قريش بهم باطلة بشهادة سفير قريش نفسه.

ثلاث كلمات دون أن يضيع الوقت في غيرها: أعبيد هم؟ هل أهرقوا دمًا بغير حقه؟ هل أخذوا أموال الناس بالباطل؟ وكان الجواب كله لصالح حزب اللّٰه؛ فما كان المشركون ليكذبوا في ذلك الوقت (بل أحرار كرام.. ولا قطرة واحدة من دم.. ولا قيراط) وذلك ليأمن ابتداء من سلامة الأرض التي يقف عليها قبل الخوض في أمر الدين؛ فذلك له حديث آخر يأتي في موضعه.

ط - وحين يعرف النجاشي أن القوم أحرار كرام، لم يزهقوا نفسًا، ولم يأكلوا مالًا بشهادة أعدائهم أنفسهم؛ فسيكون سماعه بعدها لعرضهم يختلف عما لو لم تتضح الصورة الآنفة الذكر.

لقد هدم جعفر بناء ضخمًا أقامه عمرو؛ حين أكد نظافة حزب اللّٰه من كل لوثة بإقرار سفير قريش، وأوجد الجو المناسب للحديث عن العقيدة؛ فليس هدف جعفر أن يحقق الأمان لحزب اللّٰه، ولو كان كذلك لانتهى الأمر عند هذا الحد.

الهدف هو النجاشي نفسه قلبه وعقله وعاطفته؛ أن يُدعى إلى اللّٰه على بصيرة، وبغاية الحكمة والدقة.. دون أدنى ذرة من التفريط في دين اللّٰه، فربح النجاشي على حساب العقيدة

هو خسارة لها في حقيقة الأمر. وليكن؛ فسلامة الأسلوب وحسنه لا يعني التحريف في العقيدة ليرضى النجاشي، ويأمن القوم.

ونحدد الكلام أكثر: فليس الهدف النجاشي نفسه أن يحمي المؤمنين وينصرهم؛ بل الهدف أن ينضم النجاشي للدعوة الجديدة؛ فما كان الأسلوب إذن انحرافًا.

ي - نعم.. هم لا يؤلهون عيسى ابن مريم؛ لكنهم كذلك لا يخوضون في عِرْض مريم - عليها السلام - كما يخوض الأفاكون، بل عيسى ابن مريم كلمته وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قاله جعفر، ولا مقدار هذا العود.

ك - نعم.. وهم لا يسجدون للنجاشي؛ فهم معاذ اللَّه أن يعدلونه باللَّه ولا ينبغي السجود إلا للَّه.

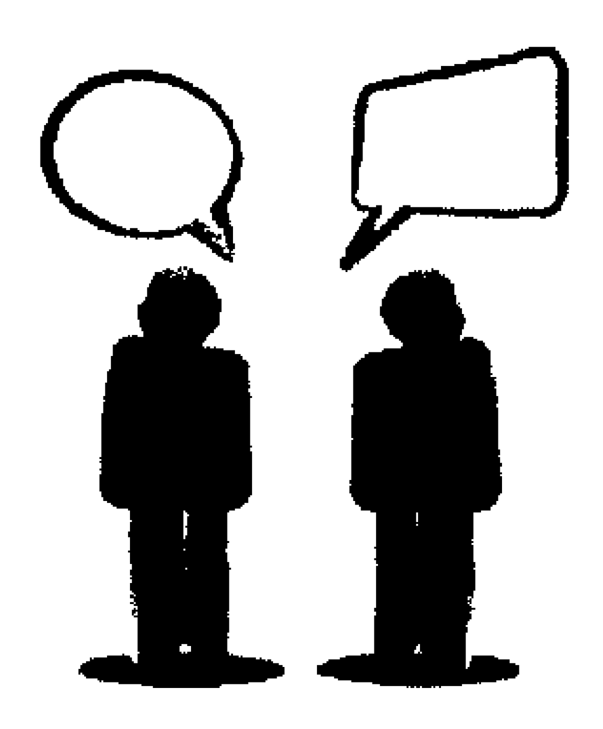
ل - وانتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم، لكن يود أن يطمئن قلبه، فإذا كان هذا شأن الرسالة؛ فلا بد من سماع كلام مباشر لوحي اللَّه تعالى، فروح الوحي الرباني يتضح لكل ذي عينين مبصر. وتلا جعفر صدر سورة مريم؛ فكان برد اليقين الذي نزل على قلب النجاشي.. فهؤلاء صديقون، وحواريون كحواريي عيسى ابن مريم،وهو المؤمن الصادق الذي يتمنى أن يكون في خدمة رسول اللَّه الذي يأتيه الناموس كناموس موسى، وهو يتقرب إلى اللَّه بحمايتهم، ويؤكد بعدها لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش، ولا مال قريش ولا جاهها، ولو قطعت علاقتها معه؛ فهو حامي حمى حزب اللَّه ﷻ.

إن هذا العرض الحي لأكبر نجاح حققته الدعوة في ذلك الوقت أن تضم إليها ملكًا حاكمًا - لم يتم عَرَضًا وبسهولة؛ لقد تم بحركة ووعي، وعبقرية في التخطيط والتنفيذ، وحوَّل الكارثة المتوقعة الوشيكة إلى أكبر غُنْم ظفر به المؤمنون آنذاك حتى ذلك الحين. ومن أجل هذا عندما تعرض النجاشي للخطر، قلق المسلمون، وعرفوا أن استقرارهم مرتبط بمصيره، وبعثوا الزبير فتى القوم ليشهد نتائج الثورة على النجاشي؛ فهم يسابقون الأحداث ويعيشونها. فلم يشهدوا غمًّا حضرهم كالغم من ثورة القوم على النجاشي، ولم يشهدوا فرحة نزلت بهم كفرحهم بفوز النجاشي على خصومه.

هذا وتشير بعض الروايات إلى جانب دقيق في هذا الموضوع: هو أن النجاشي قد أخفى إيمانه يوم ثارت الأحباش ضده ليبقى مركز الحبشة آمنًا للمسلمين بوجوده، كما تشير كذلك إلى أنه أعد سفينتين للمسلمين في تصور أسوأ الاحتمالات فيما لو فاز خصومه عليه، فلا تهمه نفسه؛ لكن تهمه سلامة الدعاة فيهاجروا بهما عند الخطر، وينجوا بأنفسهم من الطغيان.

هذا هو الحوار الذي ندعو المسلمين اليوم إلى فقهه، والتعمق في جزئياته؛ لأنه يمثل واقع الدعاة اليوم في ديار الغرب، والمعاناة التي يشهدونها في صفوف الأوربيين والأمريكيين الذين ينتمون أصلًا إلى المعسكر المعادي للإسلام، لكن الحرية عندهم والديمقراطية تتيح قدرًا من الدعوة وقدرًا من الأمن قد لا يجده الدعاة أحيانًا في بلادهم. ولهؤلاء القوم قوانين مرعبة وقداسة للدستور يجب الوعي عند الدعاة في مراعاتها والتعرف على الخطوط الحمر التي لا يحق لهم تجاوزها، وليكن عندهم الطموح في الوصول إلى مواقع النفوذ ومراكز القوى، ومواطن القرار بين تلك الأمم.

* * *



حوار اليهود
والنصارى في العهد المدني

لقد كان جُل همّ الأنصار الأوائل الذين استجابوا للَّه ورسوله هو أن يسبقوا اليهود ببيعة النبي ﷺ.

(وكان مما صنع اللَّه لهم أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكانت الأوس والخزرج أكثر منهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبيًّا سيبعث الآن أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه. فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا إليه يهود. فآمنوا وصدقوا)[1]. وفي رواية: (تعلموا واللَّه إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه)[2].

وكانت قبائل اليهود الكبرى هي:

١ - **بنو النضير**، وعلى رأسهم حيي بن أخطب، وأخواه أبو ياسر وجدي بن أخطب.. وكعب بن الأشر ف. وأبو رافع الأعور.

٢ - **بنو ثعلبة بن الغطيون**: عبد اللَّه بن صوريا الأعور، ولم يكن في الحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه، وابن صلوبا، ومخيريق.

٣ - **بنو قينقاع**: وعلى رأسهم: زيد بن اللصيت، وفنحاص، وشاس بن قيس، ورفاعة ابن زيد بن التابوت، وعبد اللَّه بن سلام وكان حبرهم وأعلمهم.

٤ - **بنو قريظة**: وعلى رأسهم الزبير بن باطا، وعزَّال بن شمويل، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، وكعب بن يهوذا اليهودي الحجة.

في حوار هادئ بين عبد اللَّه بن سلام ورسول اللَّه ﷺ ينتهي الحوار بإسلام حبر اليهود:

(عن أنس أن عبد اللَّه بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة؛ فأتاه يسأله عن أشياء فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي:

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٣٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٨٢).

ما أول أشراط الساعة؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

وما بال الولد ينزع إلى أبيه وأمه؟

قال: « **أخبرني به جبريل آنفًا** ».

قال ابن اسلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال: « **أما أول أشراط الساعة: فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت. وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد** ».

قال: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأنك رسول اللّٰه.

قال: يا رسول اللّٰه، إن اليهود قوم بهت؛ فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت يهود. فقال النبي ﷺ: « **أي رجل عبد اللّٰه بن سلام فيكم؟** ».

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: « **أرأيتم إن أسلم عبد اللّٰه ابن سلام؟** ».

قالوا:أعاذه اللّٰه من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج عليهم عبد اللّٰه فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه. قالوا: شرنا وابن شرنا. ونقصوه.

قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّٰه).

الصورة المعاكسة: الإصرار على الباطل:

فالأمور نفسها التي آمن بها عبد اللّٰه بن سلام هي هي التي أصرت اليهود على الكفر من خلالها.

عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: حضرت عصابة من اليهود نبي اللّٰه ﷺ يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خِلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: « **سلوني عما شئتم. ولكن اجعلوا لي ذمة اللّٰه، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام** ».

قالوا: فذلك لك.

قال: « **فسلوني عما شئتم** ».

وحتى لا تتحول المحاورة إلى جدل عقيم، وحتى لا يتحول الحوار إلى هزء وسخرية

ومن أجل الجدل فقط؛ كان هذا الميثاق الغليظ الذي أخذه رسول اللَّه ﷺ على بني إسرائيل في ملأ من الناس. وعندئذ ابتدأ الحوار.

(قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن:

أخبرنا: أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟

وأخبرنا: كيف ماء المرأة وماء الرجل، كيف يكون الذكر منه؟

وأخبرنا: كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟

قال: « **فعليكم عهد اللَّه وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعُنِّي** » فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق.

قال: « **فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ﷺ هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب عليه السلام - مرض مرضًا شديدًا وطال سَقَمُه؛ فنذر للَّه نذرًا لئن شفاه اللَّه من سقمه لَيُحرِّمن أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه؟ وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها** ».

قالوا: اللَّهم نعم، قال: « **اللَّهم اشهد عليهم** ».

قال: « **فأنشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن اللَّه؛ إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن اللَّه تعالى، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن اللَّه؟** ».

قالوا: اللَّهم نعم، قال: « **اللَّهم اشهد عليهم** ».

« **فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟** ».

قالوا: اللَّهم نعم. قال: « **اللَّهم اشهد** ».

قالوا: وأنت الآن فحدثنا مَنْ وليُّك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: « **فإن وليي جبريل عليه السلام ولم يبعث اللَّه نبيًّا قط إلا وهو وليه** ».

قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك.

قال: فما يمنعكم أن تصدِّقوه؟ قالوا: إنه عدوُّنا.

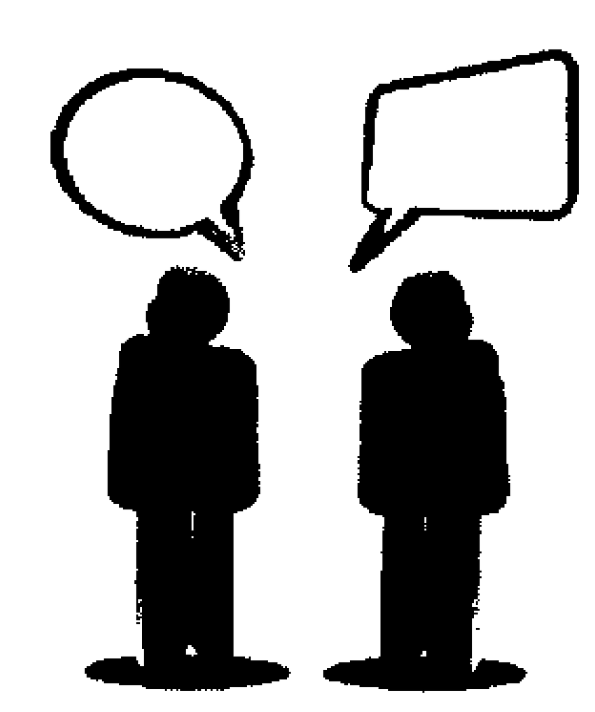
قال: فعند ذلك قال اللَّه ﷻ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ

نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٩٧ - ١٠١]
فعند ذلك باؤوا بغضب على غضب)[1].

لقد انتهى المؤتمر بإعلان صدق رسول الله ﷺ وأنه النبي الأمي المنتظر الذي تنام عيناه ولا ينام قلبه، وأن وليه جبريل عليه السلام من الملائكة. لكنهم قرروا أن يفارقوه ويعادوه، لا لأن الحقيقة غير واضحة، فقد أجابهم على أشياء لا يعرفها إلا نبي؛ إنما لأنه والى جبريل - عليه الصلاة والسلام - عدوهم، ولو تولى غيره لكذبوه فهم يعلمون أنه ولي رسل الله من الملائكة. لكن كما قال إبليس دون أن ينكر الربوبية أو الألوهية ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣] وهو موقن بصدق ربه ومعترف بربوبيته وألوهيته، وهم يعرفون ذلك. لكن يمضون في غيهم وضلالهم واتباع أهوائهم رادين لوحي الله وهداه. والعديد من سور القرآن تعرض لأساليب اليهود وتاريخهم الأسود، ومسلسل فضائحهم مع الأنبياء.

* * *

(١) الإمام أحمد (١/ ٢٧٨).



الحوار بين رسول اللّه ﷺ والنصارى

وها نحن نعرض أوسع حوار تم في مسجد رسول اللّه ﷺ بين رسول اللّه ووفد النصارى القادم من نجران.

الحوار الكبير بين رسول اللّه والنصارى:

فلقد كان الوفد ينوف عن ستين شخصًا قدموا من نجران - أكبر قاعدة نصرانية في جزيرة العرب - وعلى رأسهم أكبر رهبانهم وأحبارهم هناك.

(وقدم على رسول اللّه ﷺ وفد نصارى نجران؛ ستون راكبًا فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم. في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم:

العاقب: أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

والسيد: وهو ثمالهم[1]، وصاحب رأيهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

وأبو حارثة بن علقمة: أحد بني بكر بن وائل أسقفهم، وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان أبو حارثة قد شرُف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم. فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات؛ لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم).

صلاتهم في المسجد النبوي:

(لما قدموا على رسول اللّه ﷺ المدينة - فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر - عليهم ثياب الحبران جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، وقد حانت صلاتهم؛ فقاموا في مسجد رسول اللّه ﷺ يصلون. فقال رسول اللّه ﷺ: « دعوهم ». فصلوا إلى المشرق).

عرض وجهة النظر النصرانية:

(.. فكلم رسول اللّه ﷺ منهم أبا حارثة والعاقب والسيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف في أمرهم؛ يقولون: هو اللّه، ويقولون: هو ولد اللّه، ويقولون: ثالث ثلاثة

---

(١) يقال: فلان ثمال قومه، أي غياث لهم يقوم بأمرهم.

وكذلك قول النصرانية؛ فهم يحتجون في قولهم: هو اللَّه، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا.....

ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة، بقول اللَّه: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحدًا لقال: قضيت وأمرت وخلقت وفعلت، ولكنه هو وعيسى ومريم.

ويحتجون في قولهم: إنه ولد اللَّه بأنهم يقولون: لم يكن له أب يُعلم، وقد تكلم في المهد. وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله).

حوار قصير:

(فلما كلمه الحبران قال لهما رسول اللَّه ﷺ: « **أسلما** ».

قالا: قد أسلمنا.

قال: « **إنكما لم تسلما؛ فأسلما** ».

قالا: بلى قد أسلمنا قبلك.

قال: « **كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للَّه ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير** ».

قالا: فمن أبوه يا محمد؟

فصمت عنهما رسول اللَّه ﷺ فلم يجبهما).

عرض العقيدة الإسلامية:

(فأنزل اللَّه - تعالى - في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

لقد كانت الآيات الثلاثون عرضًا للتوحيد الخالص والإيمان بالوحي والرسالة واليوم الآخر والولاء والبراء للَّه - بمنزلة مقدمة شاملة لما جاء به هذا الدين من عند اللَّه.

ثم عالجت الآيات الثلاثون التالية الرد على ضلالات النصرانية وانحرافاتها عن التوحيد، ودحضت الأفكار الرئيسية الكبرى التي تقوم عليها؛ فردت على أن عيسى هو ابن اللَّه من خلال العرض المسهب لقصة مريم - عليها السلام - واعتزالها للعبادة، ودخول جبريل عليها، ونفخه فيها من روح اللَّه - تعالى - كما نفخ - جل وعلا - الروح في آدم، وعرض عفتها وبراءتها؛ فهي العذراء البتول الحَصان، وهي العابدة الأوابة المنيبة، وأكد أن ليس للَّه ولدٌ سبحانه، وإذا كان عيسى خُلق من غير أب؛ فقد خُلق آدم من غير أم ولا أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ودحض فرية ألوهية عيسى - عليه الصلاة والسلام - بأنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، وينبئهم بالغيب. بأن هذا كله بإذن اللّه وأمره، وهو رسول اللّه الذي ينفذ أمره ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ٤٨، ٤٩].

ودحض فرية الصلب والموت في الوقت نفسه، وأن اللّه - تعالى - أنقذ عيسى - عليه الصلاة والسلام - من أعدائه فرفعه إليه وطهره من الذين كفروا ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وتأتي الآيات التالية لعرض ضلال النصارى في التحدي الرباني لهم إن أصروا على موقفهم بالابتهال إلى اللّه أن يلعن الكاذب من الفريقين ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران ٦٠، ٦١].

ورد على ادعاء الراهبين بالإسلام، وبين كذبهما في ذلك وهم يدعون للّه ولدًا، ويتخذون بعضهم أربابًا من دون اللّه ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعالجت الآيات العشرون الباقية كثيرًا من ضلالات اليهود والنصارى معًا، وادعاءاتهم بفضلهم وقربهم إلى اللّه. وختم تلك الآيات بأن رسالات اللّه واحدة، وجاءت كلها تبشر بالنبي الخاتم محمد بن عبد اللّه الذي أخذ اللّه ميثاق النبيين جميعًا على الإيمان به ونصره؛ بله عن أتباعهم وحوارييهم، وأعلمت النصارى واليهود جميعًا أنه بعد ظهور النبي الخاتم فلا رسالة إلا الإسلام. والمصرون على عقائدهم الباطلة هم الكافرون حقًّا ولهم عذاب أليم ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٤، ٨٥]).

حوار لا مثيل له في التاريخ:

فقد صمت رسول اللَّه ﷺ أمام لجاج العاقب والسيد وهما يسألانه ﷺ: فمن أبوه إذن؟

وتأجل الحوار لليوم الثاني، فكان رب العزة ﷻ الذي يحكم بالحق بين عباده ويفصل بينهم هو الذي يجيب أعلم النصارى على جميع تساؤلاتهم، ويدعوه وقومه إلى الإيمان باليوم الآخر والإيمان بمحمد ﷺ ورسالته ويدعوهم إلى المباهلة إلى اللّه أن يلعن الكاذب من الفريقين إن لم يؤمنوا بقول اللَّه ﷻ (فلما أتى رسول اللَّه ﷺ الخبر من اللّه عنه، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه؛ دعاهم إلى ذلك فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه) وتأجل الحوار لليوم الثالث.

إباؤهم الملاعنة وإصرارهم على الكفر:

(ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم؛ فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟

فقال: واللَّه يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط؛ فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم. فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل. ثم انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا. ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا؛ فإنكم عندنا رضا)[1].

لقد عرفوا أن الرسول حق، وعرفوا أن الملاعنة استئصال لهم، ولكنهم ألفوا دينهم فلن يتركوه؛ فهربوا من الملاعنة وهربوا من الحوار، وأعطوا رسول اللَّه ﷺ أن يحكم فيهم أحد أصحابه، واختار ﷺ القوي الأمين أبا عبيدة عامر بن الجراح ليكون ذلك الحكم.

أبو حارثة وأخوه:

نعرف من خلال قصتهما أبعاد الجدل العقيم حين تتدخل المصالح والأهواء بين الفريقين:

(فلما رجعوا إلى رسول اللَّه ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهًا إلى رسول اللّه ﷺ وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة. فعثرت بغلة أبي حارثة فقال كرز: تعس الأبعد - يريد رسول اللَّه ﷺ - فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧٣، ٥٨٣، ٥٨٤).

قال: ولم يا أخي؟

قال: واللَّه إنه للنبي الذي كنا ننتظر.

فقال له كرز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟

قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم؟ شرَّفونا وموَّلونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه؛ فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

فأضمر عليها أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك) فهو كان يحدث بهذا الحديث فيما بلغني.

وهو الذي يقول:

إليـك تـعـدو قَلِـقًا وضِـينُـهـا ... مُـعـتْـرضًـا فـي بـطنِـها جَنِـينُـهـا

مخـالفًا ديـنَ النصـارَى دينُها [1]

إنه الكلام نفسه الذي قاله أبو جهل بعد سماع كلام اللَّه تعالى: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ واللَّه لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[2].

وأن تصدر مثل هذه الأقوال من أبي جهل، فلا عجب في ذلك كثيرًا؛ فهو يعبد الأصنام، ولا يؤمن بالوحي. أما أن تصدر من أعلم أهل النصرانية ويعلم أنه هو النبي المنتظر كما تقول كتبهم، وللحفاظ على الجاه والمال والمركز والشهرة والنعيم يحمل وزر إضلال كل قومه؛ فهذا هو العجب العجاب. لا بد لنا أن نعي دائمًا في حوارنا مع الخصوم عندما يريدون الجدل للجدل لا للوصول إلى الحق - أن نوقف العبث بعد تبيان الحق.

لقد أنزل اللَّه - تعالى - ثمانين آية؛ لإيضاح الحق لهؤلاء القوم، وأمضى رسول اللَّه ﷺ زهاء ثلاثة أيام وهو يجادلهم بالحسنى والتي هي أحسن كما أمره ربه. وهذا نموذج آخر مما جرى بينه وبينهم حرصًا للوصل إلى الحق:

(فخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا: من أبوه؟ وقالوا على اللَّه الكذب والبهتان. لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣١٦).

فقال لهم النبي ﷺ: « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ ».

قالوا: لا.

قال: « أفلستم تعلمون أن اللَّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « فهل يعلم عيسى من ذلك شيء إلا ما عُلِّم؟ ».

قالوا: لا.

قال: « فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « ألستم تعلمون أن عيسى حملته امرأة كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ ».

قالوا: بلى.

قال: « فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ ».

قال: فعرفوا ثم أبوا إلا الجحود. فأنزل اللَّه - تعالى -: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥])[1].

بينما رأينا كرز بن علقمة لا يتوانى لحظة عن الإسلام والإيمان حين سمع تعليل أخيه راهب نجران عن سبب عدم إيمانه.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٩).

(شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت لنزعوا منا كل ما ترى).

وإذا كان أهل نجران قد ضل سيدهم وحبرهم وأصر على ضلاله؛ فإن ملك عُمان لم يكن كذلك. واستطاع عمرو بن العاص - جندي رسول اللّه ﷺ - أن يقوده إلى حظيرة الإسلام من خلال الحوار الهادف مع أخيه أولًا، ثم معه ثانيًا. كما فعل جعفر مع النجاشي ﷺ.

الحوار بعد صلح الحديبية:

يمثل هذه المرحلة قول الزهري ﷺ:

فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى للناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا **فتفاوضوا في الحديث والمنازعة**؛ فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

قال ابن هشام: (والدليل على قول الزهري أن رسول اللّه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبد اللّه. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين بعشرة آلاف)[1] وهذا الكلام غني عن أي تعليق.

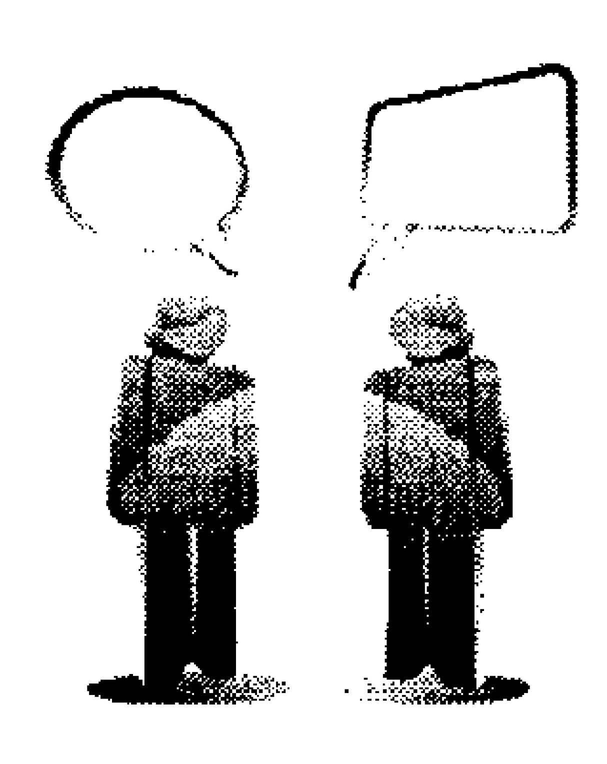
الحوار بعد فتح مكة:

لقد تم الحديث في الفقرة السابقة عن فتح الحديبية نسبة لما قبله من أحداث، وكيف أثمر العشرة آلاف مسلم. لكن فتح مكة وما تم بعده وبعد إنهاء القتال في حنين - لم يكن بعده وقفة ذات بال إلا تبوك، وتبوك كانت مناورة عسكرية أكثر منها غزوة حربية.

وإذا كان قد دخل في الإسلام في سنتين ستة أضعاف المسلمين في فتح الحديبية؛ فقد أعقب فتحَ مكة سَنَتان، اعتنق الإسلام فيهما عشرون ضعفًا للمسلمين وأكثر. فالذي حج مع رسول اللّه ﷺ فقط مائة وثلاثون ألفًا، لكن لا ننسى أن هذا الأمر إنما تم وللمسلمين دولتهم العظمى مرهوبة الجانب؛ فالناس لا يصغون للمستضعفين.

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٢٢).



حوار عمرو بن العاص
مع ملكي عُمان وإسلامُهما
وإسلام أهل عُمان

لئن كان عمرو بن العاص ﷺ هو بطل الكفر في الحبشة ضد جعفر وقد هُزم بإسلام النجاشي؛ فهو اليوم بطل الإسلام الذي تخرج من مدرسة جعفر الدعوية. وانتهى حواره بإسلام رئيس الدولة جيفر بن الجلندي. ولن نتدخل في التعليق على الحوار؛ إنما يكفي عرضه، وستكون الدروس منه بعد استعراضه كما ورد في كتب السيرة:

(وكتب ﷺ إلى ملكي عمان وبعثه مع عمرو بن العاص: « بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللَّه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما؛ فإني رسول اللَّه إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما... ».

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا.

فقلت: إني رسول رسول اللَّه ﷺ إليك وإلى أخيك.

فقال: أخي المقدَّم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك عليه. ثم قال لي: وما تدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

قال: يا عمرو إنك كنت ابن سيد قومك؛ فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة.

قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت على مثل رأيه حتى هداني اللَّه للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟

قلت: قريبًا.

فسألني: أين كان إسلامك؟

قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم.

قال: فكيف صنع قومه بملكه؟

قلت: أقروه واتبعوه.

قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟

قلت: نعم.

قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب.

قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا.

قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي.

قلت: بلى.

قال: بأي شيء علمت ذلك؟

قلت: كان النجاشي يخرج له خرجًا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا، واللَّه لو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته. فبلغ هرقل قوله. فقال له نيَّاق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا، ويدين دينًا محدثًا؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ واللَّه لولا الضن بملكي لصنعت مثل ما صنع.

قال: انظر ما تقول يا عمرو.

قلت: واللَّه صدقتك.

قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به، وينهى عنه؟

قلت: يأمر بطاعة اللَّه ﷻ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه؛ لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذَنَبًا.

قلت: إنه إن أسلم ملَّكه رسول اللَّه ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم، فردَّها على فقيرهم.

قال: إن هذا الخلق لحسن، وما الصدقة؟

فأخبرته بما فرض رسول اللَّه ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل.

قال: يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر، وتَرِدُ المياه.

فقلت: نعم.

فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

قال: فمكثت ببابه أيامًا، وهو يصل إلى أخيه، فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يومًا فدخلت عليه. فأخذ أعوانه بِضَبُعَيَّ.

فقال: دعوه.

فأُرْسِلْتُ، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس فنظرت إليه.

فقال: تكلم بحاجتك.

فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى منه. ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه.

قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟

فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف.

قال: ومن معه؟

قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال. فما أعلم أحدًا بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه؛ يوطئك الخيل، ويبد خضراءك؛ فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال.

قال: دعني يومي هذا، وارجع إليَّ غدًا.

فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه. حتى إذا كان الغد، أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه.

فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه. فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ها هنا. وإن بلغت خيله ألفت قتالًا ليس كقتال من لاقى.

قلت: وأنا خارج غدًا. فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه.

فقال: ما نحن فيه فيما ظهر عليه، وكل من قد أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا وصدَّقا النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا عونًا لي على من خالفني)[1].

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني (١/ ٢٢٧، ٢٢٨) وابن سيد الناس (٢/ ٢٦٧).

وما هي ثمرة إيمان ملكي عُمان؟

كانت الثمرة أن انضم شعب عُمان إلى الإسلام، وكان هذا ثمرة ذلك الحوار الهادف الذي قاده عمرو ﷺ فقد (روى عبد اللَّه بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن القاري أن رسول اللَّه ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجلندي أميري عمان، فمضى عمرو إليهما فأسلما وأسلم معهما بشر كثير ووضع الجزية على من لم يسلم)[1].
ولا شك أن هذا الخلق الكثير الذين أسلموا إنما هم بصحيفة عمرو - رضوان اللَّه عليه -.

ولنا وقفات تعقيبًا على هذا الحوار، ودروسًا مستفادة منه:

١ - (فلما قدمت على الرجلين عمدتُ إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا):

فالداعية من أكبر مهماته التعرف على نفسية المدعو وخلقه قبل ابتداء دعوته؛ لأن للقلوب مفاتيح لأقفالها، والداعية العظيم هو الذي يدرك هذه الأقفال، والمفاتيح المناسبة لها، وإن كان النص لا يسعفنا من أين استقى عمرو معلوماته. إنما عرف بثاقب نظره - إضافة إلى تلك المعلومات - أن جيفر الملك أمامه عُقَد ضخمة تحول بينه وبين الإسلام، بينما أخوه عبد (أو:أعباد) أقل عُقَدًا منه فهو أصغر منه سنًّا وهو بمنزلة مستشار لأخيه الملك؛ فيمكن التوغل إلى قلبه قبل قلب أخيه.

٢ - تحديد الهدف:

فعندما طُلب من عمرو أن يلخص الإسلام كله وإلام يدعو رسول اللَّه ﷺ، قال: (أدعوك إلى اللَّه وحده لا شريك له وتخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله).
إن العقيدة لا تقبل المساومة ولا اللجلجة، وخاصة موضوع الوحدانية والرسالة.

والذين يريدون أن يغمطوا هذا الأمر، ويتدسسوا فيه إلى النصارى؛ بحجة: كلنا مؤمنون، ولا فرق بيننا وبينكم؛ فأنتم تقولون: ثلاثة ثم تقولون: إله واحد. آمين، ونحن نقول: إله واحد؛ بحجة تقريبهم وتألفهم إلى الإسلام - هؤلاء إنما يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. فما معنى طمس الوحدانية بعد شهادة اللَّه - تعالى - بكفر من قال: إن اللَّه ثالث ثالثة، أو قال: إن اللَّه عيسى ابن مريم، أو قال: إنه ابن اللَّه؟! ولا يمكن أن تكون العقيدة موطن مساومة باسم الحوار الهادف وتقريب القلوب وإلغاء الإسلام من خلالها.

ولقد وجدنا جواب الرسول ﷺ الحاسم للحاشر والعاقب اللذين ادعيا أنهما مؤمنان،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٢/ ٥٧٧)، (ت ١٣٠٥).

كيف كان من الحسم والوضوح أن قال لهما رسول اللَّه ﷺ: « **كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للَّه ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير** ».

٣ - معرفة ذكاء الخصم وثقافته وأنت تحاوره:

فلم يكن عبدُ غفلًا ولا بسيطًا، لقد كان على أعلى مستوى من الذكاء والعبقرية؛ ومن أجل هذا وجدناه ابتدأ الهجوم ضد عمرو حين قال له: إنك كنت ابن سيد قومك، فماذا فعل أبوك؟ فهو لم يسأل هذا السؤال عن جهل؛ إنما سأله عن علم ليحرج عمرًا في ذلك. فإذا كان العاص بن وائل أحد كبار سادة قريش، وسيد بني سهم وعقله عقله - لم يسلم؛ فما معنى دعوتهما لهذا الدين؟ والعاص لهم قدوة، وهو أعقل من عمرو.

٤ - حسن التخلص من الإحراج:

فسرعان ما انتبه عمرو لهذا الحشر في هذه الزاوية وتخلص بلباقة منه؛ حيث أكد أن العاص أباه لم يسلم، وكان يود إسلامه، لكن أتبع ذلك بأنه كان على مثل رأي أبيه، حتى هداه اللَّه للإسلام؛ فلو امتد الزمن بأبيه لأسلم كما أسلم عمرو.

والهدف الثاني في حسن التخلص هو الانتقال إلى الحديث عن عمرو، وإثارة انتباه الخصم إلى التطور الجديد في الأمر، وجره إلى الموضوع الأساسي.

٥ - القدرة الفائقة لدى المحاور المسلم في استدراج خصمه لما يريد:

فعمرو إنما هدف في إشارته إلى قرب إسلامه أن يتحدث عن مكان وزمان هذا الإسلام وتم له ما أراد؛ حيث اندفع عباد مباشرة ليسأله عن الزمان والمكان.

(قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا. فأين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي). وعمرو يريد عن وعي وتصميم ذكر النجاشي؛ لأنه ملك مثل عباد وجيفر، ونصراني مرتبط بقيصر، وقد أسلم. وقد وقع عباد في فخ عمرو الذي يريد؛ فأضاف عمرو إضافته المقصودة حيث أخبره عن إسلام النجاشي.

٦ - الحفاظ على الجاه والسلطة ومحاولة طمأنة الخصم عليهما:

فلقد ظهر عبد وقد بلغه إسلام النجاشي - ظهر مقتنعًا بأن تغيير الدين يعني زوال الملك؛ فسارع وسأل: (وماذا فعل قومه بملكه؟، قال عمرو: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان؟ قال: تبعوه).

٧ - البحث عن القيم العليا المشتركة بين المتحاورين:

فالعربي لا يكذب، وخشي عباد أن يكون عمرو كاذبًا في دعواه من أجل إغراء ابني

الجلندي بالإسلام؛ ليقتديا بالنجاشي الملك لا بالعاص بن وائل. فسرعان ما أكد عمرو أنه يرفض الكذب مثل عباد، وأضاف إليه أن الكذب حرام في دين الإسلام، فلا يمكن أن يستحله؛ وبذلك ربط بجسر أخلاقي كبير بينه وبين عبد، وبين عبد وبين الإسلام كذلك.

٨ - وضع الاحتمالات لقدرات الخصم المحاور وثقافاته:

فهذا عبد يعرف أن النجاشي تابع لقيصر، وأن ملكه إن لم يزل من ثورة الأساقفة والرهبان عليه، أو ثورة شعبة عليه، سوف يزول من غضب قيصر عليه. وعزله عن المنك. فقال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي؛ ولذلك كان عمرو قد أعد للأمر عدته، وتعرف على آخر تطورات الأمر بين النجاشي وهرقل؛ ليصحح المعلومات الخاطئة عند عبد من جهة، وليفتح الحديث عن قيصر إمبراطور الروم من جهة ثانية، وأن الإسلام لم يغز النجاشي فقط؛ إنما غزا قيصر نفسه، وهذا يغري أكثر بالإسلام.

٩ - فائدة الثقافة العامة السياسية والفكرية للمحاور الداعية:

فعمرو ﷺ أكد أن قيصر قد عرف بإسلام النجاشي، وكان جوابه لعبد حين قال له: بأي شيء علمت ذلك؟ قال: كان النجاشي يخرج له خرجًا. فلما أسلم وصدَّق محمد ﷺ قال: لا واللَّه لو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته، ولم تكف هذه المعلومة الموثقة لعبد؛ فتتمة الحديث تعني غضب قيصر وعزله للنجاشي، غير أن عَمْرًا تابع حديثه من خلال متابعته لتطورات الأحداث السياسية وكأنما هو يشهدها؛ فهو يعرف أن لقيصر أخًا اسمه النياق، ويعرف الحوار الذي جرى بين نيَّاق وأخيه، ويعرف رفض قيصر لعزل النجاشي. ويعرف أن قيصر قال لأخيه: رجل رغب في دين؛ فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟! واللَّه لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع.

إنها الثقافة العظيمة الواسعة لعمرو التي أحاطت بإسلام النجاشي وآثاره ونتائجه على الشعب، وعلى الأساقفة والرهبان، وعلى حكمه وارتباطه بقيصر؛ بحيث أجاب على كل تساؤلات عباد، وفي الوقت نفسه، سدَّ عليه كل منافذ الهروب من تقبل الإسلام؛ فقيصر يؤمن بأن الإسلام حق، ولولا خوفه من شعبه أن يثوروا عليه وينزعوا منه ملكه لأسلم كما أسلم النجاشي؛ فأعظم ملوك الدنيا يقر بالإسلام ويصدِّق فيه.

لقد دخل عمرو بمعلوماته هذه إلى أعماق السياسة العالمية، وتطوراتها وانعكاساتها على الإسلام والمسلمين.

١٠ - الوصول إلى قلب الخصم هو الهدف وليس الانتصار عليه:

فكثيرًا ما يندفع الداعية بإبراز الحجج التي تخيف المحاور من الإسلام وتجعله يرفض الإسلام؛ لأنه يعني هزيمته إن أخذ به، وبعد أن تأكد عبد وتوثق من صحة معلومات عمرو - قال: (انظر ما تقول يا عمرو. قلت: واللَّه صدقتك).

إن المسلم ليحس بالحرارة في قلب عمرو وحرصه على إسلام عبد من هذا اليمين الذي ذكره: (واللَّه صدقتك)؛ ليدخل إلى قلب نائب الملك وإثارة اهتمامه. فإذا به يمضي كما خطط عمرو ﷺ فيسأله تفاصيل أكثر عن هذا الدين.

١١ - عرض القواعد العامة والأخلاقيات الكبرى للدين بعد عرض العقيدة:

فقد اختار عمرو - رضوان اللَّه عليه - أهم الأخلاقيات الكبرى في الإسلام فقال:

(قلت: يأمر بطاعة اللَّه ﷻ وينهى عن معصيته).

وهذه هي القاعدة الكبرى التي يجب أن ترسخ في ذهن كل مدعو؛ فللَّه - تعالى - أوامر تطاع، ونواهٍ تُجتنب، وليس التقدير الشخصي والمزاجي هو الذي يحكم. وبعد تحديد هذا المنطلق الرئيسي قال: (ويأمر بالبر، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب).

وهذا ما حدا بعبدٍ أن يشرق قلبه بالإعجاب بالإسلام، ولا يجد حرجًا من إعلان هذا الإعجاب؛ وهذا يعني من طرف آخر أن الروح التي أسبغها عمرو على الحوار هي التي سادت. ليست هي روح التحدي، ولا روح الاستعلاء؛ بل روح الاحترام والإكبار والحرص على الهدى لمن يحاوره.

١٢ - طمأنة الحاكمين إلى أن الإسلام خير لهم في حياتهم وآخرتهم:

فعندما عبَّر عباد عن إعجابه بهذا الدين؛ لم يُخْفِ تخوفه من اتباعه الذي يقود إلى فقدان الملك (قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه؛ لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به. ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذَنَبًا).

وإذا كانت الطمأنة من قَبْلُ بشكل غير مباشر كما فعل النجاشي؛ فهي هنا بشكل صريح وواضح.

(قلت: إنه إن أسلم ملَّكه رسول اللَّه ﷺ على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم، فردها على فقيرهم).

١٣ - تحديد مهمة الحاكم في الإسلام:

فهو إن بقي حاكمًا بعد إسلامه؛ فعليه أن ينفذ تعاليم الإسلام، وأهم هذه التعاليم: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

ولقد ركز عمرو ﷺ على الصدقات؛ فهي ميزان حساس، ويجب أن تستخرج من أموال الأغنياء لتعطَى الفقراء، وليست جزية أو أخت الجزية تعطى؛ إنما تنفق على فقرائهم، وما لمحمد منهم حاجة. لقد سوّى الإسلام بين الفريقين، إنما الجزية على من لم يسلم.

(قال: إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟).

وما قيل عن الإسلام وعقيدته يقال عن عبادته؛ فلا بد أن توضح أنصبة الزكاة كاملة.

(فأخبرته بما فرض رسول اللَّه ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل).

١٤ - الشعور المشترك لدى المتحاورين في الحرص على الحق:

فصاحبنا عباد الآن أصبح أقرب لعمرو من أخيه جيفر، وحين يسمع أنصبة الإبل حتى من سوائم البهائم التي ترعى الشجر. (قال: واللَّه ما أرى قومي في بعد دراهم وكثرة عددهم يطيعون هذا) فهو يشكو إلى عمرو، ويضع بين يديه الواقع - أكثر مما هو يعترض على أنصبة الزكاة. وهو يريد أن يجد حلًّا لما سيواجهه من مشكلات عند إعلان إسلامه؛ فغدا هدفهما واحدًا، وهو تبني الإسلام والتخطيط لإقناع جيفر فيه.

١٥ - الحكمة في تكرار أنموذج مؤمن آل فرعون:

فقد كان عبد خلال الأيام ينقل لأخيه كل أخبار عمرو، والأحاديث التي جرت بينهما - دون أن يعلن إسلامه؛ إنما هو نقاش لاختبار الموقف الأصوب. واستطاع أن يقنع أخاه باستقبال عمرو وكان من الممكن أن يرده ولا يسمع منه. لكن الصبر والحكمة في عدم إظهار الإسلام آتت ثمارها، وهيأت الاستعداد لجيفر كي يقابل عمرو بن العاص، وكان من حكمة عبد كذلك أنه لم يتسلَّم رسالة النبي ﷺ ولم يفض ختمها؛ فقد يحرك هذا في نفس جيفر شيئًا من التنافس والحقد على أخيه. وكان هذا موقفه من البدية: (أخي المقدم عليَّ بالسن والملك).

١٦ - إبداء العزة مع السلطان:

وهذا موقف مغاير لعمرو عن موقفه مع عبد؛ فهو الآن أمام ملك ذي سلطان وصولجان؛ فقد قيد إلى الملك بأسلوب فظ كأنما هو مجرم حرب، وقد أخذ الجلاوزة بضبعيه. وعندما

قال الملك: دعوه - أراد أن يهتبل الفرصة ويتجاوز البروتوكولات، وأن يجلس بجوار الملك؛ لكن الحرس حالوا بينه وبين الجلوس، فدفع الكتاب مختومًا إليه دون أن يتكلم إلا إذا سئل.

ففض الخاتم، وقرأ الرسالة وأقرأها إلى أخيه، وعيون عمرو في وجهه ووجه أخيه كعيون الباشق، يود أن يعرف ما في قلبه من قسمات وجهه، وحين أراد أن يستخف بعمرو والمسلمين لأن قوم محمد - قريشًا - طردوه وحاربوه؛ قلَب عمرو الأمر في مشاعر جيفر رأسًا على عقب، وكان جوابًا حاسمًا وحازمًا: (تبعوه؛ إما راغب في الإسلام، أو مقهور بالسيف).

وتصَنَّع جيفر ثانية عدم الاهتمام وبتعالي الملوك (قال: ومن معه؟).

فأجاب عمرو بهجوم أعنف، دون يفقد الحكمة ويستفز الملك، إنه موقف يمثل حد السيف بين الحكمة والعزة.

(قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى اللَّه إياهم أنهم كانوا في ضلال).

فالإسلام إذن رغبة واختيار، والإسلام يُعتنق لما فيه من فضل ولما يهدي إليه العقل. أما الكفر المنطلق من الإصرار على الباطل والتحدي للحق؛ فله لغة أخرى، وكانت هذه اللغة:

(فما أعلم أحدًا بقي في هذه الحرجة غيرك، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه؛ يوطئك الخيل، ويبد خضراءك؛ فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال).

لقد استطاع بذكائه وعبقريته أن يضرب بهذا السهم **أهدافًا ثلاثة:**

الهدف الأول: أن لا فائدة من الاعتداد بالسلطان والملك والجند؛ فالناس كلهم مع رسول اللَّه ﷺ، ولا قبل له بالناس كافة. (يوطئك الخيل، ويبد خضراءك).

الهدف الثاني: أن السلامة بالإسلام والمهادنة والمصالحة.

الهدف الثالث: إشعاره أن الإسلام هو الذي يضمن استمرار حكمه من جهة، وعدم إرسال الجيوش نحوه من جهة ثانية، وهو الذي يختار الموقف الأنجع.

١٧ - العمل من داخل النظام الحاكم واستغلال نجاح الحوار:

فلم يكتفِ عمرو بعد هذا العرض، ويجلس في بيته؛ إنما عاد إلى صديقه عبد ليقوِّما الموقف معًا، وأثر هذا الموقف على نفسية جيفر؛ فكان رأي عبد أن عمرًا ﷺ قد وفق في

مهمته؛ ولذلك قال: (إني لأرجو أن يسلم أخي إن لم يضن بملكه) وعاد عمرو ليواجه الأبواب الموصدة من الحرس والخدم ورجال الأمن الذين يحولون دون الوصول للسلطان.

وكانت مهمة عبد - وهي مهمة صعبة - أن يعيد الاتصال ثانية ويقنع أخاه باستقبال عمرو من غير أن يشك فيه أخوه، وتم له ذلك وأبلغ عمرو بالموقف من جيفر.

(قال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فأنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالًا ليس كقتال من لاقى). وأدرك عمرو بثاقب نظره أن هذا ليس هو الجواب الحقيقي والجواب النهائي. فرمى قنبلته الأخيرة قائلًا: (وأنا خارج غدًا) ليعلم جيفر خطورة ونتائج موقفه، وأنه إن مضى فلن يعود، ولا مجال لاستدراك الرأي إلا هذه الليلة.

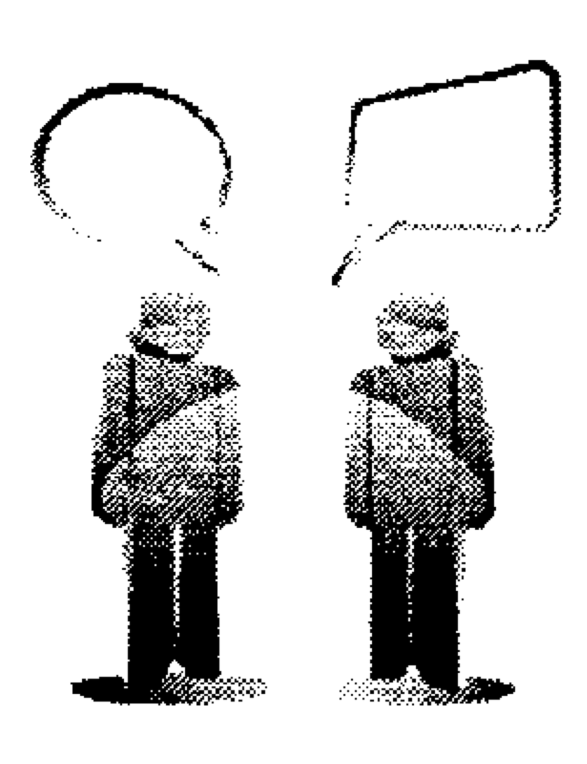
ويريد الملك أمام وزرائه وحُجَّابه ومستشاريه أن يظهر قوته وعدم خضوعه لتهديدات محمد ﷺ له؛ لكن المهمة العظيمة التي قام بها عبد في اللحظات الحاسمة كانت مهمة تاريخية، نقلت عُمان من الكفر إلى الإسلام.

(فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه - وهو مستشاره الأول - فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه).

وكُلِّلَت المهمة بالنجاح (فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدقا النبي ﷺ وخلَّيا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني).

نستطيع أن نقول: إن هذه الدروس هي آداب الحوار المنهجي، وأهم ما فيها: فهم البيئة زمانًا ومكانًا وشخصًا، إضافة إلى فقه النفوس واستعمال المفاتيح المناسبة لهذه النفوس، وآخيرًا: ذخيرة الداعية من الإسلام والثقافة العامة، وقبل هذا كله توفيق اللَّه - تعالى - وهداه لمن شاء له الهداية.

* * *



الرسول ﷺ والعقلية العربية

من شاء دراسة الحوار، وفقهه، وعظمة سيد الخلق في التعامل مع النفوس؛ فعليه أن يدرس عام الوفود.

فقد قدم إلى المدينة أعظم العقليات العربية وأكبر أبطالها وحكمائها وشعرائها وشجعانها، واستطاع - عليه الصلاة والسلام - أن يتعامل مع كل عُقَدِ الجاهلية، وكل طاقاتها وإمكاناتها؛ فيذيب تلك العقد، ويفجر تلك الطاقات والإمكانات ويصهرها جميعًا ويدخلها في الإسلام. وحيث إن الكتاب لا يتسع لعرض هذه النماذج فتحتاج إلى مجلدات، إنما يمكن عرض عدة نماذج من الحوار، والتي قادت قبائل العرب وقياداتها إلى الإسلام. ويمكن القول: إن ثلاثة أرباع الجزيرة، وثلاثة أرباع العرب إنما اعتنقوا الإسلام بعد تبوك.

أقصر حوار ودخول قبيلة في الإسلام:

أخرج البيهقي عن بريدة بن الخصيب الأسلمي قال: (لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ حملني الطمع، فركبت في سبعين من بني سهم فلقيته.

فقال: « **من أنت؟** ».

قلت: بريدة.

فالتفت ﷺ إلى أبي بكر. وقال: « **برُد أمرُنا وصلُح** ».

ثم قال: « **ممن أنت؟** »

قلت: من أسلم.

قال: « **سلمنا** ».

ثم قال: « **ممن؟** ».

قلت: من بني سهم.

قال: « **خرج سهمك يا أبا بكر** ».

فقال بريدة (للنبي ﷺ): من أنت؟

قال: « **أنا محمد بن عبد اللّه رسولُ اللّه** ».

فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا عبده ورسوله. فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعًا.

قال بريدة: الحمد للّه الذي أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين. فلما أصبح، قال بريدة: يا رسول اللّه لا تدخل المدنية إلا معك لواء؛ فحَلَّ عمامته ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة)[١].

حوار ليس فيه حديث عن الإسلام مع فاتك قاتل يريد اغتيال النبي ﷺ أو تسليمه لقريش ليربح مائة من الإبل، تجعله من الأغنياء المعدودين. إنما كلمات التفاؤل هذه (بريدة، أسلم، سهم) التي أعلن فيها رسول اللّه ﷺ للصديق سعادته بها، هزت أعماق هذا الحاقد الأعمى، وحولته إلى معجب محب أسرت لُبَّه وفتنت قلبه، ودفعته للإسلام مع سبعين من قومه؛ أي أسلم ثمرة هذا الحوار المتفائل نصف من أسلم في مكة خلال ثلاثة عشر عامًا تقريبًا؛ لأنها كلمات ندية فجرت أكوام الحقد والطمع في قلب بريدة، لامست أوتاره، فانتشى بها طربًا، ومضى بين يدي النبي ﷺ يحمل اللواء بين يديه.

حوار من (بلى، ونعم، واللَّهم نعم) أدخل قبيلة في الإسلام:

عن ابن عباس قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة وافدًا إلى رسول اللّه ﷺ؛ فأناخ بعيره على باب المسجد فعقله، ثم دخل على رسول اللّه ﷺ وهو في المسجد جالس في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « **أنا ابن عبد المطلب** ».

فقال: محمد؟

قال: « **نعم** ».

فقال: يا بن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة؛ فلا تجدَنَّ في نفسك.

فقال: « **لا أجد في نفسي. فسل عما بدا لك** ».

فقال: أنشدك اللَّهَ - إلهك وإله أهلك، وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك - آللّه بعثك رسولًا؟

قال: « **اللَّهم نعم** ».

قال: فأنشدك اللّه - إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك - آللّه أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقاني (١/ ٤٠٥).

فقال رسول اللّه ﷺ: « **اللّهم نعم** ».

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة؛ الصلاة والزكاة والصيام والحج، وفرائض الإسلام كلّها، ينشده عند كل فريضة كما نشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيت عنه، لا أزيد ولا أنقص. ثم انصرف راجعًا إلى بعيره. فقال رسول اللّه ﷺ حين ولى: « **إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة** ».

وكان ضمام رجلًا جلدًا أشعر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره، فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا عليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى.

فقالوا: مه يا ضمام. اتق البَرَص والجنون والجذام.

قال: ويلكم إنهما ما ينفعان ولا يضران. إن اللّه قد بعث رسولًا، وأنزل معه كتابًا، استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه. فواللّه ما أمسى من ذلك اليوم في حاضرته رجل ولا امرأة إلا مسلمًا.

قال ابن إسحاق: فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام بن ثعلبة[١].

نقارن بين هذه الصورة وبين صورة عبد اللّه بن أبي أمية بن المغيرة بعد الجدل العقيم من المشركين، ماذا يقول له وهو ابن عمته؟ (فو اللّه لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم اللّه لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك)[٢] ولكنه بعد عشر سنين صدقه ومضى يلاقيه قبل دخوله مكة وأسلم وحسن إسلامه، ورزقه اللّه الشهادة.

والذي يعنينا من ذكر هذه الحادثة هو: خلو النفس من الهوى والحقد، وسلامة الفطرة؛ وهو ما يجعل النفوس منفتحة لهذا الدين، تستجيب له لأدنى مؤثر.

لقد تجاوزت وفود العرب بعد تبوك مائة وفد، وكان رسول اللّه ﷺ يحاور كل وفد بما يناسبه، وبما يعرفه من تاريخه، وبما يعرفه من طباعه، وبما يعرفه من أخلاقهم حتى دخلوا جميعًا - إلا قليلًا منهم - في الإسلام طائعين، وبعضهم دخل رهبة. فما سنحت لهم الفرصة حتى ارتدوا على أدبارهم بعد وفاة النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه -.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٧٣) وأخرجه أحمد والحاكم وأبو داود.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٨).

بنو تميم أعز العرب يسلمون بالشعر:

كما قال شاعرهم:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

فلم يكن دخولهم في الإسلام من خلال حوار فكري؛ وإنما من خلال حوار خطابي وشعري؛ فبعد أن سمعوا خطيب النبي وشاعره أفحموا ببلاغتهما فقال القادة لبعضهم: (إن هذا الرجل لمؤتى له؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا.

فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول اللَّه ﷺ فأحسن جوائزهم)[1].

حوار قصير مع زعيمين نصرانيين وإسلام قبيلتيهما:

أما الأول فعدي بن حاتم الطائي زعيم طيئ:

(حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إليَّ فقال: « **اجلس على هذه** ». قلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: « **بل أنت** »، فجلست عليها وجلس رسول اللَّه على الأرض. فقلت في نفسي: واللَّه ما هذا بأمر ملك. ثم قال: « **إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسيًّا؟** » (من طوائف النصارى).

قلت: بلى.

قال: « **أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟** » (تأخذ ربع الغنائم).

قلت: بلى.

قال: « **فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك** ».

قلت: أجل واللَّه (وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل) ثم قال: « **لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم؛ فواللَّه ليوشكن أن يفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ فواللَّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم؛ وايم اللَّه ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم** » قال: فأسلمت.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٦٧).

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة. والله لتكونن)[١].

أما الزعيم الثاني فالجارود بن بشر بن المعلى زعيم بني عبد القيس في أقصى المشرق:

عن الحسن قال: (لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه ورغَّبه فيه، فقال: يا محمد إني قد كنت على دين وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟

قال: « **نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه** » فأسلم وأسلم أصحابه)[٢].

وكأنه ضمان ثانٍ بركة على قومه؛ فبمجرد ضمان رسول الله ﷺ له أن الإسلام خير دين - انضم إليه واثقًا بصدقه، وهو الذي أوقف قومه عن الردة يوم ارتدت العرب.

وكما قلت فالنماذج لا تحصى ولا تستوفى إلا في مجلدات؛ لكن قدَّمنا نماذج يسيرةً جدًّا من اختلاف أساليب الحوار المتناسبة مع طبيعة سيد القبيلة والقبيلة نفسها. وما ينتهي الحوار إلا بالإسلام.

لا مساومة على العقيدة:

ولعل حوار رسول الله ﷺ مع ثقيف التي جاءت بإنفتها وعزتها ومنعتها تريد أن تفاوض على الإسلام. **وهذا نموذج النقاش بين سيد الوفد ابن عبد ياليل ورسول الله ﷺ:**

(قال كنانة: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟

قال: « **نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم** ».

قال: أفرأيت الزنا؟ فإنا قوم نغترب ولا بد لنا منه.

قال: « **هو عليكم حرام فإن الله ﷻ يقول:** ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] ».

قالوا: أفرأيت الربا؟ فإنه أموالنا كلها.

قال: « **لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون، إن الله تعالى يقول:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ».

قالوا: أفرأيت الخمر؟ فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها.

قال: « **إن الله قد حرمها** » وقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٨١). (٢) المصدر السابق (ص ٥٧٥).

- **جوله ثانية من المباحثات:**

فخلا بعضهم ببعض فقالوا: ويحكم! إنا نخاف إن خالفناه يومًا كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه. فأتوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: نعم، لك ما سألت. أرأيت الربَّة (أي: صنم اللات) ماذا نصنع بها؟.

قال: « **اهدموها** ».

قالوا: هيهات تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها.

فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا بن عبد ياليل، ما أجهلك؟ إنما الربة حجر.

فقالوا: إنا لم نأتك يا بن الخطاب.

وقالوا لرسول اللَّه ﷺ: تول أنت هدمها؛ فأما نحن فإنا لا نهدمها أبدًا.

قال: « **فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها** ».

فقال كنانة: ائذن لنا قبل رسولك. ثم ابعث في آثارنا فإنا أعلم بقومنا)[1].

- **جولة ثالثة:**

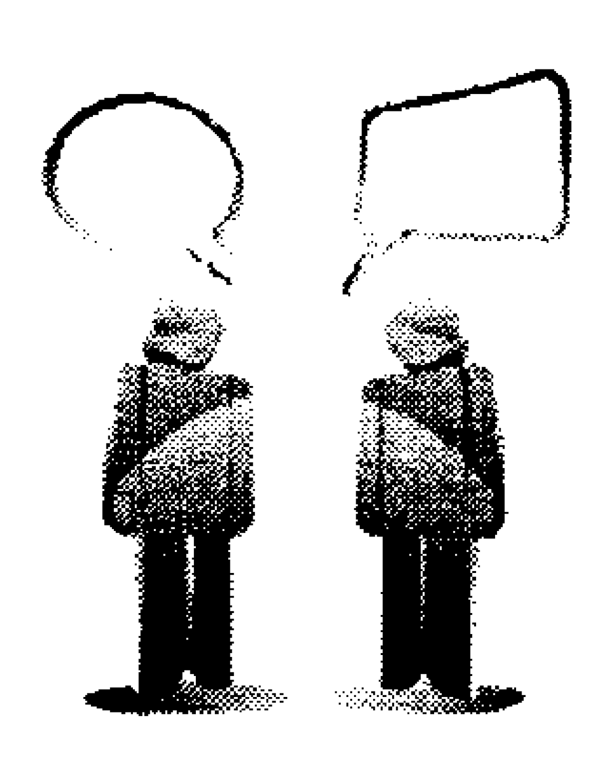
وفي رواية ثانية:

(وكانوا فيما سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يَدَعَ لهم الطاغية (اللات) لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول اللَّه ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرًا واحدًا بعد مقدمهم فأبى أن يدعها شيئًا مسمى. وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يَدخُلَهم الإسلامُ؛ فأبى رسول اللَّه ﷺ.. وقد كانوا سألوا رسول اللَّه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لاخير في دين لا صلاة فيه** ». فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة).[2] ومع هذا فقد ثبتوا على دينهم عند الردة.

* * *

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٥٩٦، ٥٩٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٤٠).



الفتوحات الإسلامية والحوار الهادف

لقد رافق الحوارُ الفتوحات الإسلامية منذ لحظاتها الأولى بأمر من رسول اللَّه ﷺ، وفي أول انطلاقة للإسلام ليلتقي مع النصاري واليهود - كان الحوار يسبق السيف.

مع اليهود:

ففي غزوة خيبر مع اليهود، أعطى رسول اللَّه ﷺ الراية لعلي ﷺ فقال علي:

يا رسول اللَّه أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: « **انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه فيه، فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير من أن يكون لك حمر النعم** »[1] ولم يكن النص: لئن يقتل اللَّه على يديك رجلًا واحدًا خير من أن يكون لك حمر النعم؛ فالإسلام رسالة اللَّه - تعالى - إلى خلقه. ولا بد أن تصلهم، فإذا وصلتهم وقبلوها فنعمة عين، وتحرم قطرة دم بعد ذلك إلا بحقها، وإن رفضوا الإسلام وقبلوا الجزية؛ فبها ونعمت. وإن أصروا على الحرب؛ فالجهاد في سبيل اللَّه أسمى أماني المسلم حتى يزيح الطغاة الذين يحولون بين دين اللَّه وبين عباد اللَّه، لا ليفرض عليهم الإسلام فـ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكان حديث رسول اللَّه ﷺ من الوضوح والجلاء بحيث لا يقبل التأويل، فليست دعوة تقليدية للإسلام؛ بل لا بد أن توضح لهم هذا الدين ومعالمه وحق اللَّه فيه، فإن أبوا فقاتلهم.

مع النصارى والمشركين:

والصيغة هنا صيغة العموم؛ لأن غالب من واجه المسلمين بعد ذلك النصارى والمجوس والذين أشركوا، فلم يكن لليهود دولة في الأرض بعد وجودهم القوي الذي كان في خيبر.

(كان رسول اللَّه ﷺ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: « **اغزوا في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا.**

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣٦٥) ومسلم (١٨٠٧) وأحمد (٤/ ٥٢) وعند البخاري في باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، وباب فضل من أسلم على يديه رجل.

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين[١]؛ فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين.. ولا يكون في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين؛ فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم؛ فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه، ولكن اجعل ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة اللَّه وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم اللَّه، فلا تنزلهم على حكم اللَّه، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدرى أتصيب حكم اللَّه فيهم أم لا »[٢].

إنه نص نبوي عجيب ليس فيه عن القتال وسفك الدماء شيء. كله منصبٌّ على الحوار. وعرض الإسلام، والمفاوضات للاستسلام وشروطها وآدابها حتى حين ذكر القتال ذكر النهي إلا في بداية النص: « **اغزوا في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا** » وبقية النص كله: « **لا تغلوا، لا تغدروا، لا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا** ». ثم يتابع النص طريقة تجنب الحرب والابتعاد عنها لا طريقة الإبادة والمواجهة والقتل.

* * *

وسنعرض لنموذجين من العرض الإسلامي للحوار مع أعداء المسلمين قبيل المعركة وأثناء المعركة في أكبر معركتين فاصلتين في تاريخ الإسلام: في اليرموك مع الروم، وفي القادسية مع الفرس.

في غزوة اليرموك:

والطريف أن هذا الحوار تم في قلب المعركة بعد رفض الروم للعرض الإسلامي في البداية.

قالوا: (وخرج جرجة – أحد الأمراء الكبار – من الصف، واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما.

---

(١) كان هذا قبل فتح مكة، وحيث كانت الهجرة قائمة. والروايات تدل على أن هذا التوجيه كان في سرية مؤتة إلى الشام، أما بعد انقطاع الهجرة فالدعوة إلى الإسلام أو الجزية فقط.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٢) ومسلم (٥/ ١٤٠) وأبو داود والترمذي وغيرهم.

فقال جرجة: يا خالد، أخبرني فاصدقني ولا تكذبني؛ فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل باللَّه. هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسلَّه على أحد إلا هزمتهم؟

قال: لا.

قال: بم سميت سيف اللَّه؟

قال: إن اللَّه بعث فينا نبيه فدعانا، ونفرنا منه، ونأينا عنه جميعًا. ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده؛ فكنت فيمن كذبه وباعده. ثم إن اللَّه أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه فقال لي: « **أنت سيف من سيوف اللَّه سله اللَّه على المشركين** »، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف اللَّه؛ فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجة: يا خالد، إلام تدعون؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند اللَّه ﷻ.

قال: فمن لم يجبكم؟

قال: فالجزية، ونمنعهم.

قال: فإن لم يعطها؟

قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله.

قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟

قال: منزلتنا واحدة فيما افترض اللَّه علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا.

قال: فلمن دخل فيكم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال: نعم وأفضل.

قال: كيف يساويكم وقد سبقتموه؟

فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنوة، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويأتينا بالآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع. وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج؛ فمن دخل منكم في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

فقال جرجة: باللَّه لقد صدقتني ولم تخادعني؟

فقال: تاللَّه لقد صدقتك، وإن اللَّه ولي ما سألت عنه.

فعند ذلك قَلَبَ جرجة الترس، ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام.

فمال به خالد إلى فسطاطه، فشن علية قربة من ماء، ثم صلى به ركعتين. وحملت الروم مع انقلابه وهم يرون أنها منه حيلة؛ فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا المحامية عليهم، فركب خالد وجرجة معه والروم خلال المسلمين فتنادى الناس وثابوا، وتراجعت الروم إلى مواقفهم، وزحف خالد بالمسلمين حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب. وصلى المسلمون صلاة الظهر والعصر إيماء. وأصيب جرجة ولم يصلِّ للَّه إلا تلك الركعتين)[1].

إنها صورة حية من هذا القائد الرومي تعيد لنا صورة عبد اللَّه بن سلام الحبر اليهودي، وصورة ضمام بن ثعلبة وافد بني بكر. ورأى خالد ﷺ صدقه، فراح يجيبه على كل تساؤلاته، وركز أكثر من مرة في حديثه إلى أنه كان في صف المعادين للنبي ﷺ في البداية؛ حتى لا يجد جرجة حرجًا في انضمامه إلى هذا الدين لو أراد ذلك، فله اقتداء بخالد، كما أوضح خالد ﷺ كيف يكون فضل المتأخر مثل السابق؛ لأن المتأخر لم ير الآيات البينات والحجج والمعجزات. وبذلك اطمأن قائد الروم إلى كل ما يشغل باله ويقلقه، ويحول بينه وبين الإسلام.

ولكن لا يغيب عن أذهاننا أن أصل الموقف عند جرجة هو معجزة اللَّه - تعالى - في خالد الذي لا يقهر؛ فقد تناهى إلى سمع جرجة نبأ انتصارات خالد في بلاد الفرس، وقد سمع أنه سيف اللَّه؛ فتوقع أن تكون المعجزة بأن اللَّه - تعالى - أنزل سيفًا من السماء خصيصًا لخالد ابن الوليد فلا يسله على المشركين إلا انتصر، وكان هذا من المسلَّمات عنده. فكان أول أسئلته لخالد ﷺ عن ماهية هذا السيف، ويود لو يراه أو يتعرف عليه، فلما سمع الحقيقة أذهلته أكثر؛ فالسيف هو خالد ﷺ الذي كان أعدى العدو.

وترجم جرجة إسلامه واقعًا حيًّا؛ فصلى ركعتين، وانقلب يجاهد في المسلمين طيلة النهار حتى استشهد في سبيل اللَّه بجوار سيف اللَّه خالد، ولم يصلِّ للَّه إلا ركعتين.

قبل معركة القادسية:

وكانت هذه المحاورات مع أكبر طواغيت الأرض؛ مع يزدجرد ملك فارس، ومع رستم قائده.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ١٢، ١٣).

وسنكتفي بعرض الحوار في بلاط كسري نموذجًا عن الحوارات كلها في الفتح الإسلامي:

(وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى اللَّه قبل الوقعة فاستأذنوا على كسرى فأذن لهم. وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم، وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، والنعال في أرجلهم، وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها. وجعلوا يتعجبون منهم غاية العجب؛ كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عَدَدها وعُدَدها؟! ولما استأذنوا على الملك يزدجرد، أذن لهم وأجلسهم بين يديه وكان متكبرًا قليل الأدب، ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه؛ ما اسمها؟ وعن الأدرية والنعال والسياط ثم كلما قالوا له شيئًا من ذلك، تفاءل. فرد اللَّه فأله على رأسه، ثم قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟

فقال النعمان بن مقرن (يعرض الإسلام وتاريخه كما عرض عند رستم): إن اللَّه رحمنا فأرسل إلينا رسولًا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة)[1] هذا هو الإسلام: أمرٌ بالخير، ونهي عن الشر.

أما المنهج الحركي الذي سار فيه فكان كما قال النعمان ﷺ: (فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين؛ فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص. فمكث كذلك ما شاء اللَّه أن يمكث).

وأُمِرَ بتحرير أمته من قومه ابتداءً (ثم أُمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم ففعلوا فدخلوا معه جميعًا على وجهين: مكروه عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد).

ثم أصحبت العرب القاعدة الصلبة لهذا الدين (فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق).

ومن العرب، إلى بقية الأمم بعد ذلك: (وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف).

وها هو يزدجرد يتلقى دعوة اللَّه من حزبه المؤمنين في الأرض (فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام؛ دين حسَّنَ الحسن، وقبَّح القبيح كله).

وهو تعريف شامل جامع مانع لدين اللَّه في الأرض.

(فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٤١، ٤٢).

والخير الأصلي الذي يحبه المؤمن لخلق اللَّه كلهم هو هدايتهم، لا قتلهم ولا أخذ مالهم (وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللَّه، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم. وإن أتيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم).

لكن الإمبراطور الفارسي الذي يرى نفسه من نسل الآلهة، ويمثل أعظم سلاطين الأرض - من العسير جدًّا أن يدرك معنى دين اللَّه وهو بهذا الصلف والكبرياء، وهل يمكن لهؤلاء البدو أن يختار اللَّه منهم رسولًا له؟!

لقد مزَّق سلفه الكتاب الذي جاءه من محمد رسول اللَّه، وبعث من يحضر إليه محمدًا حيًّا أو ميتًا؛ إذ كيف يقدم عبده اسمه عليه؟

بهذا الاختلال النفسي راح يزدجرد يتكلم ويقول:

(إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم قد كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم، فأسكت القوم).

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر؛ فهذا المغيرة بن شعبة، سفير المسلمين الدائم ووزير خارجيتهم لحوار الملوك والقادة والطواغيت (فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب، ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف. وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه. وقد أحسنوا ولا يحسن مثلهم إلا ذلك، فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك).

إنه يفهم اللغة التي يفهم بها يزدجرد. فلا بد أن يعلم - ليصحو من سكرته - أنه يكلم أشراف أمة العرب، الذين طرقوا أبواب المملكة الفارسية، وهزموا الكثير من جيوشها قبل ذلك. والأشراف يترفعون عن كلام السوقة، وتفكير السوقة. وكلام يزدجرد هو من هذا المستوى؛ فلا بد أن يدرك مع من يتعامل، ومع من يتحاور. وبعد أن نبهه لذلك، بدأ في عملية الاستدراج التي ابتدأت بصفعة موجهة له بقوله: (أيها الملك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا).

ونبهه بهذه الصفعة، ليلفت نظره إلى ما يريد: (أما ما ذكرت من سوء الحال؛ فما كان أسوأ حالًا منا، وأما جوعنا؛ فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب

والحيات ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فهي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا: أن نقيل بعضنا بعضًا، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهة أن تأكل من طعامه وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، وفي المعاد كذلك).

هذه هي الأمة قبل الإسلام، وهي التي كان يزدجرد يتحدث عنها، ولم يدر ما هي الروح التي سرت في الأمة فأعادت صياغتها من جديد وأخرجتها من الظلمات إلى النور. والمغيرة أدرى الناس بهذه الظلمات؛ فقد قتل ثلاثة عشر نفسًا بعد أن أسكرهم حتى الثمالة، وأخذ كل أموالهم؛ لأنهم استخفوا به عند المقوقس، وأخذوا من الهبات أكثر منه. فلم يكن في الجاهلية أكثر من مجرم فاتك. لقد تكفل بعرض هذه الروح الجديدة التي أحيت هذه الأمة الميتة ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ... ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

(فبعث اللَّه إلينا رجلًا معروفًا، نعرف نسبه ووجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان عليها؛ أصدقنا وأحلمنا) فالحديث إذن عن أعظم العرب خلقًا ونسبًا ومنبتًا وأرضًا.

(فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد، أول ترب له كان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئًا إلا كان).

فالأمة كلها ضده، تكذبه وتحاربه، وتشوه عليه. لكن الحكم بين الفريقين أنه لم يقل شيئًا إلا وقع كما قال؛ فكان هذا الذي حدانا للتصديق به.

(فقذف اللَّه في قلوبنا التصديق له واتباعه؛ فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول اللَّه، وما أمرنا فهو أمر اللَّه).

وهذا معنى رسول رب العالمين؛ فهو الصلة بيننا وبين رب السماوات والأرض، وعرفنا ابتداء باللَّه رب السماوات والأرض وخالق الخلق أجمعين (فقال لنا: « **إن ربكم يقول: إني أنا اللَّه وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء. وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليَّ يصير كل شيء** »).

وبذلك علَّمه بالبيان البديع الواضح الجلي - معنى لا إله إلا اللَّه، ثم انتقل به إلى محمد رسول اللَّه: (« **وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي، ولأحلكم دار السلام** ». فنشهد أنه جاء بالحق من عند الحق).

ومع إيضاح مفهوم الرسالة والرسول، تم إيضاح مفهوم اليوم الآخر، ورسالة الإسلام التي

تم تلقيها كاملة من رسول اللَّه ﷺ وكلفت هذه الأمة بنقل هذه الرسالة إلى الخلق كافة.

(وقال: « **من تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم** ») وهذا هو الهدف الأول من هذه الحرب؛ تبليغ الرسالة، ودعوة الأمم لاعتناقها، ليصبح الناس بعدها سواء في دين اللَّه. لكن إذا رُفِض دين اللَّه من الأمم، فما الحل؟

(« **ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم** »).

وهذا هو الحل الثاني المطروح لتحقيق الهدف، بحيث تفتح أبواب الأمم الموصدة لسماع الإسلام وتلقيه، وتترك المجال رحبًا أمامه يسمعه الناس في ظل هذه المصالحة بين الفريقين؛ فيعتنق هذا الدينَ من يشاء اعتناقَه.

لكن إذا حال الطغاة بين دين اللَّه وبين خلقه؛ فيكون الحل الثالث (« **ومن أبى فقاتلوه؛ فأنا الحكم بينكم وبينه فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه** »). فهذه الأمة إذن هي قدر اللَّه للأمم كلها فالذي يُقتل منها إلى الجنة والنصر لمن بقي على عدوه.

ولعل المغيرة استطاع بهذا العرض البديع أن يوصل رسالة اللَّه إلى هذا الإمبراطور المتعجرف. وختم حديثه بقوله: (فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك).

كان لا بد أن يسمع في النهاية هذا الكلام بعد أن عرض على المسلمين أن يفرض لهم القوت إلى خصبهم ويكسوهم ويملِّك عليهم ملكًا يرفق بهم.

(فقال: أستقبلنى بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك ما استقبلتك به). وأدرك يزدجرد أن الأمر جد؛ فاحمرت عيناه من المغيرة وإخوانه وقال: (لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي).

وأراد - في رأيه - أن يذل هذا الوفد: (فقال: إيتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء. ثم سوقوه حتى يخرج من أبواب المدائن. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه وجنده بالقادسية، وينكل به وبكم من بعده. ثم أوردوه بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور، ثم قال: من أشرفكم؟

فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو: أنا أشرفهم. أنا سيد هؤلاء فحملنيه.

فقال: أكذلك؟

قالوا: نعم.

فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها. ثم انجذب في السير ليأتوا به سعدًا، وسبقهم عاصم فمر بباب قديس فطواه وقال: بشروا الأمير بالظفر، ظفرنا إن شاء اللَّه تعالى، ثم مضى حتى جعل التراب في الحجر ثم رجع فدخل على سعد فأخبره. فقال: أبشروا فقد - واللَّه - أعطانا اللَّه مقاليد ملكهم. وتفاءلوا بذلك أخذ بلادهم، ثم لم يزل أمر الصحابة يزداد في كل يوم علوًّا وشرفًا ومنعة، وينحط أمر الفرس سفلًا وذلًّا ومهانة)[1].

بين يزدجرد ورستم:

والمحادثة التي جرت بين الإمبراطور وقائده هي التي تعطينا آثار المقابلة والحوار عليهما:

(ولما رجع رستم إلى الملك يسأله عن حال من رأى من المسلمين ذكر له عقلهم وفصاحتهم، وحدة جوابهم، وأنهم يرومون أمرًا يوشك أن يدركوه. وذكر ما أمر به أشرفهم من حمل التراب. وأنه استحمق أشرفهم في حمله التراب على رأسه. ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أشعر).

هذا هو رأي يزدجرد، أن سيدهم أحمقهم. فماذا كان رأي رستم؟

قال: (إنه ليس أحمق، وليس هو بأشرفهم، إنما أراد أن يفتدي قومه بنفسه، ولكن ذهبوا واللَّه بمفاتيح أرضنا. وكان رستم منجمًا. ثم أرسل رجلًا وراءهم، وقال: إن أدرك التراب فردَّه تداركنا أمرنا، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أرضنا. فساق وراءهم فلم يدركهم، بل سبقوه إلى سعد بالتراب وساء ذلك فارس. وغضبوا من ذلك أشد الغضب واستهجنوا رأي الملك).

ثم كانت القادسية بعد ذلك. وسبقها حوار أطول بين المغيرة ورستم، وكان نصر اللَّه فيها وتحقيق موعوده.

فأنا الحكم بينكم. فمن قُتِل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

* * *

---

(١) النص الموجود ما بين الأقواس عن البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٤٢، ٤٣).

الصين آخر المطاف:

حيث بلغت الفتوحات الإسلامية ذروتها مع نهاية المائة الأولى للهجرة. وكيف حال الحوار دون دخول الصين وافتتاحها. وندع لابن جرير - رحمه اللَّه - عرض هذا الفصل.

وغل قتيبة بن مسلم حتى قرب من الصين. فكتب إليه ملك الصين أن ابعث إلينا رجلًا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسأله عن دينكم. فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلًا من أفناء القبائل لهم جمال وألسن وشعور وبأس - بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه - وكلمهم قتيبة وفاطنهم فرأى عقولًا وجمالًا. فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشي واللّيِّن من البياض والرقيق والنعال والعطر. وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها. وكان هبيرة بن المشمرج مفوهًا بسيط اللسان فقال: يا هبيرة، كيف أنت صانع؟ قال: أصلح اللَّه الأمير، قد كفيت الأدب، وقل ما شئت أقله وآخذ به. قال: سيروا على بركة اللَّه، وباللَّه التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد. فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم.

قال: فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج. فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضًا تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية، وتدخنوا[١] ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته. فجلسوا فلم يكلمهم الملك. ولا أحد من جلسائه حتى نهضوا. فقال لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قومًا ما هم إلا نساء. ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ما عنده[٢].

قال: فلما كان من الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا.

فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى، وهم أولئك. فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض[٣] والمغافر وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح ونكبوا القسي، وركبوا خيولهم. فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوه مشمرين. فقيل لهم: قبل أن يدخلوا: ارجعوا؛ لما دخل في قلوبهم من خوفهم.

---

(١) تدخنوا: تبخروا.

(٢) انتشر ما عنده: تحركت شهوته الجنسية.

(٣) البيض هي نوع من لباس، واحدها بيضة.

قال: فانصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا[١] رماحهم. ثم دفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون بها.

فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟

قالو: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

فلما أمسوا بعث عليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم؛ فبعثوا إليه هبيرة؛ فقال له الملك حين دخل عليه: قد رأيتم عظم ملكي، وليس أحد يمنعكم مني، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن تصدقني وإلا قتلتك.

فقال: سل.

فقال الملك: لم صنعتم ما صنعتم من زي أول يوم والثاني والثالث؟

فقال: أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم، وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا.

فقال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم فانصرفوا إلى صاحبكم - يعني قتيبة - وقولوا له ينصرف راجعًا عن بلادي؛ فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم.

فقال له هبيرة: تقول لقتيبة هذا؟ فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرًا عليها، وغزاك في بلادك؟وأما تخويفك إيانا بالقتل؛ فإنا نعلم أن لنا أجلًا، وإذا حضر فأكرمه عندنا القتل؛ فلسنا نكرهه ولا نخافه.

فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟

فقال: قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضك، ويختم ملوكك، ويجبي الجزية من بلادك.

فقال: أنا أبر يمينه وأخرجه منها، أرسل إليه بتراب من أرضي فيطؤه، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها. قال: فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم. ثم أجازهم فأحسن جوائزهم. فساروا فقدموا بما بعث به؛ فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمة وردهم، ووطئ التراب. فقال سوادة بن عبد الله السلولي:

---

(١) احتَلج الرمح: اي ركزه وغرزه في الأرض منتصبًا.

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم | للصين إن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى | حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج
لم يرض غير الختم في أعناقهم | ورهائن دفعت بحمل سمرج
أدى رسالتك التي استرعيته | وأتاك من حنث اليمين بمخرج[1]

بقي أن نعرِّف بقتيبة بن مسلم - رحمه اللَّه - قائد هذه المعركة فهو (من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبار والشجعان، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى اللَّه على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا اللَّه فأسلموا ودانوا للَّه ﷻ. وفتح من الأقاليم الكبار والبلاد والمدن العظام شيئًا كثيرًا)[2] (وإنه يقال: إنه ما كسرت له راية)[3].

الحوار يلغي النصر:

ويذكر التاريخ في أنصع صفحاته على رغم الأمجاد العظام لقتيبة أن حربًا وانتصارًا ألغي له؛ لأنه لم يتمسك بمبادئ الإسلام في الحوار قبل الحرب.

(قال أهل سمرقند لسليمان بن أبي السري (والي عمر بن عبد العزيز على بلادهم): إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر اللَّه العدل والإنصاف؛ فأْذَنْ لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا؛ فإن كان لنا حق أعطيناه؛ فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأَذِن لهم فوجهوا منهم قومًا. فقدموا على عمر. فكتب لهم عمر إلى سليمان ابن أبي السري:

إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم، وتحاملًا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي؛ فأجلس لهم القاضي؛ فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم؛ فأخرجهم من عسكرهم كما كانوا وكما كنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة)[4].

فأمير المؤمنين يريد أن يصلح خطأ قائده حيث طغت الحرب على الحوار. ويخرج الجيش الإسلامي من سمرقند، ويعيدها إلى أهلها المشركين إن حكم لهم القاضي بذلك.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٣١، ٣٢).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٧٥).

(٣) المرجع السابق (٩/ ١٤٢).

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٦٩) سير عمر بن عبد العزيز.

(قال: فأجلس لهم سليمان جُميعَ بن حاظر القاضي الناجي؛ فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، وينابذوهم على سواء؛ فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوةً)[1].

لقد حكم القاضي لصالح أهل سمرقند ضد القائد قتيبة، وأصدر حكمه بخروج المسلمين منها؛ ليبدأ الحوار، وتبدأ بعدها المعركة من جديد. فماذا كان بعد هذا الحكم؟

فقال أهل السفه (سمرقند):

بل نرضى بما كان، ولا نجدد حربًا، وتراضوا بذلك.

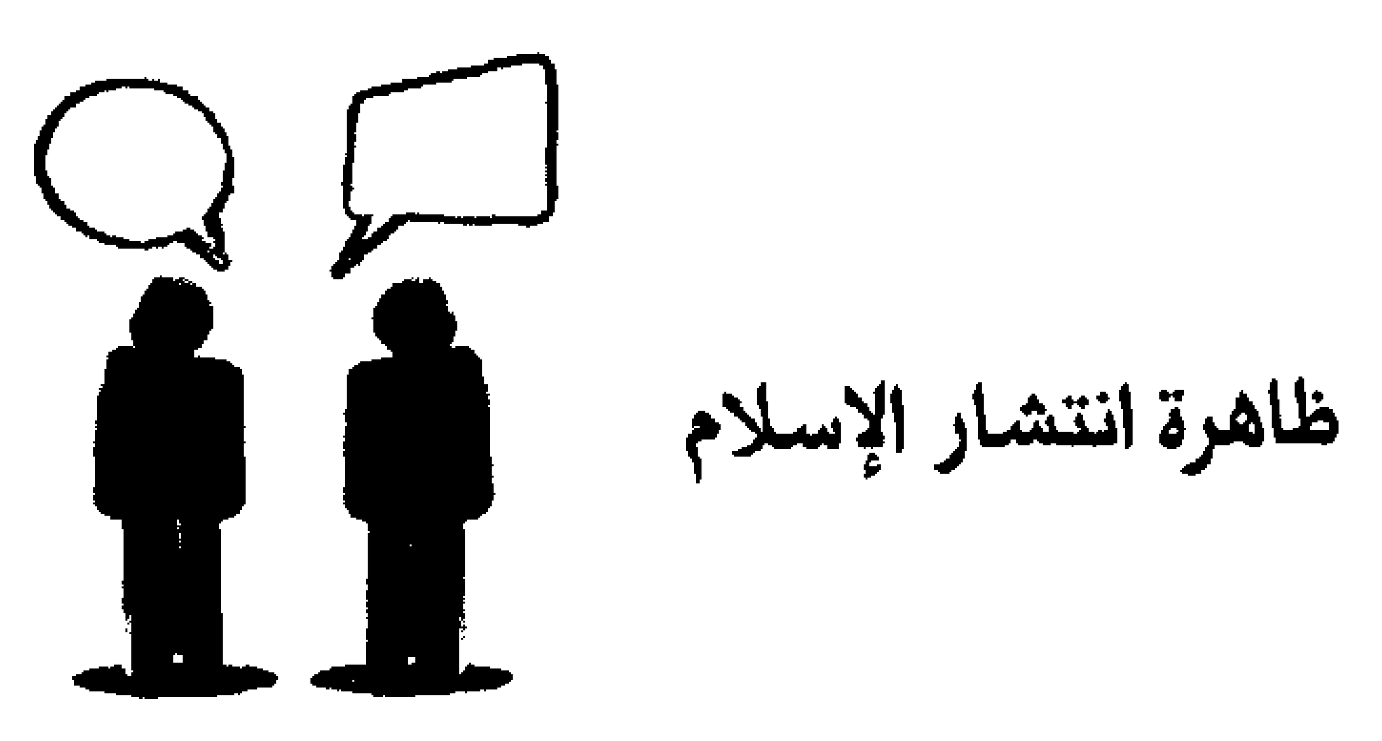
فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم، وأقمنا معهم، وأمنونا وأمناهم. فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا؛ كناقد اجتلبنا عداوة في المنازعة.

فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا)[2] وكما يقول الشيخ الطنطاوي - رحمه اللَّه -: (ولكن أهل البلد - المدعين - شدهتهم هذه العدالة الإسلامية، والذين ذاقوا نعمة الحكم الإسلامي في هذه السنين الطويلة - عادوا يطلبون طوعًا واختيارًا أن يبقوا تحت راية الإسلام)[3].

* * *

(١، ٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٦٩) سير عمر بن عبد العزيز.

(٣) رجال من التاريخ لعلي الطنطاوي، طبعة. ثانية (٧١).



ظاهرة انتشار الإسلام

كانت المائة الأولى - بعد موجة الفتوحات الكبرى - مرحلة اعتناق الإسلام من هذه الأمم التي دانت للحكم الإسلامي، أو صالحت على الجزية؛ وذلك من خلال التعامل اليومي بين المسلمين الفاتحين والأمم التي دانت لهم. ولم يُفرض اعتناق الإسلام على أحد حسب النص القرآني: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وكانت مهمة المسلمين تبيان الرشد من الغي في المجتمعات التي يعيشون فيها من خلال الحوار المباشر بين الفريقين. ولم تمرَّ مائة عام على دولة الإسلام حتى أصبحت الأمة العربية التي قادت الفتوحات الأولى جزءًا من أمة كبرى هي الأمة الإسلامية التي تضم كل الجنسيات المتنوعة. وتقوم هذه الأمة على أساس المبدأ الإسلامي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وراحت الأجناس الأخرى تأخذ دورها بجوار العرب في صياغة الحضارة الإسلامية، ومنصهرة كلها في بوتقة الإسلام؛ وذلك في شتى مجالات الحضارة: في اللغة والأدب والفقه والتفسير والحديث والسيرة والطب والفلك والرياضيات. وشهدت نهاية المائة الأولى بداية عمليات الترجمة للعلوم اليونانية والفارسية والرومانية؛ لتصاغ ضمن الإطار الإسلامي.

(وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي. وترك العربُ الناسَ أحرارًا في أمور دينهم، وأظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم؛ فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقًا من الدعة والطمأنينة)[1].

وقال في مكان آخر:

(إن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن؛ فغالبًا ما تَرَكَ العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغةً لهم؛ فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل. ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف؛ بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول).

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص١٥٢) ترجمة عادل زعيتر.

(أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة - أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرًا؛ فعاملوا أهل كلِّ قطر استولوا عليه بلطفٍ عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية ضئيلة في الغالب - إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقًا - في مقابل حفظ الأمن بينهم؛ فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم)[1].

القرن الثاني للهجرة:

لم ينقضِ القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النبي تخفق من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسي. وغدت إسبانيا - التي هي إحدى الممالك النصرانية الكبرى في أوروبا - خاضعة لشريعة محمد.

في القرن الثاني من الهجرة اتسع نطاق الفتوح العربية قليلًا، وأصبح هَمُّ العرب مصروفًا إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوغلت جيوشهم في بلاد المغول حتى البلغار حيث دحرها شارل مارتل.

ونُقل في القرن الثاني للهجرة مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد.. واتسعت رقعة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثاني للهجرة وبلغت من الحدود ما لم تقدر على مجاوزته.. وصار معظم آسيا خاضعًا لسلطان الخلفاء الممتد من جزيرة العرب إلى التركستان. ومن وادي كشمير إلى جبال طوروس، وعُبِّدت بلاد فارس، وصار ملوك كابل وجميع أمراء وادي السند يعطون الجزية، وأضحى العرب في أوروبا مالكين لإسبانيا وجزر البحر المتوسط، وأضحوا في أفريقيا مالكين لشمالها ولمصر.

(وانتهى دور الفتوح، وبدأ دور التنظيم، وحوَّل الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهد بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة العرب في الشرق، وكان عهدًا اقتبس العرب فيه ثقافة اليونان؛ فلم يلبثوا أن أبدعوا حضارة ساطعة ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون).

ونهضت العلوم والفنون والصناعة والتجارة بسرعة في زمن هارون الرشيد على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفن يشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة في أقاصي العالم. وأعطته القسطنطينية جزية، وأرسل إليه إمبراطور الغرب شارلمان وفدًا. ولم يقل عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً[2].

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ١٢٨). (٢) مع تحفظنا على هذا التعبير.

سُقْتُ هذه النقول لتكون صورة القرن الثاني للهجرة واضحة أمامنا؛ فهو قرن انتقال المسلمين من دور الفتوح إلى دور البناء الحضاري. ونظلم التاريخ يوم نتحدث عن حضارة العرب وحدها في هذا القرن؛ فلقد شاركت الأمم كلها في هذا البناء وتدخلت حتى في الحياة السياسية. ولم يكن عصر المنصور والهادي والمهدي والرشيد والمأمون عصرًا عربيًّا إنما كان عصرًا إسلاميًّا حتى في الحياة السياسية، ومن ينكر دور الفرس المشارك في بناء الحضارة ينكر واقعًا حيًّا عاشته الأمة خلال هذا القرن (١).

سر انتشار الإسلام:

الذي يهمنا في موضوع الحوار هو انتقال هذه الأمم إلى الإسلام بطواعية واقتناع ودراسة، وإذا كان الشاهد من غير أهلنا تكون شهادته أوثق؛ **ولهذا نترك المجال للوبون يشرح سر انتشار الإسلام في الأرض. (والفضل ما شهدت به الأعداء):**

يقول تحت عنوان: فلسفة القرآن انتشاره في العالم ما يلي:

دين التوحيد(٢):

إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عد الإسلام صورة مبسطة من النصرانية. ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي؛ وذلك أن الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمنٌ على كل شيء، ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسهم. وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم.

يسر الإسلام وسهولته(٣):

وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرُّ قوة الإسلام. والإسلام إدراكه سهل خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم غالبًا من التناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا، وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد. وبمساواة جميع الناس أمام اللّه، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها. وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة؛ وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض

---

(١) حضارة العرب للوبون (ص ١٤٢، ١٤٣).
(٢) هذا العنوان ليس في الكتاب.
(٣) وكذلك هذا العنوان.

من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وضوح الإسلام البالغ[(١)]:

وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم، ويُفَسَّر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام؛ كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عَرفُوا أصول الإسلام. كما يُفسَّر السبب في عدم تنصر أي أمة بعد أن عرفت الإسلام دينًا، سواءً أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة. ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده. والإسلام إذا ما نُظر إليه من هذه الناحية وُجد من أشد الأديان تأثيرًا في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة... إلخ - يعلِّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع. وهو يعرف - فضلًا عن ذلك - أن يصب في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات.

النفوذ السياسي للإسلام وأهميته[(٢)]:

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيمًا إلى الغاية؛ فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائمًا. فلما ظهر محمد، ومضى على ظهوره قرن واحد - كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي خفقت راية النبي فوقها.

الإسلام واكتشافات العلم ومبادئ الهدى:

والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملًا على العدل والإحسان والتسامح والبدهية. وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة، تراها مضطرة إلى أن تتحول تحولًا تامًّا لتستمرئها الجموع، وهي لا شك دون الإسلام في شكلها المعدل هذا.

على سنة الحضارات:

وجرت حضارة العرب التي أوجدها أتباع محمد على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء، فاعتلاء، فهبوط، فموت. ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي

---

(١) هذا العنوان غير موجود في الكتاب.

(٢) وكذلك هذا العنوان.

والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص[١]، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وفلسطين وآسيا الصغرى وجزء كبير من روسيا والهند والصين، ثم جميع أفريقيا إلى ما تحت خط الاستواء تقريبًا).

وحدة اللغة والحج:

وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحدةُ اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجاج إلى مكة من جميع بلدان العالم الإسلامي.

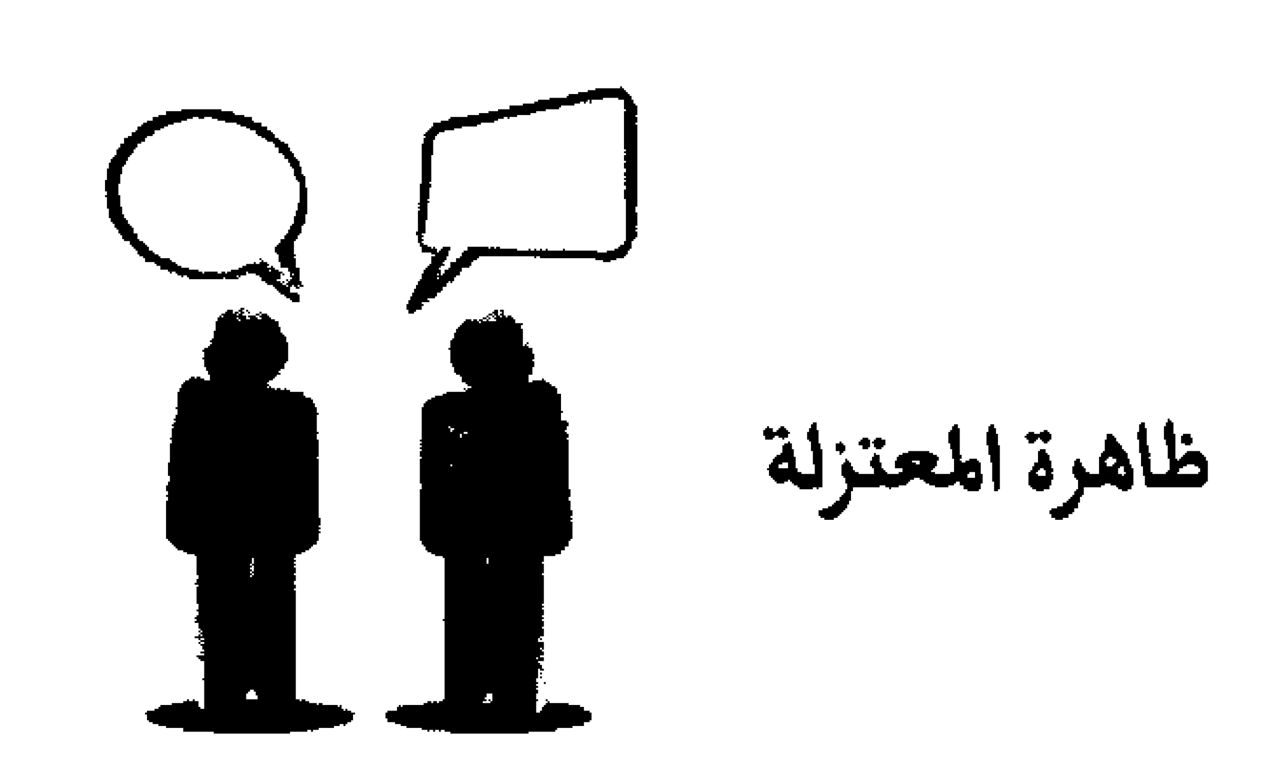
ويجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية قدر الإمكان؛ واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية - ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في يوم من الأيام[٢].

من هذه الشهادة الموضوعية التي تقدر بماء الذهب نستطيع أن نفقه دور الحوار في المجتمعات الإسلامية، والذي ساهم بشكل كبير في نقل الإسلام إلى هذه الأمم، وإيضاح مفاهيمه، وحسن الدعوة له. وتتمثل هذه الوقائع بقول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥]. فقد غدا الأعداء كلهم - بحسن الدعوة، وتعميق الحوار - أبناء للإسلام العظيم.

* * *

(١) هذا في زمانه أما اليوم فيدين به مليار وستمائة مليون شخص.

(٢) فلسفة القرآن، انتشاره في العالم (ص ١٢٥).



ظاهرة المعتزلة

حاد بعض المعتزلة عن التسامح واليسر والسهولة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فأثاروا بعض الآراء التي أدخلت التعقيد إلى الفكر الإسلامي. ولكونهم من طبقة المثقفين والمتكلمين والمناطقة؛ استطاعوا أن يؤثروا على شخص رئيس الدولة المأمون والذي كان في قمة الثقافة، ثم إخوانه من بعده. وتأثروا بمنهج الفلاسفة والمناطقة في فهم الإسلام. ولا ننكر أن لهم دورًا كبيرًا في الدفاع عن الإسلام ضد خصومه، نعرض له فيما بعد. إنما نقف الآن أمام محنة خلق القرآن التي أثاروها وتبنتها الدولة، وأرادت فرضها على الأمة. فلم يستجب علماء الأمة وفقهاؤها ومفكروها لهذه البدعة، وأعلنوا رفضهم لها، وزُجوا في السجون والمعتقلات، وكان مصير بعضهم الموت نتيجة إصرارهم على موقفهم ورفض مقولة: « القرآن مخلوق ».

لقد ابتدأت المحنة منذ عهد المأمون، وانتهت على يد المتوكل. وعانت الأمة منها ما ينيف عن عشرين عامًا، حتى شرح اللّه صدر الخليفة المتوكل لنقضها، فاعتُبِر ناصرًا للسنة، وأفرج عن زعيم الأمة الإمام أحمد بن حنبل الذي ثبت كالطود الأشم ورفض أن يفرط في دينه، أو تلين قناته لتهديد أو وعيد أو إغراء.

نبحث في هذه الأجواء عن الحوار. فأين نجده؟

نجده في كتاب الحيدة لمؤلفه عبد العزيز الكناني والذي سطر فيه مناظرة ضخمة جرت بينه وبين بشر المريسي من أكبر أعمدة المعتزلة. وفند فيها كل ادعاءات المعتزلة وأفكارهم.

ويعد الكتاب بحق مفخرة من مفاخر تاريخنا الإسلامي الذي يثبت دائمًا أن الحوار هو الطريق الوحيد الأنجع لإحقاق الحق وإبطال الباطل. وقد قام الدكتور جميل صليبا بإعادة طبع الكتاب وتحقيقه، وطبع في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، وسنقتبس الكثير من المحقق.

عبد العزيز الكناني:

هو عبد العزيز بن يحيى بن... بن ميمون الكناني المكي، كان من قبيلة كنانة، ومن أهل مكة.. أخذ العلم عن العديد من العلماء، وكان لاتصاله بالإمام الشافعي أثرٌ عميق في نفسه،

فتفقه به واشتهر بصحبته... وقد طالت صحبته للشافعي حتى خرج معه إلى اليمن وعاد معه إلى مكة، ومكث بها مدة طويلة.

- فلما بلغه ما أظهره المأمون من القول بخلق القرآن سنة (٢١٢هـ) أزعجه ذلك وأقلقه، فخرج من مكة حتى قدم بغداد؛ فأشهر قوله بنفي خلق القرآن على رؤوس الخلائق والأشهاد في المسجد الجامع، فاحتمله أصحاب السلطان إلى عمرو بن مسعدة، فنظر عمرو في أمره، فعلم أنه لم يخرج من بلده، ولا غرر بنفسه إلا للمناظرة بين يدي المأمون في مسألة خلق القرآن، فاتصل عمرو بن مسعدة بالمأمون، فأمر بإجابة عبد العزيز إلى ما سأل، وجمع بينه وبين الفقهاء والقضاة في مجلس خاص حضره جماعة من بني هاشم، فجرت بينه وبين بشر المريسي في ذلك المجلس مناظرة عجيبة، على النحو المبين في الكتاب.

عبد العزيز يتحدث عن نفسه:

(اتصل بي وأنا بمكة ما قد أظهره بشر بن غياث المريسي ببغداد من القول بخلق القرآن، ودعائه الناس إلى موافقته على قوله ومذهبه، وتشبيهه على أمير المؤمنين وعامة الناس... فأزعجني ذلك وأقلقني.. وأطال همي وغمي؛ فخرجت من بلدي متوجهًا إلى ربي ﷻ أسأله سلامتي وتبليغي، حتى قدمت بغداد.. فأجمعت رأيي على إظهار نفسي، وإشهار قولي ومذهبي على رؤوس الأشهاد، وأن يكون ذلك في المسجد الجامع.. فلما سلم الإمام من صلاة الجمعة، وَثَبْتُ قائمًا على رجلي ليراني الناس ويسمعوا كلامي وناديت بأعلى صوتي مخاطبًا ابني:

يا بني ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام اللّه غير مخلوق.

فلما سمع الناس كلامي ومسألتي لابني، هربوا من المسجد إلا اليسير من الناس، فلم يستتم ابني الجواب حتى أتاني أصحاب السلطان، فاحتملوني وابني وأوقفوني بين يدي عمرو بن مسعدة، وكان جاء ليصلي الجمعة. فقال لي: أمجنون أنت؟ قلت :لا. قال: فموسوس أنت؟ قلت: لا، قال: أفمعتوه أنت؟ قلت: لا، إني لصحيح العقل، جيد الفهم، ثابت المعرفة.. فقال لأصحابه: مروا بهما إلى منزلي.

الحوار بين عبد العزيز ورئيس الشرطة:

فلما صرنا بين يديه أقبل عليَّ فقال لي: من أين أنت؟

قلت: من أهل مكة.

قال: ما حملك على ما فعلت بنفسك؟

قلت: طلب القربة إلى اللّه ﷻ ورجاء الزلفة لديه.

قال: فهلا فعلت ذلك سرًّا من غير نداء، ولا إظهار لمخالفة أمير المؤمنين - أطال اللّه بقاءه - ولكنك أردت الشهرة والرياء، والتسوق؛ لتأخذ أموال الناس.

فقلت: ما أردت من هذا شيئًا، ولا أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين، والمناظرة بين يديه لا غير ذلك.

فقال: أَوَتفعل ذلك؟

قلت: نعم؛ ولذلك قصدت، وبلغت بنفسي ما ترى، بعد خروجي من بلدي، وتغريري بنفسي، مع سلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق اللّه فيما استودعني من العلم والفهم وما أخذ عليَّ وعلى العلماء من البيان.

فقال: إن كنت إنما جعلت هذا سببًا لغيره؛ فإذا وصلت إلى أمير المؤمنين؛ فقد حل دمك بمخالفتك أمير المؤمنين.

فقلت له: إن تكلمت في شيء غير هذا، أو جعلته ذريعة ؛ فدمي حلٌّ لأمير المؤمنين.

قال عبد العزيز: فوثب عمرو قائمًا على رجليه وقال: أخرجوه من بين يدي إلى أمير المؤمنين.

في دار أمير المؤمنين:

- فدخل وأنا في الدهليز قائم على رجلي، فأطال عند أمير المؤمنين، ثم خرج فقعد في حجرة له؛ وأمر بي فأدخلت عليه.

فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين بخبرك، وما فعلت، وما قلت، وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه. وقد أمر - أطال اللّه بقاءه - بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسه - أعلاه اللّه - في يوم الإثنين الآتي، وتحضر معهم؛ لتتناظروا بين يديه ويكون هو الحاكم بينكم.

قال عبد العزيز: فأكثرت حمد اللّه وشكره، وأظهرت الشكر والدعاء لأمير المؤمنين فقال لي: أعطنا كفيلًا بنفسك حتى تحضر معهم يوم الإثنين، وليس بنا حاجة إلى حبسك.

فقلت: أعزك اللّه، أنا رجل غريب، ولست أعرف في هذا البلد أحدًا ولا يعرفني من أهله أحد.

قال: فنوكل بك من يكون معك حتى يُحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من

شأنك، وتفكر في أمرك، فلعلك أن ترجع عن غيك، وتتوب عن فعلك. فيصفح عنك أمير المؤمنين عن جرمك.

قلت: ذلك إليك - أعزك اللّه - فافعل ما رأيت...

فلما كان يوم الإثنين... إذ بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاء ومعه خلق كثير من الفرسان والرجال فحملوني مكرمًا على دابة حسنة حتى صاروا بي على باب أمير المؤمنين.

بين يدي أمير المؤمنين:

قال عبد العزيز: فشال الستر (أي الحاجب) وأخذ الرجال بيدي وعضدي.. وكثر الضجيج من الحجاب والأولياء.. فخلّي عني، وقد كاد عقلي أن يتغير من شدة الجزع. وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح والرجال، وقد انبسطت الشمس عليهم، وهم ملء الصحون صفوقًا وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين؛ ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها، فلما صرت على باب الإيوان وقعت عيني عليه، فقلت: السلام عليك - يا أمير المؤمنين - ورحمة اللّه وبركاته. فقال: ادنُ مني. فدنوت منه. ثم قال: ادنُ مني أيضًا، ولم يزل يكرر ذلك وأنا أدنو منه خطوة خطوة حتى صرت في المجلس الذي يجلس فيه المتناظرون ويُسمع كلامهم.. فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون: اجلس، فجلست.

قال عبد العزيز: ثم أقبل عليَّ المأمون فقال لي: ما الاسم؟

فقلت: عبد العزيز، قال: ابن مَن؟ قلت: ابن يحيى، قال: ابن من؟

قلت: ابن ميمون الكناني.

قال: وأنت من كنانة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فتركني ولم يكلمني هنيهة، ثم أقبل عليَّ.

فقال: من أين الرجل؟ فقلت: من الحجاز. قال: من أي الحجاز؟

قلت: من مكة. قال: ومن تعرف من أهلها؟

قلت: يا أمير المؤمنين، كلُّ من بها من أهلها أنا أعرفه..

قال: فهل تعرف فلانًا؟ هل تعرف فلانًا؟

حتى عد جماعة من بني هاشم كلهم أعرفهم حق المعرفة. ويسألني عن أولادهم وأنسابهم من غير حاجة به إلى شيء من ذلك ولا مما تقدم من مسألتي؛ وإنما يريد بذلك إيناسي، وبسطي للكلام، وتسكين روعي وجزعي؛ فذهب عني ما كان لحقني من الجزع.

الدخول في المناظرة:

قال عبد العزيز: فأقبل المأمون عليَّ فقال: يا عبد العزيز، إنه قد اتصل بي ما كان منك، وقيامك في المسجد الجامع، وقولك: إن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق - بحضرة الخلق وعلى رؤوس الأشهاد - ومسألتك بعد ذلك الجمعَ بينك وبين المناظرين على هذه المقالة بحضرتي وفي مجلسي، والاستماع منك ومنهم. وقد جمعتك والمخالفين لك لتتناظروا بين يدي وأكون أنا الحاكم بينكم. فإن تكن لك الحجة عليهم والحق معك تبعناك، وإن تكن لهم الحجة عليك والحق معهم عاقبناك أو استتبناك، ثم أقبل المأمون على بشر المريسي. فقال: يا بشر، قم إلى صاحبك. فوثب بشر إليَّ من موضعه الذي كان فيه كالأسد يثب إلى فريسته.

قال عبد العزيز: ثم أقبل علي المأمون فقال: يا عبد العزيز ناظره على ما تريد، واحتجَّ عليه ويحتجُّ عليك، وسله ويسألك، وتناصفا في كلامكما، وتحفظا ألفاظكما؛ فإني مستمع إليكما ومتحفظ ألفاظكما.

قال عبد العزيز: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين[1].

إن الصورة التي يعرضها عبد العزيز عن المأمون وعن رئيس شرطته عمرو بن مسعدة - صورة مشرقة تتناسب مع عظمة المأمون، وعقليته العلمية، وتكريمه للعلماء والفقهاء من أي لون. ولا تتناسب مع ما يروى من حبسه للعلماء الذين لا يقولون بخلق القرآن، ومحاولة فرضها على الأمة بالقوة لا بالحوار.

ويحلل الدكتور صليبا من خلال صورة هذا الحوار، ومن خلال الروايات التاريخية محاولًا إزالة التناقضات فيها من خلال تحليله لشخصية المأمون؛ إذ يقول:

(والحقيقة أن المأمون لم يظهر القول بخلق القرآن إلا لاعتناقه مذهب المعتزلة، وإلا لاعتقاده أن في مذهبهم المبني على العقل والعلم والفلسفة تأييدًا لمبدأ التوحيد. واستمر على عقيدته هذه ست سنوات فلم يأمر بامتحان الفقهاء والمحدثين في سنة (٢١٨هـ) لحملهم على القول بخلق القرآن إلا وهو مريض بعيد عن بغداد. فتغلب مستشاروه عليه، وأوغروا صدره، وحملوه على توقيع كتب دعا الناس فيها إلى رأيه بقوة السلطان.

وكأنه اعتقد أن تلك الفكرة التي استحوذت عليه دين وواجب، فلما حضرته الوفاة أمر أخاه المعتصم بالأخذ بها. فلما ولي المعتصم الخلافة بالغ في تنفيذ فكرة أخيه أشد المبالغة. ولما آل الأمر إلى الواثق سار على سنة أبيه وعمه في هذه المسألة فلم يخرج الفقهاء من هذه

---

(١) ما عدا العناوين، فالمذكور مقتطفات من كتاب الحيدة (ص ٢ - ٢٢).

المحنة الصماء التي عاشوا بها إلا حين تولى المتوكل الخلافة. وكان الواثق قد رجع في آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لا يرى هذا الرأي. وهكذا ظل القول بخلق القرآن عقيدة الدولة من سنة (٢١٢هـ) إلى سنة (٢٣٢هـ) أي عشرين سنة فقط)[1].

ولكن هذه السنوات العشرين لم يكن فيها فرض لهذه العقيدة في السنوات الست الأولى من (٢١٢ - ٢١٨هـ) من حكم المأمون؛ إنما أمر بذلك في مرض وفاته. كما أن الواثق تراجع عن هذا الفرض بالقوة في أخريات حكمه، أي يمكن القول بأن فرض الرأي استمر عشر سنوات فقط.

والملاحظة الثانية أن الشيخ الكناني - رحمه الله - أديب بليغ بالإضافة إلى فقهه الواسع؛ فتعليقاته على الحوار أكبر من الحوار نفسه، وينقلنا إلى تلك الأجواء كأننا نعيشها، ولا يدع فرصة لتحليل شخصية المأمون وتحليل آثار الحوار إلا استفاد منها وقدمها إلينا. فما نود أن نعلقه قد كفاناه الكناني - رحمه الله - ولم يكن تلخيصنا للحوار في هذا الكتاب أحيانًا إلا للعرض. ولندخل إلى صلب الحوار:

تحديد الأصل الذي يرجع إليه عند الخلاف:

(فقلت: يا أمير المؤمنين، كل متناظرين على غير أصل يكون بينهما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع - فهما كالسائر على غير طريق...

فقال لي المأمون: نِعْم ما قلت. فاذكر الأصل الذي تريد أن يكون بينكما، ويذكر هو أيضًا مثله حتى تتفقا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءك - الأصل بيني وبينه ما أمرنا الله ﷻ به...

قال: المأمون: ذلك موجود عن الله ﷻ؟

قلت: نعم.. ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ﴾ [النساء: ٥٩] وقد تنازعت أنا وبشر وبيننا كتاب الله وسنة نبيه.

فقال بشر: وأين أمرنا الله أن نرد ما اختلفنا فيه إلى كتابه وسنة نبيه؟

فقلت له: كأنك لم تسمع ما جرى وما ابتدأت به، قال الله ﷻ: ﴿ ... فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ﴾.

---

(١) كتاب الحيدة. تحقيق: الدكتور جميل صليبا (ص ٢٨، ٢٩) المقدمة.

قال بشر: فإنما أمرنا أن نرده إلى اللَّه ورسوله، ولم يأمرنا أن نرده إلى كتابه وسنة نبيه.

قال عبد العزيز: فقلت: هذا ما لا خلاف فيه بين المؤمنين وأهل العلم، إن رددناه إلى اللَّه فهو إلى كتابه، وإن رددناه إلى الرسول بعد وفاته فإنما هو إلى سنته، وإنما يشك في ذلك الملحدون. وقد روي بهذا اللفظ عن عبد اللَّه بن عباس[1]، وعن جماعة من الأئمة الذين أُخذ العلم عنهم.

خلق القرآن:

قال عبد العزيز: ثم أقبلت على بشر فقلت:

يا بشر، ما حجتك أن القرآن مخلوق؟ انظر إلى أحدِّ سهم في كنانتك وارمني به، ولا تحتاج إلى معاودتي بغيره...

فقال لي بشر: تقول: إن القرآن شيء أم غير شيء. فإن قلت: إنه شيء فقد أقررت أنه مخلوق، إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل. وإن قلت: إنه ليس بشيء فقد كفرت؛ لأنك تزعم أنه حجة اللَّه على خلقه، وأن حجة اللَّه ليست بشيء.

فقلت لبشر: ما رأيت أعجب منك؛ تسألني، وتجيب نفسك عني، وتكفرني ولم تسمع كلامي!!

فأقبل المأمون على بشر فقال: صدق عبد العزيز، اسمع منه جوابه، ورد عليه بعد ذلك بما شئت من الكلام.

ثم قال لي: تكلم يا عبد العزيز، وأجبه عما سألك.

فقلت لبشر: سألت عن القرآن، أهو شيء أم غير شيء؟ فإن كنت تريد أنه شيء إثباتًا للوجود، ونفيًا للعدم؛ فنعم هو شيء. وإن كنت تريد أن الشيء اسم له، وأنه كالأشياء؛ فلا.

فقال بشر: ما أدري ما تقول، ولا أفهمه، ولا أعقله، ولا أسمعه. ولا بد من جواب يفهم ويعقَل أنه شيء يعقل أو غير شيء.

قال عبد العزيز: صدقت، إنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول، ولقد ذم اللَّه ﷻ في كتابه من قال مثل ما قلت... فقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ... ﴾ [الأنفال: ٢٢]...

فقال لي المأمون: دع هذا يا عبد العزيز، وارجع إلى ما كنت فيه وبيِّنه واشرحه[2].

---

(١) لا شك أن ذكاء الشيخ الكناني خارق؛ فاستشهاده بما روي عن عبد اللَّـه بن عباس - رضي اللَّـه عنهما - هو ربط للمأمون العباسي فيه أهم من ربط بشر، وعبد اللَّـه بن عباس جده.

(٢) نلاحظ موضوعية المأمون؛ حيث أوقف عبد العزيز عن النيل الشخصي من بشر، وأعاده إلى جادة البحث.

فقلت: يا أمير المؤمنين. إن اللَّه ﷻ أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه؛ فلم يتسمَّ بالشيء، ولكنه دلَّ على نفسه أنه أكبر الأشياء إثباتًا للوجود ونفيًا للعدم؛ فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبرًا خاصًّا مفردًا لعلمه السابق أن جهمًا وبشرًا ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه، ويشبهون على خلقه ويدخلونه وكلامه في الأسماء المخلوقة فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة. ثم عدد أسماءه في كتابه فلم يتسمَّ بالشيء.. فلما أظهر اللَّه كلامه لم يظهره باسم الشيء؛ ولكنه أظهره باسم الكتاب والنور والهدى والفرقان، ولم يقل: قل من أنزل الشيء الذي جاء به. وسمى ﷻ كلامه (كما سمى نفسه) بأسماء ظاهرة يعرف بها نورًا وهدًى، وشفاءً، ورحمةً، وحقًّا، وقرآنًا، وفرقانًا.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين - أطال اللَّه بقاءك - قد أقر عبد العزيز بأن القرآن شيء، وأنه ليس كالأشياء. فليأتِ بنص التنزيل كما أخذ عليَّ وعلى نفسه أنه ليس كالأشياء، وإلا فقد بطل ما ادعاه وصح قولي أنه مخلوق وإلا ثبتت الحجة عليه بخلقه؛ إذ كان اللَّه ﷻ قد أخبرنا بنص التنزيل أنه خالق كل شيء.

فقال لي المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز.

وجعل محمد بن الجهم[1] وغيره يضجون ويقولون: ظهر أمر اللَّه وهم كارهون، جاء الحق وزهق الباطل. وطمعوا في قتلي. وجثا بشر على ركبتيه وجعل يقول: أقر واللَّه يا أمير المؤمنين بخلق القرآن. وأمسكت فلم أتكلم حتى قال لي المأمون: ما لك لا تتكلم يا عبد العزيز؟

فقلت: .. قد تكلم بشر، وطالبني بنص التنزيل على ما قلت، وهو المناظر لي. ولِمَ الضجيج وأنا لم أنقطع، ولم أعجز عن الجواب؟!

فصاح المأمون بمحمد بن الجهم وغيره فأمسكوا.

فقال لي المأمون: تكلم يا عبد العزيز فليس يعارضك أحد غير بشر.

فقلت: قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]؛ فدل ﷻ بهذه الأخبار على أن كلامه ليس كالأشياء وأنه غير الأشياء، وأنه خارج عن الأشياء، وأنه إنما تكون الأشياء بقوله وأمره؛ فقال: ﴿إِنَّ

---

(١) أحد قادة المعتزلة.

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقال لي المأمون: يجزيك بعض هذا فاختصره.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد أخبرنا اللَّه ﷻ عن خلق السموات والأرض وما بينهما، فلم يدع شيئًا من الخلق إلا ذكره. وأخبر عن خلقه، وأنه إنما خلقه بالحق، وأن الحق قوله وكلامه الذي به خلق الخلق كله، وأنه غير الخلق وخارج عن الخلق...

قال بشر: قد ادعى أن الأشياء إنما تكون بقوله. ثم جاء بأشياء متباينات متفرقات؛ فزعم أن اللَّه ﷻ يخلق بها الأشياء؛ فأكذب نفسه ونقض قوله، وأمير المؤمنين شاهد عليه وهو الحاكم بيننا. ثم أقبل المأمون وقال: يا عبد العزيز، قد قال بشر كلامًا قد قلته وتحتاج أن تصحح قولك.

وجعل بشر يصيح ويقول: لو تركناه يتكلم لجاء بألف لون مما خلق اللَّه ﷻ بها الأشياء.

قال عبد العزيز:.. ما خرجت عن كتاب اللَّه، ولا قلت إلا ما قال اللَّه.. وكل ما ذكر اللَّه ﷻ أنه خلق ويخلق بها الأشياء - فهو شيء واحد وله أسماء متعددة. وذكر الآيات التي تؤكد ذلك.

فقال المأمون: أحسنت أحسنت يا عبد العزيز.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله ولا أسمعه ولا ألتفت إليه، ولا أقبل من هذا شيئًا.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، من لا يعقل عن اللَّه ما خاطب به نبيه ﷺ، وما عَلَّمه عبادَه المؤمنين في كتابه.. فكيف يدعى للعلم، ويحتج للمقالات والمذاهب، ويدعو الناس إلى البدع والضلالات؟!

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، قد أقر بين يديك أن القرآن شيء فليكن عنده كيف شاء؛ فقد اتفقنا جميعًا على أنه شيء. فقال اللَّه ﷻ بنص التنزيل: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] هذه لفظة لم تدع شيئًا من الأشياء إلا أدخلته في الخلق؛ فصار القرآن مخلوقًا بنص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، عليَّ أن آتي بما يكسر حجته ويدحض حجته ويكذبه.

فقال: هات ما عندك يا عبد العزيز.

فقلت: يقول اللَّه ﷻ: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥] يعني الريح التي أرسلت على عاد. فهل أبقت الريح يا بشر شيئًا لم تدمره؟!

قال: لا، لم تُبق شيئًا إلا دمرته؛ فقد دمرت كل شيء كما أخبر اللَّه ﷻ.

فقلت: قد - واللَّه - أكذب اللَّه من قال هذا بقوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥] فأخبر عنهم أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم، ومساكنهم أشياء كثيرة. وقال ﷻ: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٣] وقد أتت الريح على الأرض والجبال والشجر والمساكن فلم يصر منها شيء كالرميم...)[١].

علمُ اللَّه:

لن نستطيع أن نتابع نصوص الحوار؛ وإنما قدمنا نموذجًا مختصرًا عنه، وسنكتفي بعرض مواضيعه الرئيسية بعد النموذج المقدم؛ إذ طلب الشيخ الكناني من بشر المريسي بشكل دقيق فهمه عن علم اللَّه بسؤاله المحدد: أَفتقرُّ يا بشر أن للَّه علمًا أو تخالف التنزيل؟ وراغ بشر عن الجواب المباشر كما يقول عبد العزيز: فحاد بشر عن جوابي وأبى أن يصرِّح بالكفر فيقول: ليس للَّه علم؛ فيكون قد ردَّ نصَّ التنزيل، وأبى أن يقول: إن للَّه علمًا فأسأله عن علم اللَّه، أهو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا؟ وعَلِم ما أريد به، وما يلزمه من كسر قوله وإبطال مذهبه. فاجتلب كلامًا لم أسأله عنه. فقال: معنى علمه أنه لا يجهل. فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين، قد حاد بشر عن جوابي.

فقال بشر: وهل تعرف الحيدة؟

قلت: نعم، إني لأعرف الحيدة في كتاب اللَّه، وهي سبيل الكفار التي اتبعتَها.

فقال لي المأمون: يا عبد العزيز، هل تجد الحيدة[٢] في كتاب اللَّه؟

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وفي سُنة المسلمين وفي لغة العرب[٣]. وقد حاصر الشيخ الكناني بشرًا مستعينًا بالمأمون عليه ليحدد جوابه؛ كي يوقعه في مزالق جهله.

وحين أصر على عدم الجواب قال المأمون لعبد العزيز: فإذا قال بشر: إن للَّه علمًا، وأقر بذلك؛ فيكون ماذا؟

---

(١) كتاب الحيدة. مقتطفات (١٣ - ٥٢).

(٢) ومن هنا سُمي الكتاب؛ حيث قصد الكناني أن بشرًا حاد عن الإجابات وهرب منها. والظاهر أن الحيدة من مقولات المعتزلة.

(٣) كتاب الحيدة (٥٢).

قلت: أسأله يا أمير المؤمنين عن علم اللَّه، هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حين احتج بقوله: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. فزعم أنه لم يبق شيء إلا أتى عليه هذا الخبر؟ فإن قال: نعم داخل في الأشياء المخلوقة؛ فقد شبَّه اللَّه - تعالى - بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا.. واللَّه أعظم وأجل من أن يوصف بذلك.. ومن قال ذلك فقد كفر، وحل دمه، ووجب على أمير المؤمنين قتله.

وإن قال: إن علم اللَّه خارج عن جملة الأشياء وغير داخل فيها، كما أن قوله خارج عن الأشياء وغير داخل فيها؛ فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه.

فلم يتمالك المأمون نفسه من الإعجاب الشديد بحجة عبد العزيز، فقال: أحسنت، أحسنت يا عبد العزيز؛ وإنما فر بشر من أن يجيبك في هذه المسألة لهذا.

نفس اللَّه:

ثم تابع عبد العزيز هجومه الثاني على بشر، وأوقعه في فخه.

قلت: يا بشر ألست تزعم أن قوله ﷻ: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ لفظة لا يخرج عنها شيء؟

قال بشر: هكذا قلت، وهكذا أقول، ولست أرجع عن شيء بكثرة خطبك وهذيانك. فقلت: أمير المؤمنين شاهد عليك بهذا.

ثم قلت: يا بشر، قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه: ٤١]، وقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ [الأنعام: ١٢] فقد أخبرنا اللَّه ﷻ في مواطن كثيرة من كتابه أن له نفسًا؛ فهل تقر يا بشر أن للَّه ﷻ نفسًا؟ قال: نعم.

ولم يدرك المريسي هنا أين سيرمي به عبد العزيز وفي أي مأزق سيضعه؛ فلم يتردد بالاعتراف بالنفس كما تردد بالعلم.

قال عبد العزيز: قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ أفنقول أن نفس رب العالمين داخلة في هذه النفوس التي تذوق الموت؟

فصاح المأمون - وكان جهوري الصوت -: معاذ اللَّه، معاذ اللَّه.

فقلت ورفعت صوتي: معاذ اللَّه أن يكون كلام اللَّه داخلًا في الأشياء المخلوقة كما أن نفسه ليست داخلة في الأنفس الميتة[1].

---

(١) كتاب الحيدة (٧٠ - ٧٢) باختصار.

وحاول بشر أن يتدارك الموقف فقال: يا أمير المؤمنين، قد سألني؛ فليسمع كلامي.

فقلت له: تكلم بما شئت. فقال: إن كانت نفس اللّه ضميرًا أو توهمًا فهي خارجة وليست بداخلة في هذه النفوس. فقلت له: إنما قلت: إن للّه نفسًا وقد أقررت بذلك. ولتكن عندك في أي معنًى شئت. وقل: هل هي داخلة في هذه الأنفس (الميتة) أو لا؟.. فقال لي: أنت رجل متعنت؛ تُجاب عن مسألتك فتطلب غيرها. وليس عندي جواب غير هذا. وانقطع.

قال عبد العزيز: فقلت يا أمير المؤمنين قد كسرت قوله بقوله، ودحضت حجته بحجته، وبطل ما كان يدعو الناس إليه من بدعته..

فأقبل عليَّ المأمون وقال: يا عبد العزيز، قد وضحت حجتك، وبان قولك، وانكسر قول بشر، وتحتاج أن تشرح هذه الأخبار في القرآن ومعانيها وما أراد اللّه ﷻ بها ليسمع من بحضرتنا. فقد جرت اليوم أشياء كثيرة يحتاج من سمعها إلى معرفتها وفهمها[1].

لقد انتصر عبد العزيز بالحجة على بشر. وفسح له أمير المؤمنين أن يشرح أفكاره في دحض خلق القرآن.

(خلق)، و (جعل) والفرق بينهما:

بعد أن استفاض عبد العزيز بشرح الأدلة من كتاب اللّه ومن لغة العرب، قال بشر: قد خطبت وتكلمت وهذيت، وتركتك حتى تفرغ مما ادعيت بإبطال خلق القرآن بنص التنزيل، ومعي من كتاب اللّه آية لا يتهيأ لك معارضتها ولا دفعها؛ وإنما أخرتها ليكون انقضاء المجلس عليها، وسفك دمك بها.

قال عبد العزيز: فقلت له: هاتها، وأنا أُشهد أمير المؤمنين أني أول من يتبعك عليها.

قال بشر: قال اللّه ﷻ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣].

قال عبد العزيز: لا أعلم أحدًا من المؤمنين إلا وهو يؤمن بهذا؛ فأي شيء في هذا من الحجة لك والدليل على خلقه؟

فقال بشر: وهل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف أن معنى ﴿ جَعَلْنَٰهُ ﴾: خلقناه؟

قال عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين، إن القرآن نزل بلسانك ولسان قومك، وأنت أفهم أهل الأرض بلغة العرب ومعاني كلامها، وبشر رجل من أبناء الأعاجم يتأول كتاب اللّه على غير معناه ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه؛ وإنما يكفِّر بشرُ الناسَ ويبيح دماءهم بتأويل

---

(١) كتاب الحيدة (ص ٧٠) باختصار.

التنزيل. فجعل بشر يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] تروغ إلى الكلام والخطب والاستعانة بأمير المؤمنين؛ قال اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] فإن يكن عندك شيء فتكلم به وإلا فقد قطع اللّه مقالتك. فرحناك في أول المجلس وأطمعناك؛ فقد جاء ما يخرس اللسان ويذهب بالعقل ويحل الدم.

لقد اندفع بشر ولم يسمع رد عبد العزيز. ولم يكن على مستوى فقهه ولا ذكائه؛ ولهذا راح عبد العزيز يستدرج بشرًا حتى وضع السكين على عنقه، وذبحه بغير سكين.

(فأقبلت على بشر فقلت: أخبرني عن (جَعَل). هل هي حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق؟ فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق، وما بين (جَعلَ) و(خَلقَ) لا فرق عندي.

قال عبد العزيز: فأخبرني أجماعُ الخلْق بزعمك على أن (جعل) و(خلق) سواء، وواحد لا فرق بينهما في هذا الحرف وحده أم في سائر ما في القرآن من الجعل؟ قال: بل في سائر ما في القرآن من ذلك، وفي سائر الكلام والأخبار والأشعار).

وراح عبد العزيز يطوِّق بشرًا بالحبل على عنقه، ثم يلفه ويلفه ويستدرجه، ويأخذ اعترافاته عن كل معاني (جعل) في القرآن ويأخذ إقراره أنه كافر. حتى بَرِم المؤمن بكثرة أسئلته وذكَّر عبد العزيز بالصلاة؛ مما حدا بعبد العزيز أن يعيد الثناء على المأمون شاهدًا على كل ما أقره بشر.

قال عبد العزيز: فأقبلت على المأمون فقلت: يا أمير المؤمنين، قد أقر بشر أنه كافر حلال الدم، وكل من قال بقوله ووافقه على مذهبه، ثم ندمت على قولي، وعلمت أني قد أخطأت.

وكان خطؤه أن شمل كل من قال بقوله أنه كافر حلال الدم، والمأمون يقول بقوله؛ وكان هذا كافيًا للإطاحة بعنقه وإيقاف المناظرة. واستغل بشر الفرصة أحسن استغلال أمام سقطة عبد العزيز وقال: يا أمير المؤمنين، يكفِّرنا، ويحل دماءنا بحضرتك؟! فقال المأمون غاضبًا (لعبد العزيز): لقد أفحشت في القول وأعظمته، واستشهدتني على ما لم أسمعه ولم أشهد به على بشر ولا على أحد ممن يقول بقوله.

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، اسمع قولي؛ فإن كنت قد قلت حقًّا، وانتزعت على كل حرف من كلامي بآية من كتاب اللّه - كان بشر قد أكفر نفسه ومن قال بمقالته، وأحل دمه ودماءهم؛ وإلا فدمي حلال، وليأمر أمير المؤمنين بضرب عنقي الساعة على رؤوس الأشهاد.

فقال لي: هات ما عندك ولا تُطِل الكلام.

قال عبد العزيز: قلت: قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١] فزعم بشر أن معنى ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ﴾: وقد خلقتم اللَّه عليكم كفيلًا. ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم. وقد كذب في القول الأول وصدق في القول الثاني....

ثم تابع اعترافاته حتى أتى عليها جميعًا يشهد بها عليه أنه كافر، وختم كلامه بقوله:

فأقبل عليَّ المأمون وقال: حسبك يا عبد العزيز، قد أقر بشر على نفسه بالكفر وإحلال الدم، وأشهدني على نفسه بذلك، ولقد صدقت في كل ما قلت. ولكنه قال ما قال وهو لا يعقل ولا يعلم ما عليه في ذلك.

قال عبد العزيز. ثم أقبل عليَّ المأمون فقال: تكلم يا عبد العزيز في بيان هذا، واذكر الجعل والخلق، وفرق بينهما واشرح ذلك؛ ليقف عليه من بحضرتنا ويعرفه.

فقلت: إن رأيت أن تأذن لي فأقول قبل البيان والشرح أشياء في هذا المعنى مما أكسر به قول بشر، وأدحض به حجته.

قال: قل ما تريد، ولا تخاطب بشرًا، أقبل عليَّ ودعه.

واستطاع عبد العزيز - كما روى - أن يفوز بالمناظرة بقوة الحجة، ويفحم خصمه.

لكن المأمون يعرف أن أغلب الحضور هم ممن يقول بخلق القرآن. وإنما جاء اللبس عليهم من مثل هذه الحجج في اعتبار (الخلق) و(الجعل) شيئًا واحدًا؛ ولذلك يود زيادة إيضاح لدحض هذا الفهم وإزاحة هذا الالتباس. وأسهب عبد العزيز في الشرح والإيضاح، وغاص في أعماق البحث وتناول الوصل والفصل في القرآن بأجلى بيان، وتُرِك له سيادة المجلس حتى شفى واشتفى.

المناظرة بالنظر والقياس:

قال المأمون: يا بشر، هل عندك شيء تناظر فيه عبد العزيز قبل أن نصرفه ونقوم؟ فقد طال المجلس وما صليت الظهر.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين، عندي أشياء كثيرة إلا أنه يقول بنص التنزيل، وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مطالبتي بنص التنزيل وليناظرني بالنظر والقياس.

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأذن لي فأناظره كما سأل عن جهة النظر

والقياس، وأدع مطالبته بالقرآن ونص التنزيل فعلت.

فقال المأمون: أنا الشاهد عليكما. وأوجزا، واقتصرا، ولا تطيلا فيخرج وقت الصلاة.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: تسألني أو أسألك؟

قال: سل أنت؟

فقلت له: يا بشر، تقول: إن كلام اللَّه مخلوق؟.

فقال: أقول: إن القرآن مخلوق.

فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها:

أن تقول: إن اللَّه ﷻ خلق القرآن في نفسه.

أو: خَلَقه في غيره.

أو: خلقة قائمًا في ذاته.

فقل ما عندك.

قال بشر: إنه مخلوق. وإنه خلقه كما خلق الأشياء كلها.

قال عبد العزيز: رجع بشر إلى الحيدة عن الجواب، وانقطع الكلام، فإن كان يريد أن يناظرني؛ فليجبني عما أسأله عنه.. فأقبل عليه المأمون وقال له: أجب عبد العزيز عما سألك؛ فقد ترك قوله ومذهبه، وناظرك على قولك ومذهبك.

قال بشر: قد أجبته، ولكنه يتعنت.

فقال المأمون: يأبى عليك عبد العزيز إلا أن تقول واحدة من ثلاث.

فقال: هذا أشد من مطالبته في المسألة بنص التنزيل، ما عندي غير ما أجبته به. فأقبل عليَّ المأمون فقال: يا عبد العزيز، تكلم أنت في شرح المسألة ودع بشرًا؛ فقد انقطع عن الجواب من كل جهة.

قال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما يلزمه في هذا الأمر فهو واحدة من ثلاث.

فإن قال: إن اللَّه خلق كلامه في نفسه؛ فهذا محال؛ لأن اللَّه لا يكون فيه شيء مخلوق، ولا يكون ناقصًا فيزيد فيه شيء إذا خلقه.

وإن قال: خلقه في غيره؛ يلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه اللَّه في غيره فهو كلام اللَّه لا يقدر أن يفرق بينهما، فيجعل الشعر كلام اللَّـه، وقول الزور كلام اللَّـه، وهذا محال.

وإن قال: خلقه قائمًا بنفسه وذاته؛ فهذا هو المحال والباطل؛ لأنه لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد. ولا رئي ولا يُرى كلام قط قائم بنفسه، متكلم بذاته؛ فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقًا - ثبت أنه صفة للّه وصفات اللّه ﷻ كلها غير مخلوقة؛ فبطل قول بشر يا أمير المؤمنين من جهة النظر والقياس كما بطل من جهة القرآن والتنزيل.

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز(١).

كلمة أخيرة:

ثم ساق عبد العزيز مجموعة أقيسة، وختمها بقوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

إن اللّه ﷻ أخبر في كتابه عن خلق الإنسان في ثمانية عشر موضعًا، ما ذكره في موضع منها إلا أخبر عن خلقه. وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعًا من كتابه؛ فلم يخبر عن خلقه في موضع منها، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق. ثم جمع بين الإنسان والقرآن في موضع واحد؛ فأخبر عن خلق الإنسان، ونفى الخلق عن القرآن فقال ﷻ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] ففرق بين القرآن والإنسان فزعم بشر - يا أمير المؤمنين - أن اللّه فرط في الكتاب، وكان يجب عليه أن يخبر عن خلق القرآن وقد قال تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهذا كسر قول بشر بالقياس. والحمد للّه رب العالمين.

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز. ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم؛ فحملت بين يدي وانصرفت عن مجلسه على أجمل حال، قد أعز اللّه دين الإسلام.. فللّه الحمد والشكر على نعمه كلها وتوفيقه وتسديده(٢).

وفي الجزء الثالث يقول الدكتور صليبا:

تنتهي المناظرة في آخر الجزء الثاني من كتاب الحيدة. وقد كان بودنا أن نوفي القول بإسهاب في الجزء الثالث منه؛ ولكنا أنعمنا النظر فيه فلم نجد فيه إلا وصف عبد العزيز لما حدث بعد المناظرة من شغب بشر وأصحابه عليه وتآمرهم وإغرائهم المأمون به، وما كان

---

(١) كتاب الحيدة (١٢٦ - ١٣٢).

(٢) كتاب الحيدة (١٢٩ - ١٤٣) مقتطفات.

من استدعائه إلى مجلس المأمون ودفاعه عن نفسه بأسلوب جميل[١].

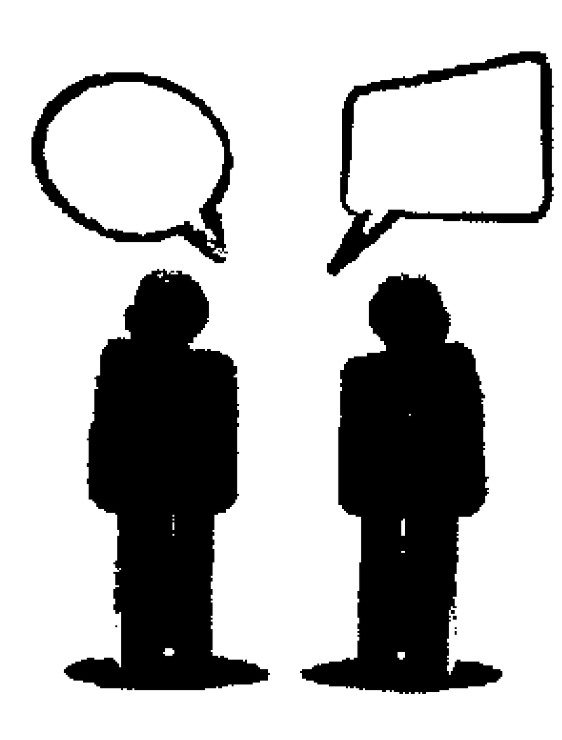
وفعلًا فليس في الجزء الثالث الذي استغرق قرابة مائة صفحة في الكتاب - من (١٣٩) إلى (٢٤٦) - ولا يدخل منه شيء في إطار الحوار الذي نتحدث عنه (وأحسن ما يقال في هذه المناظرة أنها محاورة بين عالِمين يمثلان اتجاهين مختلفين؛ فبشر المريسي يمثل أهل التأويل والنظر والقياس، وعبد العزيز الكناني يمثل أهل الحديث والسنة. وإذا علمنا أن بشرًا المريسي كان من الموالي، وأن عبد العزيز كان من كنانة أمكننا القول: إن مناظرتهما تمثل جانبًا من الصراع الفكري الذي قام في بغداد بين الشعوبية والعرب، والدليل على ذلك هزؤ عبد العزيز بالأعاجم الذين لا يفهمون اللغة العربية على حقيقتها، وإكثاره من مدح المأمون لعلمه بلغة قومه، هذا إلى جانب ما مدح به العرب، وبني هاشم، وبني العباس. ويظهر من استحسان المأمون لكلام عبد العزيز وصفحه عنه أنه كان متبرمًا من نفوذ بشر وأصحابه، ولعله لم يمتحن أهل الحديث والفقهاء في السَّنة الأخيرة من حياته إلا لوقوفهم من عقيدته موقفًا سلبيًّا؛ لقد كان عقله معتزليًّا، وقلبه سلفيًّا؛ فلم يشأ أن يطغى عقله على قلبه أو قلبه على عقله، وإذا كان قد وافق المعتزلة على القول بخلق القرآن؛ فمرد ذلك إلى اعتقاده أن هذا القول لازم من عقيدة التوحيد)[٢].

والذي نستغربه - إن صحت رواية كتاب الحيدة في كل تفصيلاتها - لأنها رواية من طرف واحد - أن يبقى المأمون بعد هذه المناظرة وهذا الحوار على موقفه. ولا نقول: على قناعته؛ لأنه لو تزلزلت قناعته بكثير من أفكار المعتزلة، فليس من السهل عليه تحويل الدولة بطاقمها الوظيفي المعتزلي الكامل إلى طاقم سني؛ فبقي على الحياد حتى استجرته المعتزلة لفرض عقائدهم في السنة الأخيرة من حياته.

* * *

(١) كتاب الحيدة، المقدمة (ص ٣٩).

(٢) كتاب الحيدة، المقدمة (٣٩، ٤٠).



غياب ظاهرة المعتزلة في الدولة بالحوار

لقد كان عهد المعتصم وصدر عهد الواثق يمثلان العهد الذهبي للمعتزلة في سيطرتهم على فكر الخليفة. وفرض مبادئهم على الأمة وملاحقتهم واضطهادهم أئمة السنة في هذا الشأن، وعلى رأسهم الإمام العظيم أحمد بن حنبل. وحين يغيب الحوار عن الساحة؛ يغيب الحق معه، ويصبح منطق القوة هو الذي يسود على الساحة لا منطق العقل. ومن أطرف ما روت كتب التاريخ ذاك الحوار العظيم الذي جرى بين شيخ معتقل وبين الخليفة الواثق؛ فهو الذي هزمه في الحوار واستطاع أن يمتص ذلك الحماس. لكننا قبل التعرض لأفول سلطانهم - نقول كلمة حق فيهم؛ فقد مر زمان لم يكن يحمل سلاح الرد على النصارى غيرهم.

المعتزلة يردون على مقولات النصارى:

وكان أبرز نشاطهم في القرن الثالث، وفي زمن سلطانهم. ومن أبرز علمائهم:

١ - القاسم بن إبراهيم الحسني:

(والحسني شيعي معتزلي وهو مؤسس مذهب القاسمية، توفي سنة مائتين وست وأربعين هجرية. وله كتاب عنون له: الرد على النصارى.... ويحتوي الكتاب على **ثلاثة أقسام**:

الأول: أبطل التولد عن اللّٰه بحجج منطقية قرآنية.. ورفض مبدأ النبوة.

الثاني: عرض عقائد النصارى في الثالوث والتجسد.

الثالث: خصص هذا القسم للرد على هذه العقائد.

٢ - عمرو بن بحر الجاحظ[1]:

الجاحظ هو عمرو بن بحر، وهو معتزلي، تنسب إليه إحدى فرق المعتزلة، صاحب تآليف. قال عنه الذهبي: كان من بحور العلم. مات سنة مائتين وخمس وخمسين للهجرة. وله في الرد على النصارى كتابان: **الأول**: الرد على النصارى، **والثاني**: الرسالة العسلية. والكتاب الأول جاء ردًّا على رسالة أرسلها مسلم إلى الجاحظ يسأله فيها عن مسائل أثارها بعض النصارى؛

---

(١) هو أديب العربية الأول في عهده.

فأدخلت بعض الشُّبه في قلوب الأحداث.. وتدور في جملتها على تكذيب القرآن الكريم في بعض ما ذكره عن أهل الكتاب؛ ومن ذلك: نسبة القول بألوهية مريم للنصارى، وكذا القول بأن هامان كان وزيرًا لفرعون.. ومنها أن القرآن ذكر بأن يحيى لم يكن له سَمِيّ، وغير ذلك.

٣ - عبد اللَّه بن محمد الأنباري:

من المعتزلة، قال عنه ابن خلكان: كان عالمًا في عدة علوم من جملتها علم المنطق، وقال عنه ابن كثير: كان جيد الذهن، يرد على المنطقيين الأئمة، وكانت وفاته سنة مائتين وثلاث وتسعين للهجرة. وله في الرد على النصارى كتاب الأوسط في المقالات. وقد وصل من كتابه ما احتفظ به الكاتب النصراني ابن العسال في إحدى عشرة صفحة عرض فيها لعقيدة ألوهية المسيح، وبيَّن أن النصارى فيهم الموحِّد وفيهم المثلِّث.. وإثر هذا العرض رد على المثلثين بضربيهم. وأما المجادلون بالمقاييس العقلية فقد اهتم بفساد بيان حججهم.

٤ - أبو عيسى محمد بن هارون الوراق:

من معتزلة بغداد. قال عنه ابن النديم: من المتكلمين النظارين كان معتزليًّا. وانتهى به التخليط إلى أن صار يُرمى بمذهب أصحاب الاثنين، واعتبره القاضي عبد الجبار من الملاحدة. توفي سنة سبع وأربعين ومائتين.

وله كتب ثلاثة في الرد على النصارى الكبير والأوسط والأصغر.. ويحوي رد الوراق الذي وصل إلينا أقسامًا ثلاثة:

أ - عرض معتقدات الفرق النصرانية الكبيرة.

ب - الرد على مقالات النصارى في التثليث.

جـ - نقض آراء النصارى في المسيح[١].

الشيخ المعتقل يحاور:

وحيث إن تاريخنا لم يحمل في ثناياه مرحلة إرهاب فكري إلا هذه السنوات العشر أو الخمس عشرة. فلا بد أن نتابع باهتمام كيف انتهت محنة خلق القرآن، وفرضها على الناس. والذي نؤكده أن الحوار هو الذي أنهاها وليس المزاج والهوى.

فقد روى الآجري عن الخليفة المهتدي - ولد الواثق - قوله: ما قطع أبي - يعني الواثق -

---

(١) مقتطفات من رسالة جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى للدكتور محمد منقذ محمود السقار. مقتطفات (٢٦ - ٣٦).

إلا شيخ جيء به من المصيصة فمكث في السجن مدة. ثم إن أبي ذكره يومًا فقال:عليَّ بالشيخ؛ فأُتي به مقيدًا. فلما وقف بين يديه سلَّم فلم يرد عليه السلام. فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين، ما استعملت معي أدب اللَّه ﷻ ولا أدب رسوله؛ قال اللَّه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، وأمر النبي برد السلام.

فقال له: وعليك السلام.

ثم قال لابن أبي دؤاد: سله.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد، أصلي في السجن بتيمم، مُنِعتُ الماء؛ فمر بقيودي تحل، مر لي بما أتطهر به وأصلي ثم سلني.

قال: فأمر فحل قيده، وأمر له بماء فتوضأ وصلى، ثم قال: يا ابن أبي دؤاد، سله.

فقال الشيخ: المسألة لي يا أمير المؤمنين. تأمره أن يجيبني.

فقال: سل.

فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد فقال: أخبرني عن هذا الذي تدعو الناس إليه؛ دعا إليه رسول اللَّه ﷺ؟

قال: لا.

قال: فشيء دعا له أبو بكر الصديق؟

قال: لا.

قال: فشيء دعا له عمر بن الخطاب بعدهما؟

قال: لا.

قال: فشيء دعا له عثمان بن عفان؟

قال: لا.

قال: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب بعدهم؟

قال: لا.

قال: فشيء لم يدع إليه رسول اللَّه ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، تدعو أنت الناس إليه؟ ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه. فإن قلت: علموه وسكتوا عنه؛ وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم. وإن قلت: جهلوه وعلمته أنا؛ فيا لكع ابن لكع، شيء ما تكلم فيه النبي ﷺ ولا الخلفاء الراشدون، تعلمه أنت وأصحابك؟!

قال المهتدي: فرأيت أبي وثب قائمًا وجعل ثوبه في فيه يضحك، ثم جعل يقول: صدق؛ ليس يخلو من أن يقول: جهلوه أو علموه، فإن قلنا:علموه وسكتوا عنه، وسعنا من السكوت ما وسع القوم. وإن قلنا: جهلوه وعلمته أنت؛ فيا لكع ابن لكع يجهل النبي ﷺ وأصحابه شيئًا تعلمه أنت وأصحابك؟؟!

قال: يا أحمد.

قلت: لبيك.

قال: لست أعنيك إنما أعني ابن أبي دؤاد، فوثب إليه فقال: أعط هذا الشيخ نفقته، وأخرجه من بلدنا[1].

وهناك رواية أوسع وأجلى عن أحمد بن الممتنع بن عبد اللّٰه القرشي الأيلي عن صالح ابن علي بن يعقوب الهاشمي، وكان من وجوه بني هاشم، وأهل الجلالة فيهم. وحرصنا على إيراد الروايتين ليكمل بعضهما بعضًا.

(قال: حضرت إلى المهتدي باللّٰه أمير المؤمنين وقد جلس ينظر في أمور المسلمين في دار العامة؛ فنظرت إلى قصص الناس تُقرأ عليه من أولها إلى آخرها فيأمر بالتوقيع فيها، وإنهاء الكتب إلى أصحابها، وتختم وترفع إلى صاحب بين يديه.. فسرني ذلك وجعلت أنظر إليه؛ ففطن ونظر إليَّ فغضضت عنه حتى كان ذلك مني ومنه مرارًا ثلاثًا إذا نظر إلي غضضتُ عنه، وإذا اشتغل نظرت.

فقال لي: يا صالح.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، وقمت قائمًا.

فقال: في نفسك منا شيء تحب أن تقوله؟

قلت: نعم يا سيدي، يا أمير المؤمنين.

قال لي: عد إلى موضعك.

فعدت وعاد إلى النظر، حتى إذا قام قال للحاجب: لا يبرح صالح. فانصرف الناس ثم أذن لي. وقد همتني نفسي فدخلت فدعوت له. فقال لي: اجلس. فجلست. فقال: يا صالح، تقول لي ما دار في نفسك، وأنا أقول ما دار في نفسي.

قلت: يا أمير المؤمنين، ما تعزم عليه، وتأمر به.

---

(١) كتاب الحيدة، الهامش (١٤١، ١٤٢) وقد ذكره بعد الجزء الثاني.

قال: وأقول أنا: كأني بك وقد استحسنت ما كان منا.

قلت: أي خليفة خليفتنا[١] إن لم يكن يقول: القرآن مخلوق؟! فورد على قلبي أمر عظيم، وهمتني نفسي. ثم قلت: يا نفس هل تموتين إلا مرة واحدة؟ وهل تموتين قبل أجلك، وهل يجوز الكذب في جد أو هزل؟

فقلت: واللَّه يا أمير المؤمنين، ما دار في نفسي إلا ما قلت. فأطرق مليًّا ثم قال: ويحك! اسمع مني ما أقول؛ فواللَّه لتسمعَنَّ الحق. فسُري عني وقلت: يا سيدي يا أمير المؤمنين، ومن أولى بقول الحق منك، وأنت خليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين من الأولين والآخرين؟![٢].

لقد كان هذا التمهيد كله لنقل الجو الذي تم فيه الحوار بين الشيخ وابن أبي دؤاد. عرضناه بجزئياته ليتسق الحديث بعدها عن الشيخ الذي أسر لب ابن الواثق فراح يصفه ويعرض لمنطقه وحواره؛ مما يشي إلى عظم تأثيره عليه.

قال المهتدي: ما زلت أقول: إن القرآن مخلوق صدرًا من خلافة الواثق حتى أقدم علينا أحمد بن أبي دؤاد شيخًا من أهل الشام من أهل أذنة. فأُدخل الشيخ على الواثق مقيدًا، وهو جميل الوجه تام القامة، حسن الشيبة، فرأيت الواثق قد استحى منه، ورق له. فما زال يدنيه، ويقربه حتى قرب منه. فسلَّم الشيخ فأحسن له ودعا فأبلغ وأوجز. فقال له الواثق: اجلس. ثم قال له: يا شيخ، تناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك عليه.

قال له الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن ابن أبي دؤاد يقل ويضيق ويضعف عن المناظرة.

فغضب الواثق، وعاد مكان الرقة غضبًا عليه.

فقال: أبو عبد اللَّه بن أبي دؤاد يضيق ويقل، ويضعف عن مناظرتك أنت؟!

فقال الشيخ: هون عليك يا أمير المؤمنين ما بك، وأْذَن لي في مناظرته.

فقال الواثق: ما دعوتك إلا للمناظرة.

فقال الشيخ: يا أحمد، إلى ما دعوت الناس وما دعوتني إليه؟

قال: إلى أن تقول: إن القرآن مخلوق؛ لأن كل شيء دون اللَّه مخلوق.

---

(١) يقول عنه ابن حزم في ملحق جوامع السيرة: وولي بعد المعتز ابن عمه أبو عبد اللَّه محمد بن هارون الواثق. وكان - رحمه اللَّه - إمامَ عدلٍ. فأقام واليًا إلى أن قتل سنة ست وخمسين ومائة. الجوامع (ص٣٧٤).

(٢) كتاب الحيدة، هامش (١٤٢، ١٤٣).

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تحفظ علي وعليه ما نقول.

قال: أفعل.

فقال الشيخ: يا أحمد (ابن أبي دؤاد)، أخبرني عن مقالتك هذه، هي واجبة داخلة في عقد الدين؛ فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال: نعم

قال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن رسول اللَّه ﷺ حين بعثه اللَّه ﷻ إلى عباده، هل ستر رسول اللَّه ﷺ شيئًا مما أمره اللَّه به في دينه؟

قال: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول اللَّه ﷺ الناس إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: تكلم. فسكت. فالتفت الشيخ إلى الواثق فقال: يا أمير المؤمنين، واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

ثم قال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن اللَّه ﷻ حين أنزل القرآن على رسوله ﷺ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] هل كان اللَّه ﷻ الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه؛ فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: أجب يا أحمد. فلم يجبه.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، اثنتان.

فقال الواثق: اثنتان.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن مقالتك، علمها رسول اللَّه ﷺ أم جهلها؟

قال ابن أبي دؤاد: علمها.

قال الشيخ: فدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، ثلاث.

فقال الواثق: ثلاث.

فقال الشيخ: يا أحمد، فاتسع لرسول اللَّه ﷺ أن علمها كما زعمت ولم يطالب أمته بها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: واتسع لأبي بكر الصديق، ولعمر بن الخطاب ولعثمان بن عفان ولعلي ابن أبي طالب رضي اللَّه عنهم أجمعين؟

قال ابن أبي دؤاد: نعم. فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق.

فقال: يا أمير المؤمنين قد قدمت إليك القول أن أحمد يضيق ويقل ويضعف عن المناظرة.

إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي اللَّه عنهم أجمعين - فلا وسَّع اللَّه على من لم يتسع له ما اتسع لهم.

قال الواثق: نعم، إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي اللَّه عنهم - فلا وسع اللَّه علينا اقطعوا قيد هذا الشيخ.

فلما قطع، ضَرَبَ الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه. فجاذبه المداد عليه. فقال الواثق: دع الشيخ يأخذه. فأخذه الشيخ فوضعه في كمه.

فقال الواثق: لِمَ جاذبت الحداد عليه؟

فقال الشيخ: لأني نويت أن أتقدم إلى من نويت أن أوصي إليه إذا مت أن يجعله بيني وبين كفني؛ حتى أخاصم به هذا الظالم عند اللَّه ﷻ يوم القيامة. وأقول: يا رب، سل عبدك هذا لِمَ قيدني، وروَّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك عليّ؟. وبكى الشيخ؛ فبكينا، وبكى الواثق.

ثم سأله أن يجعله في حلٍّ وسعة مما ناله.

فقال الشيخ: واللَّه يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حلٍّ وسعة من أول يوم إكرامًا لرسول اللَّه ﷺ؛ إذ كنت رجلًا من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجة.

فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلت.

فقال الواثق باللَّه: تُقيم قِبَلنا فننتفع بك، وتنتفع فتياننا.

فقال الشيخ: إن ردك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عليك، وأخبرك بما في ذلك: أصير إلى أهلي وولدي فأكُفّ دعاءهم عليك. فقد خلَّفتهم على ذلك.

فقال الواثق: فتقبل منا صلة تستعين بها على دهرك.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، لا تحل لي، أنا عنها في غنًي. وذو مِرَّة سواي أحوج إليها.

فقال له: سل حاجتك.

فقال: أَوَتقضيها يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم.

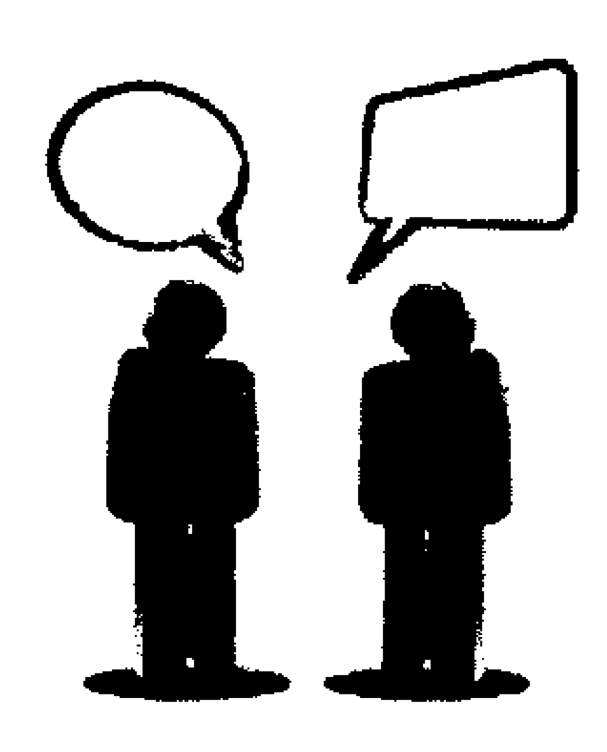
قال: تخلي سبيلي الساعة، وتأذن لي.

قال: قد أذنت لك. فسلَّم الشيخ، وخرج.

قال صالح: قال المهتدي - رحمه اللَّه -: فرجعت عن هذه المقالة من ذلك اليوم، وأظن أن الواثق باللَّه رجع عنها منذ ذلك الوقت[1].

* * *

(١) كتاب الحيدة، الهامش (١٤٣ - ١٤٥). وقال الدكتور صليبا: راجع كتاب التوابين لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، عني بنشره وتحقيقه چورج المقدسي (ص ١٨١ - ١٩١) من طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، (١٩٦١م). وأقول: إن الذي حقق كتاب الحيدة وكتاب التوابين: نصرانيان، والشهادة منهما بهذا الحوار شهادة عالية وغالية.



حوار النصارى عبر القرون

الأصل أن نتحدث عن حوار الأديان عامة، أو حوار اليهود والنصارى على الأقل بصفتهما أهل كتاب. وقد عاشوا مع المسلمين بذمة وجوار، وأراد الإسلام هذا التعايش؛ فكسر أكبر القيود التي تحول دون ذلك حين أباح أكل ذبيحتهم، ونكاح نسائهم رغم اختلاف العقيدة. والتعامل عندما يتم بالنكاح والطعام يبعد ذلك التحسس الذي يقع بين أبناء البلد الواحد، ويدع المجال فسيحًا للحوار والنقاش بعيدًا عن التعصب.

الفرق بين اليهود والنصارى في التاريخ:

بالرغم من أن القرآن الكريم كان يتحدث في الكليات العامة عن أهل الكتاب بصفة عامة؛ إلا أن حديثه عن بني إسرائيل فاق كثيرًا الحديث عن أهل الكتاب وعن النصارى، وعُني ببني إسرائيل اليهود دائمًا في ماضيهم وحاضرهم. وغالبًا ما كان ذكر بني اسرائيل في الذم؛ لتعصبهم وكبرهم وافتراءاتهم.

والفرق الجوهري بين اليهود والنصارى في التاريخ هو أن الذين أسلموا من اليهود يعدون على الأصابع، وقد لا يتجاوزون المائة فيما وصل إلينا من أخبارهم. أما النصارى فقد أسلمت أمم كاملة وعلى مدار الزمن. والشعوب في المنطقة العربية كان معظمها من النصارى؛ فدخلت في دين اللَّه. وبعض الشعوب الإسلامية كذلك؛ فالنصارى هم الضالون الذين إذا أتيح إلى الكثير منهم أن يعرف الهدى رجع عن ضلاله واهتدى، أما اليهود فهم المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وتنكروا له ورفضوه.

وهم من جهة ثانية ليسوا حريصين على إدخال الناس في اليهودية؛ لأن شعورهم الذي يطغى عليهم أنهم شعب اللَّه المختار؛ فهم لا يثيرون مشاعر المسلمين بمحاولة التأثير عليهم وإدخالهم في اليهودية. فهذه الأمم ليست على مستواهم؛ ومن أجل هذا بقوا أقلية على مدار التاريخ كله.

وقد ذكر رسول اللَّه ﷺ أن إصرار زعماء اليهود على الكفر هو الذي حال بين اليهود وبين الإيمان به؛ فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن**

بي اليهود »[1]. يقول الحافظ ابن حجر: (.. والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود، ومن عداهم كان تبعًا لهم؛ فلم يسلم منهم إلا القليل؛ (١) كعبد اللَّه بن سلام، وكان من المشهورين في الرئاسة في اليهود عند قدوم النبي ﷺ، ومن بني النضير (٢) أبو ياسر بن أخطب و (٣) أخوه حيي بن أخطب و (٤) كعب بن الأشرف و (٥) رافع بن أبي الحقيق، ومن بني قينقاع (٦) عبد اللَّه بن حنيف و (٧) فنحاص و (٨) رفاعة ابن زيد، ومن بني قريظة (٩) الزبير بن باطا و (١٠) كعب بن أسد و (١١) وشمويل بن زيد)[2]. وحين نخرج عبد اللَّه بن سلام منهم يكونون هؤلاء العشرة من زعماء قبائل اليهود جميعًا - قد أصروا على كفرهم.

استمرار الحوار بين النصارى والمسلمين:

ولأنهم يعيشون متجاورين، ويتعاملون مع بعضهم بالبيع والشراء والزواج والزيارات والطعام - كان من الطبيعي أن يتناقشوا بالعقيدة، ويتجادلوا فيها، ويؤلفوا الكتب بالرد على بعضهم من دون أن يؤثر ذلك على علاقاتهم الوطنية وحياتهم الاجتماعية. ومن أجل ذلك وجدنا علماء المسلمين الكبار يتصدون للقساوسة والرهبان الكبار في الرد على بعضهم، والمناقشات في مجالسهم. ونذكر أهم **النماذج خلال القرون الأولى**:

أعلام القرن الرابع:

الحسن بن أيوب: (نصراني أسلم على يد المعتصم، قال عنه شيخ الإسلام: من أعلم الناس بمقالاتهم، كان من علمائهم وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم، وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة للهجرة.

وله رسالة كتبها لأخيه النصراني علي بن أيوب يدعوه فيها للإسلام، وقد أثبت هذه الرسالة المهمة شيخ الإسلام في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »، ويذكر المؤلف أنه بقي عشرين سنة والشك يداخله في دينه. وشرح أسباب انتقاله للإسلام فقال: « فلم أدع كتابًا من كتب أسماء التوراة والإنجيل والزبور وكتب الأنبياء والقرآن - إلا نظرت فيه وتصفحته؛ فلم أجد للحق مدفعًا.. خرجت مهاجرًا إلى اللَّه ﷻ بنفسي ». ثم شرع يذكر الفرق النصرانية.. وما فيها من مخالفة المعقول)[3].

---

(١) البخاري، حديث (٣٩٤١)، ومسلم، حديث (٢٧٩٣).

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٧٥).

(٣) جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى: للدكتور محمد منقذ السقار.

أعلام القرن الخامس:

وأشهر أعلامه:

أ- **أبو بكر الباقلاني**.. الذي قال عنه الذهبي: كان ثقة إمامًا بارعًا.. انتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري. مات في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة. وله كتاب « التمهيد »، وخص النصارى فيه بفصلٍ بلغ سبعًا وعشرين صفحة... وقد ذكر الذهبي وغيره في ترجمته أنه قال لراهب الروم: كيف الأهل والأولاد؟

فقال الملك: أما علمت أن الراهب يتنزه عن هذا؟!

فقال: تنزهونه عن هذا. ولا تنزهون رب العالمين عن الصاحبة والولد؟!

وقيل: إن الطاغية سأله: كيف جرى لزوجة نبيكم (يقصد لمز عائشة بما رُميت به من حديث الإفك)؟ فقال: كما جرى لمريم بنت عمران، وبرأهما اللَّه. ولكن عائشة لم تأت بولد.

ب - **القاضي عبد الجبار**: أبو الحسن المعتزلي، قال عنه الذهبي: العلامة المتكلم شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية.. مات في ذي العقدة سنة خمس عشرة وأربعمائة. وقد تعرض للنصارى في ثلاثة من كتبه:

الأول: المغني في أبواب التوحيد والعدل.

والثاني: من كتبه: تثبيت دلائل النبوة.. ويعرض للنصارى بما يقارب المائة والعشرين صفحة.

وأما كتابه الثالث: شرح الأصول الخمسة. يعرض في فصل فيه لمبحثي التثليث والاتحاد. وقد كان رده في « المغني » و« التثبيت » من أهم الردود في هذا الباب.

جـ - **ابن حزم الأندلسي**: القرطبي، قال عنه الذهبي: الإمام الأوحد ذو الفنون والمعارف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، وله « كتاب الفصل في الملل والنحل ». وذكر له الذهبي كتابًا آخر عنوانه: « تأليف في الرد على أناجيل النصارى ». وفي كتاب « الفصل » خص ابن حزم النصارى والتوراة بثلاثة فصول شغلت ما جاوز المئتي صفحة من هذا الكتاب.. ويعاب عليه السمة الظاهرية التي غلبت على دراسته.

د - **إمام الحرمين الجويني**: وهو عبد اللَّه بن عبد الملك الجويني الشافعي إمام الحرمين، صاحب التصانيف، قال عنه ابن كثير: صنف التصانيف الكثيرة في أنواع العلوم وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وأربعمائة للهجرة. وله في الرد على النصارى كتاب « شفاء الغليل في

بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل ». كما تعرض للنصارى في كتابه: « الشامل في أصول الدين » كما خص النصارى بفصل صغير في كتابه « الإرشاد إلى قواطع الأدلة ».

هـ - **أبو الوليد الباجي**: وهو الإمام سليمان بن خلف الأندلسي، قال عنه الذهبي: الإمام العلامة الحافظ ذو الفنون. وقد توفي سنة أربعمائة وأربع وسبعين للهجرة.

وله في الرد على النصارى رسالة رد فيها على راهب فرنسا، وقد كتب الباجي هذه الرسالة للمقتدر أمير سرقسطة يدعوه فيها للدخول في النصرانية ليحصل له النجاة في الآخرة، وعظمة النصراني في رسالة دينه، مبرزًا دور عيسى في إنقاذ البشرية من هلكة إبليس بدمه الطاهر. وأكد أصالة عقيدة (الالتحام المقدس) حيث جاءت بها الكتب السابقة، ولم يذكر دليلًا عليه، وطلب جوابًا على رسالته بكتاب؛ فإن لم يتيسر ذلك فليكن الجواب عن طريق الرسولين حاملي رسالته والذي يظهر أن مهمتهما لم تكن مجرد حمل الرسالة؛ بل كانت مهمة الوفد (أن يوردا عليك - أي المقتدر - كلامًا إلهيًّا على ما يوفقهم اللّه إليه، ويشرحون لك حقيقة دين النصارى، ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا ينبغي الإيمان بأحد سواه...).

وأما جواب القاضي عليها فيبدأ بعبارات تلطفٍ للراهب مذكرًا إياه بأهمية الرجوع إلى الحق.. ثم شرع يتعرض لموضوعات رسالة النصراني ويرد عليها. **وكان أهم ما تطرق له**:

- عدم وجود أي نصٍّ يدل على الالتحام المقدس بالكتب السابقة.

- إثبات بشرية عيسى بدلالة أفعاله البشرية؛ بل وحتى معجزاته؛ حيث وقع من غيره من الأنبياء أمثالها.

- إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ بدلالة معجزاته وأخلاقه.

- أهمية الفداء المزعوم ومبرراته وأثره على الإنسانية، وناقش بسخرية لاذعة القول بموت الإله من غير أن يراعي تفسيرات الفرق النصرانية لموت المسيح.

- إن الكتب النصرانية مليئة بالتناقض والغرائب والتلفيقات، واكتفى بمثال واحد للتناقض ألا وهو نسب المسيح بين متى ولوقا. وفي خلال طَرْقه للموضوعات تحدث الباجي عن قلة العلم عند النصارى، وأن سببه بُعدهم عن المناظرة والمحاورة. ودعاهم إلى الخروج عن الإلف والعادة، والنظر في شريعة الإسلام والإيمان به. ودعا الراهب إلى عدم الحرص على مكانه في قومه.

وختم الرسالة بذكر بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن الاستكبار والظلم بتكذيب آيات اللّـه، وتدعوه بدعوة القرآن لأهل الكتاب: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤][1].

أعلام القرن السادس:

أ - أبو حامد الغزالي: قال عنه الذهبي: الإمام البحر، حجة الإسلام أعجوبة الزمان، وكانت وفاته سنة خمس وخمسمائة. وله كتاب « الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل » ولهذا الكتاب أهمية خاصة؛ فهو أول كتاب متخصص في مناقشة النصارى في معتقد الحلول الإلهي والتثليث بشكل مستقل، إضافة إلى جمع المؤلف - رحمه اللَّه - بين الاستدلال العقلي والتمكن والخبرة بالنصوص الكتابية.

والمنهج الذي رسمه الغزالي في الرد على النصارى يتلخص في أنه سلَّم جدلًا للنصارى بصحة نصوصهم، ودرس هذه النصوص مقارنًا إياها بترجمات النص في لغة أخرى هي القبطية، كما قام بتعليل النصوص وتفسيرها بما تقتضيه نصوص أخرى أوضح منها في دلالتها بما يقتضيه العقل، وبما يقتضيه النقل الصريح، وتفسيراته مؤيدة بما يدعمها من دلالة الكلام عند العقلاء، وكذا النصوص الكتابية الأخرى، وكذا الأسلوب المنطقي الذي استخدمه الغزالي، ويرى أنه لا يمكن للنصارى تجاوز مقدماته التي اعتمد عليها، فوصل إلى نتيجة واضحة هي أنه لا دلالة في النصوص على إلهية عيسى في الأناجيل.

ب - ابن الأنباري: هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن صاحب المصنفات في النحو، قال عنه الذهبي: الإمام القدوة، شيخ النحو. وقال ابن كثير: النحوي الفقيه العابد الزاهد. وكانت وفاته سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وله كتاب « الداعي إلى الإسلام في أصول الكلام » تعرض فيه لذكر الأديان المخالفة لجمع أهل الحق، وخص فيه النصارى واليهود بفصلين ثم ختم بفصل أثبت فيه نبوة سيدنا محمد ﷺ[2].

جـ - أبو عبيدة الخزرجي: هو أحمد بن عبد الصمد الخزرجي الساعدي من فقهاء الأندلس، ولد في قرطبة، واشتهر في شبابه بالذكاء والنبل وحفظ الأحاديث، وانتقل إلى غرناطة ثم بجاية ثم استوطن فاس ومات بها. وكانت وفاته سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة هجرية.

وله كتابه المشهور باسم « مقامع هامات الصلبان ومواقع روضات الإيمان » وقصة هذا الكتاب كما أوردها ناسخ النسخة التي اعتمد عليها محمد شامة في تحقيقه هي أنه: لما نفذ

---

(١) جمهور علماء المسلمين في الرد على النصارى، د. محمد منقذ السقار (ص ٤٢، ٤٣).

(٢) المرجع السابق.

القضاء من اللَّه - تعالى - على قرطبة باندثار ملكها، وتفرق أهلها عنها؛ لتتابع ضنكها - ألحق بطليطلة صبيٌّ من آل عبد الحق يوصف بالذكاء، وكان بها قسيس من القوط يُكثِر الاعتراض في الدين على نفر من المسلمين؛ فجعلوا يرفعون أسئلتهم إلى الصبي فيجيبهم الصبي عليها؛ فيرجعون بذلك إلى القسيس؛ فأنكر إجابتهم لعلمه أنهم ليسوا من أهل الذكاء، فاستفتاهم فأعلموه بذلك؛ فكتب القوطي إلى الخزرجي كتابًا وسألهم أن يوصلوه إليه ويأتوا منه بجواب... ولما وقف الصبي على الرسالة زجر موصليها، وامتنع عن مراجعة القسيس تخوفًا منه لكونه يومئذ بين ظهرانيهم، وفي كنه ديانتهم؛ فألحوا عليه في الجواب. وفي خلال ذلك حان موعد سفره عنهم فكتب هذا الجواب المسمى بمقامع الصلبان.. وتركه عندهم ومضى. وأما رسالة النصراني فهي تشتمل على عرض لمعالم الدين النصراني، ودعوة منه للخزرجي إلى الدخول في دينه. كما فيه إثارة لبعض الشبهات يقارن فيها بين الإسلام والنصرانية. ويفضل فيها النصرانية من خلال هذه المقارنات التي كان موضوع بعضها الشرائع وأخرى المعتقدات.

وجاء كتاب الخزرجي ردًّا على النصراني في جميع ما أثارته رسالة القوطي النصراني، وبدأه بالاعتذار عن عدم مجاوبة القسيس مما يرى من ركاكة مقالة النصارى. وحكى بعضًا من أقوال العقلاء في ذم النصرانية على اختلاف مللهم.. ثم شرع في إبطال ما ورد في رسالة النصراني؛ فأبطل أدلة النصارى على حلول اللَّه في المسيح، وكذا النصوص التي توهم النصارى بألوهيته، وكذا أبطل الأدلة النصية على التثليث.

ثم تعرض لتناقضات الإنجيل فذكر أمثلة لها، وتساءل عن الإنجيل الذي أنزله اللَّه أين هو؟ وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟ فما هذه الأناجيل (إلا حكايات وتواريخ وكلام كهنة وتلاميذ وغيرهم، حتى إني أحلف باللَّه الذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلًا من الأناجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمر الدين؛ وإنما هو فكاهات المجالس) ثم تحدث عن حادثة الصلب، وتعرض لها بنقد صارم أبطل من خلالها أن يكون المصلوب عيسى... ثم أسهب في الرد على شُبه النصراني فكان رده مشتملًا على عدد من قضايا إعجاز القرآن الكريم، ومعجزات نبينا محمد ﷺ المختلفة. وذكر أيضًا من النصوص الكتابية الدالة على نبوة نبينا ﷺ ما قارب الأربعين نصًّا من الكتب المقدسة)[1].

د - **أبو عبد اللَّه الرازي**: ولئن كانت تلك المناظرة في أقصى الغرب الإسلامي، وبعد انتصار النصارى على المسلمين وطردهم من الأندلس؛ فهذه المناظرة هي في أقصى الشرق

---

(١) جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى، د. محمد منقذ السقار (ص ٤٥، ٤٧).

الإسلامي في خوارزم، وتمت بين أبي عبد اللَّه الرازي، وأحد أكابر علماء النصارى، والذي جاء إلى أرض الإسلام متحديًا بالحوار عقائد المسلمين.

قال عنه ابن خلكان: فريد عصره ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات، وكانت وفاته سنة ستمائة للهجرة. وله مناظرة في الرد على النصارى. ولم ترد هذه المناظرة ضمن مناظرات الرازي. وقد أثبت الرازي مقاطع منها في تفسيره لسورتي آل عمران والنساء.

وقصة هذه المناظرة أن أحد أكابر علماء النصارى - ولم يُسمِّه الرازي - وفد إلى خوارزم، فذهب إليه الرازي وناظره، وبدأت المناظرة بسؤال من النصراني عن الدليل على نبوة نبينا ﷺ وإجابة الرازي بدلالة المعجزات المتواترة، ثم شرع النصراني يقرر ألوهية المسيح فأبطلها الرازي مستدلًّا بصفات عيسى التي تنفي عنه الألوهية كالجسمية والتحيز والعبادة والأكل والشرب والقتل كما تقول النصارى.. ثم قارن بين معجزات المسيح ومعجزات الأنبياء. فبيَّن أنها من جنس واحد، ودلالتها واحدة - أي في نبوة أصحابها - ثم تحدث النصراني في عدة قضايا:

- عدم التسليم بمعجزات النبي كانشقاق القمر وغيره، وتساءل: لماذا تأخرت المعجزات إلى بلوغه سن الأربعين؟ ولِمَ لم ينبأ في طفولته؟

- إن قول النصارى بحلول اللَّه في عيسى يشبه ما يقوله المجسمة المنتسبون للإسلام في اللَّه ﷻ؛ كقولهم أن له جسمًا، وأن عليه تاجًا من ذهب.. وكذا شَبه النصراني دينه بما تقوله الباطنية وغلاة الصوفية من حلول اللَّه ببعض البشر أو الجماد، وقول هؤلاء أشنع من قول النصارى الذين يخصون عيسى بالحلول. وفسر موت عيسى بأنه موت للجسد لا للروح، وأن في ذلك إشارة من اللَّه إلى نجاسة عالم الأجساد.

- بين النصراني أن معتقد النصارى في المسيح هو بنوته للَّه - تعالى - لا على سبيل الحقيقة بل التفخيم، وشبهه بقول المسلمين: محمد حبيب اللَّه.

- اتهم المسلمين بالحلول مستشهدًا بحديث ظهور اللَّه يوم القيامة لعباده في صورة ينكرونها؛ فكما أجازوا ظهوره على هذه الصورة ينبغي أن يجوزوا ظهوره على صورة موسى أو عيسى.

هذه هي الشبهات التي أثارها النصراني. ولم تأتِ من فراغ؛ فالنصراني قد تعمق[1] في الإسلام ودرس نصوصه، ودرس الفكر الصوفي وما فيه من مغالاة وانحراف، وتحدث عنه بصفته جزءًا من الإسلام، ودعا الرازي أن يتخلى عن الإسلام؛ فالنصرانية أقرب إلى العقل

---

(١) جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى، د. محمد منقذ السقار (ص ٤٩).

من الإسلام. لكن الرازي قام بتفنيد كل ما قاله: **ورد على أقوال النصراني بأمور:**

- بالحديث عن معجزة القرآن المتحدى به وسلامته عن المعارضة للمثل أو للبعض منه.

الأحاديث التي توهَّم منها النصراني التجسيم والتشبيه - لها تأويلات حسنة عند المسلمين، وكل حديث يخالف الأصول؛ فإن علماء المسلمين بينوا زيغه وجرَّحوا رواته.

- فرَّق الرازي بين الخلة والبنوة؛ فالخلة ثابتة لجميع الأنبياء الصالحين بينما إطلاق البنوة ممنوع ولو على سبيل المجاز؛ لئلَّا يلتبس على الناس. فهذه اللفظة مشعرة بالانفصال والجنسية.

- أما ما ذكره في مثال مسيلمة فإنه ممنوع؛ لأن مسيلمة قال الدليل على كذبه لا أن أدلة صدقه مفقودة.

ثم انقطع النصراني وأقر بالغلبة، وامتنع عن الإسلام بحجة أن في علماء دينه من يستطيع دفع حجة الرازي.. ثم أورد النصراني أسئلة من صاحب له، ووعد بالإسلام في حالة الإجابة عنها. وهي:

- ما قول المسلمين فيما تميز به المسيح عن محمد ﷺ كترك الزواج وميلاده العجيب وحياته في السماء؟ كما لم يأتِ بالمتشابهات التي جاء بها القرآن والسنة والتي فرقت المسلمين، أو بالمبهمات التي لا معنى لها؛ كالحروف المقطعة.

واتهم الصحابة بقلة العلم والفهم والعجز. وتساءل: كيف صلح هؤلاء لصحبة النبوة وأمانة الرسالة؟!

- تحدث عن خلافات المسلمين الفقهية والكلامية، ثم ظهور الفرق الباطنية، ورأى أن هؤلاء جميعًا يدَّعون الحق. ويرى النصراني أن اللبس طرأ على هؤلاء من الألفاظ المشكلة في الكتاب والسنة، ويرى أنه كان يلزم على رسول اللَّه أن يجنِّب أمتَه هذا الخلاف فيشرح حقائق الألفاظ، وتناسى النصراني الأسباب الأخرى الرئيسية التي أدت لظهور الفرق من شعوبية وزندقة وما سوى ذلك، ورد الرازي بأن قَلَبَ على النصراني دليله؛ فما ذكره في حق رسولنا يقال في حق عيسى عليه السلام فكيف يجيب النصراني؟ ثم أكمل الرازي مناظرته بالدعوة إلى الإسلام، وتفضيل النبي ﷺ على غيره من الأنام.

وذكر الرازي في ختام المناظرة إسلام النصراني وهدايته وأنه أصبح إمامًا يقتدى به في العلم.

والمناظرة كما تبين من مباحثها مناظرة جادة، وخصم الرازي متمكن من أساليب الجدال والاستدلال؛ لذلك أرى أن ما سجله الرازي إنما هو بعض حوارات المناظرة لا كلها؛ إذ لا يتوقع انتقال النصراني عن دينه لمجرد إفحامه في بعض المسائل.

لا بد أن نشير إلى أن القرنين الخامس والسادس قد شهدا الحروب الصليبية والاحتكاك العنيف بين الإسلام والنصرانية، كما شهد القرن السابع انحسار الإسلام عن الأندلس في أعنف صدام بين الإسلام والنصرانية، وهذا ما سنعرض له فيما بعد.

أعلام القرن السابع:

أ - **محمد بن أحمد القرطبي** المفسر (قال عنه ابن العماد: الحاكي مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده! وكان إمامًا وعَلَمًا من الغواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل..).

وله كتاب « الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام ».

ويذكر القرطبي سبب تأليفه الكتاب فيقول: (وقفت - وفقك اللَّه - على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين النصرانية سماه كتاب « تثليث الوحدانية » بعث به من طليطلة أعادها اللَّه إلى مدينة قرطبة حرسها اللَّه، متعرضًا فيه لدين المسلمين نائلًا من عصابة الحق الموحدين سائلًا عما لا يعنيه ومتكلمًا بما لا يدريه).

وبعد استخارة اللَّه تعالى كتب القرطبي هذا الكتاب جوابًا عليه، وهو يجيب على ما كتبه النصراني حرفًا حرفًا.

وطريقة القرطبي في كتابه بينها فقال: أذكر كلام هذا السائل كما بلغني.

- وأبين من خطئه وتناقضه ما شاء اللَّه أن يفهمني؛ فأناقشه في لفظه، وأظهر سوء نقله وحفظه؛ فتارة أسأله، وأخرى أجاوبه. فأحكي مذاهبهم كما دونوها في كتبهم، وعلى ما تلقوها عن أساقفتهم.

والكتاب من صدر وأربعة أبواب. يتعرض فيه الصدر لخطة كتاب النصراني، والباب الأول في بيان مذاهبهم في الأقانيم وإبطال قولهم فيها، والباب الثاني فخصه القرطبي لعقيدة الحلول والاتحاد وإبطالها، وأما الباب الثالث فموضوعه النبوات، والباب الرابع عنون له بـ (بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم).

والقرطبي في كتابه يظهر معرفة جيدة في الكتب النصرانية المقدسة عند النصارى

وتاريخهم وكتب كبرائهم التي استخدمها في نقد استدلالات النصارى، ويُظهر الكتاب معرفة أكبر وتمكنًا في أساليب الجدل[١].

ب – **أبو البقاء الجعفري**: كان رئيسًا عارفًا بالأدب. ولي قضاء قوص مدة، وكانت وفاته سنة ثمانٍ وستين وستمائة للهجرة.

له كتابان في الرد على النصارى: **أولهما**: « تخجيل من حرَّف الإنجيل »، أما كتابه الثاني هو « الرد على النصارى ». **وله كتاب ثالث** - وهو تلخيص لكتابه الأول - هو « العشر المسائل »

وسبب تأليف الكتاب أن المؤلف وقف على مسائل ذكر أن الفرنج بعثوا يمتحنون بها أهل الإسلام، فنظرت بها فإذا هي خالية من الفوائد الدينية، غافلة عن المنافع الدنيوية، أقرب الأشياء شبهًا بخرافات النسوان وترهات الولدان.

وكانت المسائل التي طرحها عليهم سبع مسائل كونت أبواب الكتاب السبعة؛ حيث تناول في المسألة الأولى زعم النصارى أن المسيح ابن اللَّه، وفي المسألة الثانية ناقش مسألة الاتحاد، وفي المسألة الثالثة إبطال دعوة القتل والصلب، وأما المسألة الرابعة فجعلها لإبطال دعوى الثالوث، وفي المسألة الخامسة تحدث عن تناقض الأناجيل، وفي المسألة السادسة تحدث عن إثبات نبوة المسيح، وجعل المسألة السابعة لإثبات نبوة النبي ﷺ وقد أظهر معرفة رفيعة بالنصوص الكتابية إلى جانب تسلحه بالدليل العقلي؛ فكان يلجم خصمه بالحجة السهلة التي لا تدفع[٢].

جـ – **أحمد بن إدريس القرافي**: فقيه أصولي عاش في القرن السابع.. وله كتاب « الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة »، كما له كتاب آخر واسمه « أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ».

وهو الذي أنشأ الأسئلة ورد عليها وكان هذا في الباب الأول، بينما أنشأ في الباب الثاني خمسة عشر سؤالًا آخر تتعلق بالصلب وألوهية المسيح وتحريف التوراة والرد على القول بأن الإسلام قام بالسيف والغلبة، وضمن الباب الثالث مائة سؤال وسبعة شملت كثيرًا من أغراض الجدل النصرانى، وختم كتابه بالباب الرابع، ذكر المؤلف فيه إحدى وخمسين بشارة بالنبي ﷺ وردت في الكتب المختلفة عند أهل الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نصوص إنجيلية

---

(١) جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى، للدكتور محمد منقذ السقار، باختصار (ص ٤٨ – ٥١).

(٢) المصدر نفسه، باختصار (ص ٥٤، ٥٥).

عبرية أوردها المؤلف وفسرها بالعربية، كما أن في الكتاب ما يظهر اطلاع المؤلف على كتبهم.

د - **الخطيب السكندري جعفر بن عبد الوهاب**: وله كتاب: « أدلة الوحدانية في الرد على الملة النصرانية »، وسبب تأليفه أنه أراد أن يهدي السلطان هدية؛ فلم يجد أفضل من هذا الكتاب في الذب عن حوزة الدين.. وفي سائر رده اعتمد على النصوص الكتابية في إبطال المعاني التي اعتقدها النصارى مع إفادته من الدليل العقلي في إبطال عقيدة الفداء والخلاص.

هـ - **محمد بن سعيد البوصيري**: صاحب البردة الذي ألف منظومة من مائتين وخمسة وتسعين بيتًا في الرد على اليهود والنصارى، وشرحها تفصيلًا بعد ذلك. وكانت وفاته في سنة ست وتسعين وستمائة للهجرة.

ونلاحظ من خلال **أعلام هذا القرن** اعتماد العلماء المسلمين على الحوار المباشر وغير المباشر، وتفننهم في تنويع طرائقه وأساليبه؛ فإن لم يجدوا من يحاورونه حاوروا أنفسهم وطرحوا الأسئلة والشبهات وأجابوا عليها. وبعضهم وجد أن أنفس الهدايا التي تقدم للسلاطين هي الكتب التي تذب عن حوزة الدين؛ فكان الكتاب الذي أهداه له. وشاعرنا البوصيري ينظم قصيدته قرابة ثلاثمائة بيت ثم يعود ليشرحها تفصيلًا ويفنِّد كل ما فيها في عقائد النصارى من أباطيل.

لقد كان الحوار الفكري يجري بدمائهم. ولم يكن يفكر أحد بالرد على النصارى بالقمع والمنع وإلغاء الآخر؛ إنما يخترع الآخر اختراعًا أحيانًا ليرد عليه، ولم يكن هناك من حرج لدى الحكام والسلاطين المسلمين في طرح هذه الأفكار كاملة والرد عليها من خلال المناظرات المقامة أو الكتب المؤلفة أو الردود المتبادلة.

ونلاحظ كذلك أن الحوار لم يكن من الضرورة دائمًا أن ينتهي بإسلام من تحاوره أو تناظره؛ فقد لا يقتنع بحجتك، لكن لا بد من طرح هذه الأفكار للأمة كلها من مسلمين ونصارى يعرفون من خلالها قرع الحجة بالحجة ويعرفون المتعنِّت من المحق، وبانتشار هذه الأفكار ينتشر الدين انطلاقًا من المبدأ الإسلامي العظيم: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

أعلام القرن الثامن:

أ - **علي بن محمد الباجي**: وكانت وفاته سنة أربع عشرة وسبعمائة للهجرة، وله في نقد النصارى كتاب « الرد على التوراة » وجاء نقده على محاور عدة؛ منها ما تناقض فيه النص التوراتي مع نفسه أو غيره من النصوص، وما خالف فيه النص التوراتي الواقع، وما خالف فيه

مقتضيات العقول السليمة، وما خالف النص من معتقدات النصارى وشرائعهم.

ب - **نجم الدين الطوفي**: وكان شيعيًّا منحرفًا في الاعتقاد بأهل السنة حتى إنه قال عن نفسه: أشعري حنبلي رافضي هذه إحدى العبر وله في الرد على النصارى كتابان: **أولهما**: « التعليق على الإنجيل »، **والثاني**: « الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية ». وذكر ابن رجب الحنبلي في ترجمته للطوفي أن له كتابًا ثالثًا هو: « تعاليق في الرد على جماعة النصارى ». والمؤلف في كتبه يظهر معرفة فريدة بكتب القوم، وتمكنه من أساليب الجدل والمحاجة وطرق الاستدلال التي يحج بها الخصم.

جـ - **ابن تيمية**: قال عنه ابن كثير: الإمام العالم العلم العلامة الفقيه شيخ الإسلام.. ما قطع في مجلس، ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه ورآه عارفًا متقنًا به. وكانت وفاته سنة سبعمائة وثمان وعشرين للهجرة.

والحقيقة أننا لو أطلقنا عليه أنه أبو الحوار لما كنا مبالغين في ذلك؛ فقد خاض الحوار مع كافة أصحاب المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية. وحين بلغ ابن تيمية ذلك الشأوَ العاليَ من المعرفة والفقه والعلم - أصبح مقصد كبار أصحاب المذاهب والعقائد يتسابقون للحوار معه. وقد ألف كتاب « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » ردًّا على كتاب ورد إليه من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى يقول عنه: هذا الكتاب هو الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم لراهب صيدا الأسقف (بولس) الراهب. وقد أرسله من قبرص لبعض أصدقائه.

وكتاب النصراني يتكون من ستة فصول:

الأول: تحدث فيه عن خصوصية نبينا للعرب واستدلاله بالقرآن على ذلك.

الثاني: القرآن أثنى على دين النصارى بما استوجب أن يثبتوا عليه.

الثالث: أن دينهم شهدت له النبوات ولم يعارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه.

الرابع: تقرير التثليث بالمعقول والمنقول.

الخامس: أن النصارى موحدون وأن الأقانيم المتعددة هي من جنس ما عند المسلمين من ألفاظ يظهر فيها التشبيه والتجسيم.

السادس: أن المسيح جاء بعد موسى بغاية الكمال؛ فلا حاجة بعده لشرع جديد. وقد قصد ابن تيمية أن يرد على مقولات النصراني كلها...

ويعتبر ما كتبه ابن تيمية في هذا الكتاب من أثمن ما كتب في القرون السابقة؛ إذ أبان فيه شيخ الإسلام عن معرفة جيدة بالكتب السابقة... كما أظهر ابن تيمية قدرًا بارعًا في المحاجة الفعلية السلسة والتي توصل إلى إبطال حجة الخصم بأسرع السبل وأنجعها[١].

د - **ابن قيم الجوزية:** وقد سار ابن القيم على نسق شيخه ابن تيمية وله كتاب « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى »، كما تعرض للنصارى مطولًا في كتابه إغاثة « اللهفان في مصائد الشيطان ».

* **لماذا الحوار؟** ويتصدى ابن القيم - رحمه اللَّه - للجواب على هذا السؤال من خلال عرضه لسبب تأليف كتابه فنستمع إليه يقول:

كان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين؛ فلم يصادف ما يشفيه ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه يداويه؛ فسطا عليه ضربًا وقال: هذا هو الجواب.

فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب.

فتفرقا، وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب؛ فشمر المجيب (أي ابن القيم) ساعد العزم ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدل، وهذا فرار من الزحف؛ فكان هذا الكتاب.

وما أجمل تعبيره في هذا الصدد أن الفرار من الجدل هو فرار من الزحف؛ فالمعركة الحقيقية بين الإسلام وخصومه هي معركة فكرية، وحين يزحف الكفار بكفرهم لاغتيال الإسلام وقتله؛ فمهمة علماء الإسلام وجهابذته أن يتصدوا لهذا الزحف ويوقفوا هذا الهجوم لأنه الأخطر. وكما وصفهم اللَّه تعالى ووصف طبيعة المعركة بين الفريقين وحقيقتها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

لقد دلل ابن القيم من خلال اثني عشر وجهًا عقليًا على أن رسول اللَّه ﷺ مذكور في كتبهم، وساق تسعة وثلاثين نصًّا من سائر أسفارهم تتحدث عن النبي ﷺ؛ بعضها تسميه، وبعضها تصفه.. ثم بدأ بنقد التوراة وذكر ما فيها من التحريف، وبعد أن رد على النصراني في نقده للمسلمين والصحابة شرع يعدد لهم مخازيهم ومخازي أسلافهم الذين عبدوا العجل وقتلوا الأنبياء وقالوا في اللَّه ما يستعظمه اللسان.. كما تحدث عن خلاف الفرق النصرانية

---

(١) جهود علماء المسلمين في الرد على النصارى.. للدكتور محمد منقذ السقار (٦٩ - ٧١) باختصار.

في طبيعة المسيح. واتبع ذلك في الحديث عن وجوب الإيمان بمحمد ﷺ لما جاء به من معجزات.

أما في كتابه « إغاثة اللهفان » فقد عرض للمجامع العشرة التي ذكرها في هداية الحيارى وما حصل فيها من افتراق وكفر.

وها هو يبدي رأيه في كتابه « زاد المعاد » بحوار أهل الكتاب قائلًا:

« ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحة من إسلام من يرجى إسلامه وإقامة الحجة عليهم. ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليولِّ ذلك إلى أهله وليخلِّ بين المطي وحاديها والقوس وباريها... والمقصود أن رسول اللَّه ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي، وكذلك أصحابه من بعده.. وبهذا قام الدين. وإنما جعل السيف ناصرًا للحجة، وأعدل السيوف سيفٌ ينصر حجج اللَّه وبيناتِه وهو سيف رسوله وأمته »[1].

* * *

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٣٩ - ٦٤٢) مقتطفات.



أفول الحوار
بأفول سلطان الإسلام

عندما حكم الإسلام (نموذج مصر):

ورث عمرو بن العاص عن حكم الروم في مصر تركة مثقلة بالاضطهاد الديني لليعاقبة الأقباط من قبل حكامهم الرومان الذين يخالفونهم في مذهبهم، وإن ما أصاب القبط من الوطء والعسف في محنة تطاولت مدتها نحو عشر سنين على يد الأسقف قيرس كان مخيفًا رهيبًا؛ فقد كان هذا الأسقف الملكاني لا يعرف الرحمة ولا تخطر على قلبه هوادة، وكان بطريق القبط بنيامين لا يزال على اختفائه طريدًا يضرب في أنحاء الصعيد ويهيم على وجهه فيه بعد أن خلَّف كرسي الأسقفية القبطية وراءه في الإسكندرية موصيًا شعبه بالصبر والجلد على صنوف العسف والاضطهاد، ورهبانه بالاعتصام في الصحراء وكهوف الجبال، أما قلبه فكان يتلظى بالرغبة في الانتقام من الروم الذين أذاقوه وشعبه صنوف العسف والتعصب المقيت.

ولقد دامت هذه الشدة العظمى التي ابتلي بها القبط طيلة السنوات العشر؛ بحيث أصبح كل أصل بعدها في الصلح والسلام بين القبط والروم محالًا لا سبيل إلى نشره، وحلمًا يبعد تحقيقه. أما عمرو فقد كان يعي هذه الحقيقة جيدًا، كان يعرف أنه لكي يحكم مصر حكمًا مستنيرًا يقبله المصريون جميعًا؛ فلا بد أن يقوم حكمه على منهج العدل وأن يضع مصلحة أهل مصر كافة نصب عينيه.. ولما لم يكن للحكام الجدد من المسلمين اهتمام بالمنازعات المذهبية وأحزاب المجامع الكنسية. رأى عمرو أن من حسن السياسة ألا يفرق بين الملكانية (مذهب الحكام الروم) واليعقوبية (مذهب أهل مصر)؛ فلم يتحيز لأحد من الطرفين، بل أقرَّ الحرية الدينية، ورفع الاضطهاد عن القبط، وأظلَّ الفريقين بعدله وحماهما بحسن تدبيره فعادت الحياة إلى المذهب اليعقوبي في هذا الجو الجديد؛ جو الحرية الدينية حتى صار المذهب السائد في مصر كلها.

ولما عرف رهبان القبط هذا الأمر من عمرو بن العاص وتيقنوه خرج عدد عظيم منهم من الأديرة التي كانوا قد اعتصموا فيها؛ خوفًا من الاضطهاد والتعسف، وساروا في نحو من

سبعين ألفًا - كما يروي المقريزي[١] - كل منهم يحمل في يده عصًا إلى عمرو ويعلنون له الطاعة؛ فأحسن لقاءهم ورحّب بهم.

وكان عمرو بن العاص من جهة أخرى حريصًا على أن يعود البطريق بنيامين إلى رياسته الدينية، لما يعلم من محبة القبط له وتعلقهم به؛ لذلك أرسل عمرو كتابًا إلى بنيامين يقول فيه: « أينما يكون بطريق القبط بنيامين، نعده بالحماية والأمان في عهد اللّه. فليأت البطريق إلى هنا في أمان واطمئنان لِيَلِيَ أمر ديانته، ويرعى أهل ملته »[٢]. أو كما جاء في عهد الأمان هذا في كتاب أبي صالح الأرمني: « فليأت الشيخ البطريق آمنًا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذًى ولا تُخفر لهم ذمة »[٣].

ولم يلبث عهد الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص أن بلغ البطريق بنيامين فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية دخول الظافرين، وفرح الناس برجوعه فرحًا شديدًا بعد غياب بلغت مدته ثلاثة عشر عامًا ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر للقبط على يد قيرس والثلاث الباقية في مدة حكم المسلمين[٤].

ولما استقر المقام بالشيخ البطريق بين أتباعه دعاه عمرو إليه وأمر بأن يقابل بما يليق من الترحاب والتكريم، وقد كان البطريق بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيماء الوقار والجلال. وتحدث بنيامين إلى عمرو وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانة؛ فكان لذلك أثرٌ عظيم في نفس عمرو حتى أنه قال لأصحابه:

إنني لم أر يومًا في بلد من البلدان التي فتحها اللّه علينا رجلًا مثل هذا بين رجال الدين.

وقد قيل: إن بنيامين قال عند ذلك خطبة جليلة، ولا شك أن عمرًا لم يفهم من ذلك حرفًا[٥]؛ ولكنه عندما عرف ما يقصده وفهم مراميه، أحسن تلقيها وقبولها وجعله أميرًا على قومه، لا يدافع فيهم أمره وجعل لهم ولاية أمر دينهم[٦].

وخرج البطريق الشيخ من حضرة الفاتح الإسلامي ممتلئ النفس غبطةً وابتهاجًا، وعاد

---

(١) المقريزي، الخطط (١/ ١٧١).

(٢) راجع ساويروس (ص ١٠٦) وفتح العرب لمصر للدكتور بطلر (ص٣٢٣).

(٣) أبو صالح الأرمني، كتاب الجناح (ص٢٣١).

(٤) يذكر المقريزي (٣/ ٢٥١) أن هذه الثلاث عشرة سنة التي غاب فيها بنيامين عن كرسي بطريركيته. ثلاث منها في ملك فارس لمصر، وعشر سنين في ظل الروم.

(٥) هذا من الغمز؛ فالمترجمون يقومون بنقل معانيها إليه.

(٦) د. بطلر، فتح العرب لمصر (ص ٣٢٤).

إلى الإسكندرية وهو يلهج بحمده والثناء عليه؛ فكان لعودته إلى كرسي مرقس الرسول رنة طرب في قلوب أهل مصر جميعًا؛ فقد عاد لهم الراعي القديم ونالوا على يديه تاج الاعتراف(١).

وأخذ بنيامين يقول لأتباعه: عدت إلى بلدي الإسكندرية؛ فوجدت بها أمنًا من الخوف واطمئنانًا بعد البلاء. وقد صرف اللّٰه عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم(٢).

ولم تكن الأيام لتزيده إلا ثناءً وحمدًا فقد اجتمع القبط من حوله يقيمون شعائرهم الدينية في حرية دون خوف أو وجل، فأصلح كنائسهم وذهب إلى أديرتهم المتناثرة في أعماق الصحراء؛ فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخل.

وقد بلغ من ابتهاج القبط بعودة الحرية الدينية إليهم مبلغًا يعبر عنه ساويروس بقوله بأنهم فرحوا كما تفرح الأسخال وصغار الماعز إذا حُلَّتْ قيودها، وأطلقت لترشف من لبان أمهاتها(٣).

وكان من أثر هذه الحرية الدينية التي أطلق عمرو بن العاص عقالها أن أقبل كثير من عقلاء الروم والمصريين والأقباط على النظر في المذاهب المختلفة، ثم انتهى أكثر هؤلاء إلى قبول الإسلام والدخول فيه؛ فقد رأوا في تنازع المذاهب المسيحية واضطهاد بعضهم البعض ما زهَّدهم فيها وجعلهم يلتمسون من طريق الحرية العقلية سبيلًا إلى عقيدة يؤمنون بها.

وقد تداول بعض المؤرخين والكتاب من المسيحيين في مؤلفاتهم أن المصريين الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام في ذلك العهد إنما اعتنقوه ليتساووا بالفاتحين المسلمين في الحقوق والواجبات؛ ولكن ذلك لا يصدق إلا على القلة منهم، أما كثرتهم فقد دانت بالإسلام عن بينة وإيمان. ولا عجب في ذلك؛ ففطرة المحافظة على العقيدة الدينية أقوى في النفس من أن يزلزلها مثل هذا الاعتبار... وصدق الدكتور بطلر في قوله: « وليس من العدل أن يقال: إن كل من أسلم من القبط إنما يقصد الدنيا وزينتها. وإذا كان منهم من أسلم طمعًا في أن يتساوى بالمسلمين الفاتحين حتى يكون له ما لهم وعليه ما عليهم وينجو من دفع الجزية؛ فإن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا مَن كانت عقيدتهم غير راسخة. أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان من عصيان لصاحبها؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في اللّٰه ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين

(١ - ٣) ساويروس، مقتطفات (١٠٧ - ١١١).

شيعها وأحزابها. ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجؤوا إلى الإسلام؛ فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته »[١].

وقد كتب أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بخمسة عشر عامًا يقول: إن العرب الذين وهبهم اللَّه السيادة في أيامنا أصبحوا سادة لنا، ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي قط؛ بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقسيسين، ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا[٢].

عندما حكم الصليبيون، الحروب الصليبية نموذجًا:

أي شيء يكتبه المسلم عن الحروب الصليبية يتهم فيه بالتعصب؛ ومن أجل ذلك حرصت على إثبات خلاصة للحروب الصليبية كتبها غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي العظيم في كتابه « حضارة العرب »، أثبتُّها كما هي، وهي غنية عن أي تعليق، وقد ساقها من مؤرخي الغرب لا من مؤرخي الشرق. وهي كافية لإيضاح عنوان الفصل: غياب الحوار مع أفول سلطان الإسلام:

خلاصة الحروب الصليبية:

نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال الناس حميةً، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله، فضلًا عما يناله في ملكوت السموات؛ فغدا العبيد يطمعون في فك رقابهم، وغدا أبناء الأسر الذين حرموا الميراث بسبب نظام البكرية والسنيورات الذين كانت قِسْمَتُهم ضيزى يطمعون في الاغتناء، وعند الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار وجميع المحرومين طيب العيش وكان عددهم كبيرًا يعللون أنفسهم بأطيب الأماني.

حقًّا لقد أصاب القومَ نوبةٌ حادة من الجنون؛ فرغب السنيورات والعبيد والرهبان والنساء والعبيد والأولاد وجميع الناس في الزحف، وأخذ كل امرئ يبيع ما يملك ليتجهز. واستعد من الرجال (١٣٠,٠٠٠) مقاتل لغزو فلسطين حالًا، وكانت تلك النوبة تزيد حدة كل يوم، ولم يرغب الذين بكَّروا في انتظار جيش منظم. وما كاد ربيع (١٠٩٦م) كحل حتى توجهت عصابات كبيرة من كل صوب وحدب إلى نهر الدانوب.

وكان بطرس الناسك والفارس الفقير غونيه على رأس أهم العصابات الزاحفة إلى الشرق وأُكرمت هذه العصابات في البلدان الأوروبية التي كانت تمر بها في بدء الأمر؛ ولكنها

---

(١) د. بطلر، فتح العرب لمصر (٣٢٥).

(٢) النص كله منقول من كتاب عمرو بن العاص للأستاذ عبد الخالق سيد أبي رابية (٢٤٩ - ٢٥٥) مع بعض التصرف.

لم تكد تصل إلى بلغاريا حتى التقت بأناس ضعاف الإيمان أبوا أن يضيِّفوهم مجانًا، وساء هذا الرفضُ الصليبيين فلم يحجموا عن اغتصاب ما منعوه، وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهليها، ولم يصبر الأهلون على ذلك فأخذوا ينتقمون ويقتلون فريقًا كبيرًا منهم...

(.. بلغ عدد من سيق من الصليبيين إلى آسيا الصغرى على ذلك الوجه مائة ألف، واقترف هؤلاء من الجرائم نحو المسلمين والنصارى ما لا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية. وكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم إربًا إربًا وشيُّهم كما روت آن كومنين بنت قيصر الروم.

وكان من حقوق الترك أن يقابلوهم بالمثل؛ ولذلك صار الترك يتصيدونهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة مقيمين من عظامهم هرمًا عظيمًا.

ولم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلف من مئات الألوف أن أبيد، وإنما كانت تأتي من خلفه فيالقُ منظمة تامةُ العدد مؤلفةٌ من سبعمائة ألف مقاتل بقيادة أقوى السنيورات؛ أي كان يأتي من الفيالق ما لم يسبق للعرب أن جمعوا جيشًا لجبًا مثله... وحاصر الصليبيون مدينة إرنين الواقعة في آسيا الصغرى وهزموا جيشًا تركيًّا. وقطعوا رؤوس جرحى الترك وربطوها بسروج خيولهم وعادوا إلى معسكرهم ثم رموها إلى تلك المدينة المحاصرة.

وبقي على الصليبيين أن يقطعوا نحو مائتي فرسخًا ليصلوا إلى سوريا، وكان همهم مصروفًا إلى الاغتناء ولم يحسنوا سياسة الأهلين، وخربوا البلاد؛ فكشر لهم الجوع عن أنيابه.. وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكًا ذريعًا، وقنط بطرس الناسك من النصر وفر من المعسكر وأعيد إليه فاستقبله تانكريه (القائد) بضرب العصي.

ودبت الفوضى في مفاصل الجيش الصليبي، وشاع التجسس فيه، وأمر بوهيموند بتقطيع الجواسيس وطهيهم وإطعامهم للجنود الجائعين.. ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة؛ فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء، والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال؛ فقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدًى.

وترى في كل صفحة من الكتب التي ألَّفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين، ويكفي لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة مارات؛ للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية، وذلك بالإضافة إلى ما حدث حين الاستيلاء على القدس؛ قال المؤرخ الراهب التقي روبرت: وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك

كاللبؤات التي خُطفت صغارها. وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربًا إربًا، وكانوا لا يستبقون إنسانًا، وكانوا يشنقون أناسًا كثيرين بحبل واحد؛ فيا للعجب ويا للغرابة أن تذُبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تُقاوم. وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعًا ذهبية؛ فيا للشَّره وحب الذهب!! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث؛ فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل!! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبيرة واحد ليرضى بالنصرانية دينًا. ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم، وبسوق فتياتهم وكهولهم إلى إنطاكية ليباعوا فيها، وحدث قتل الترك ذلك في يوم الأحد الموافق (١٢ من ديسمبر) وإذ لم يكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم؛ قَتَل قومُنا ما بقي من أولئك في اليوم التالي...

وكان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجوا من أوروبا؛ فأخذت المجاعة والأوبئة والدعارة والوقائع والمنازعات تبيد هذا الجيش العظيم الذي كان يمكنه فتح العالم لو أُلِّف من أناس آخرين، ولم يبق منه عند بلوغه القدس سوى عشرين ألفًا.

وكانت القدسُ تابعة في ذلك الحين لسلطان مصر الذي استردها من الترك؛ فاستولى عليها الصليبيون في (١٥ من يوليو ١٠٩٩م). وقد جاء في الأقاصيص أن القديس جورج تراءى للصليبيين من جبل الزيتون، وأنه حرضهم على القتال؛ فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها، وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون.

قال كاهن مدينة لوبوي ريموند داجي: « حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها؛ فقد قطعت رؤوس بعضهم؛ فكان هذا أقل ما كان يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار. وحرق بعضهم في النار؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل. وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم. ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا... ».

وروى ذلك الكاهنُ الحليمُ خبرَ ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر؛ فعرض الوصف اللطيف الآتي: « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل

بجثث غريبة عنها؛ فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة ».

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك؛ فعقدوا مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفًا، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام. ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا.

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة؛ فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة، واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حُماة النصرانية - مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح التغاضي والتساهل - فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين، وشبههم بودان الذي كان رئيس أساقفة « دول » بالفروس التي تتمرغ في الأقذار.

... أجل لقد خسر النصارى مليون رجل، وخرب بعض أوروبا في سبيل فتح القدس. وكان النصارى يرجون أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب؛ فلم يلبث المسلمون أن استردوا القدس، وعادت القدس إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد.

.. وكان قد مضى على وجود الفرنج في فلسطين حينما توفي بودان في سنة (١١١٩م) عشرون سنة، ولم ينشأ عن حكم الفرنج لها سوى خرابها وإقفارها، وكان من نتائج هذا الحكم أن عرفت البلاد نظام الإقطاع كما في أوروبا.

... وبينما كان النصارى يخربون القدس كان المسلمون يستردون بالتدريج ما خسروه. وقد أورث تقدمهم في سوريا واستيلاؤهم على الرها (أورفة) هلعًا في قلوب النصارى بفلسطين فاستغاث النصارى بأوروبا.

ونُظمت حملة صليبية ثانية لإمداد أولئك. ونجح سان برنارد في إبقاء نار التعصب الديني؛ فقد توجه ملك فرنسا لويس السابع على رأس الحملة الصليبية الجديدة إلى فلسطين، وتبعه الملك الألماني كونراد الثالث؛ غير أن جيش لويس السابع الذي كان عدده مائة ألف مقاتل لم يكد يصل إلى آسية الصغرى حتى أبيد عن بكرة أبيه؛ ففرَّ لويس السابع بطريق البحر ليذهب إلى إنطاكية ويتوجه منها إلى القدس كحاجٍّ عادي، وما كان جيش كونراد الثالث أوفر حظًّا من جيش لويس السابع.

ولم يبد سلوك الصليبيين في هذه الحملة أحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الأولى. قال الكاهن أنكيتل في تاريخه: « قلما كان يوجد صليبي يسير بوحي ديني؛ فلم يترك أولئك

الصليبيون جرائم وحشية وضربًا من قطع الطرق وفضائح مزرية إلا اقترفوها ». وعزا سان برنارد ذلك الحبوط إلى ما ارتكبه هؤلاء الصليبيون من المظالم.

وتم طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير؛ وذلك أن صلاح الدين دخل سوريا بعد أن أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق في قبضته وأنه غلب ملك القدس الأسيف (غي دولوزينيان) وأسره، واسترد القدس في سنة (١١٨٧م). ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل فعلة الصليبيين الأوائل من ضروب التوحش، فيبيد النصارى عن بكرة أبيهم؛ فقد اكتفى بفرض جزية خفيفة عليهم مانعًا سلب شيء منهم. قضي على مملكة القدس اللاتينية بعد أن عاشت (٨٨) سنة، ومرت سبعة قرون على تلك الحوادث من غير أن تخرج هذه المدينة المقدسة من أيدي أتباع محمد ﷺ على الرغم من جميع الجهود التي قام بها العالم النصراني منذ ذلك الحين. ولا نرى فائدة كبيرة من ذكر الجهود غير المجدية التي قامت بها أوروبا لاسترداد القدس - أي في تاريخ الحملات الصليبية الست الأخيرة - إنما نكتفي بذكرها الخاطف.

ورئيس أساقفة مدينة صور في فينيقية غليوم هو الذي حرَّض أوروبا على تجريد **الحملة الصليبية الثالثة** (١١٨٩ - ١١٩٢م) وقد قاد هذه الحملة ملك فرنسا: فيليب أوغست وملك إنكلترا: قلب الأسد ريكاردس وقيصر ألمانيا: فريدريك بارباروس، أي أقوى ملوك أوروبا. فأما بارباروس فقد مات في آسية الصغرى حين كان يغتسل في نهر البتردان (قره صو) ولم يصل سوى بقايا جيشه إلى سوريا. وأما فيليب أوغست فقد تعب سريعًا، وأبحر إلى صور بعد إقامة قصيرة بفلسطين تاركًا خلفه جيشًا مؤلفًا من عشرة آلاف مقاتل؛ ولذا ظلت القيادة العليا في يد قلب الأسد ريكاردس الذي اقترف جرائم وحشية كالتي اقترفها رجال الحملة الصليبية الأولى. وكان أول ما بدأ به هو قتله أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم سلَّموا أنفسهم إليه بعدما قطع لهم عهدًا بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب.

وليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس ولم يمسهم بأذى، والذي أمد فيليب أوغست وقلب الأسد ريكاردس بالأزواد والمرطبات في أثناء مرضهما؛ فقد أبصر الهوة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش ونزواته، وأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضارية. وأكره ريكاردس من فوره على مغادرة فلسطين قبل

أن يرى القدس. ولم يكن للحملة الصليبية الثالثة - التي قادها ملوك أوروبا الأقوياء الثلاثة المتحالفون - نتيجةٌ غير بقاء النصارى مالكين لبعض مدن الساحل.

ثم نظِّمت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤م) بقيادة أمير الفلاندر بودوان وعزم الصليبيون في هذه المرة على بلوغ فلسطين بحرًا لا برًّا كما في الماضي، وأبحروا من ميناء زارة متوجهين إلى عاصمة الدولة النصرانية القسطنطينية، ولما بلغوها رأى بعضهم أن سوريا بعيدة وأن الصليبيين السابقين نهكوها غير تاركين فيها نهابًا، وأن كل الصيد في جوف القسطنطينية، فانضم بقية الصليبيين إلى هذا الرأي الصائب وأخذوا ينهبون ما فيها وإن دخلوها حلفاء. وكانت القسطنطينية تشتمل في ذلك الحين على ما تركه الأغارقة والرومان من كنوز الفن والأدب. ولم ير صليبيو أوائل القرن الثالث عشر في هذه الكنوز شيئًا نافعًا يقدمونه إلى قبيلة من أصحاب الجلود الحمر (البوروج) فصاروا يحطمون كل ما لم يكن من الذهب والفضة أو يلقونه إلى البحر، وصاروا يكسرون التماثيل الرخامية التي صنعها ليزيب وفيدياس.. ويتلفون في يوم واحد تآليف ديموستين وديودرس ويوليب المهمة. ولم يفكر بودوان وأصحابه في الزحف على القدس فقد شبعوا من الغنائم. فنُصِّب بودوان قيصرًا وأجاز البابا إنيوسان الثالث ذلك مع بيانه أن الصليبيين اقترفوا أفظع الجرائم.

ولا احتياج إلى ذكر أن سلطة هذا القيصر الجديد كانت مؤقتة؛ فلم يكن الصليبيون من غير الهمج عاجزين عن إقامة دولة دائمة عن غير التخريب. ولم ينشأ عن إقامتهم القصيرة بالقسطنطينية غير إبادة كنوز العالم اللاتيني القديم. ولم تكن **الحملتان الصليبيتان الخامسة والسادسة** من الحملات المهمة، ولم تباليا بالجهاد في سبيل القدس؛ إنما ذهب أكثر رجالها إلى مصر طمعًا في الغنائم فاضطروا إلى التقهقر بعد أن أوغلوا قليلًا فيها وتوجه جيش صغير إلى القدس بقيادة فردريك الثاني الألماني الذي تعاهد هو والمسلمون فسمح له المسلمون بدخول القدس حليفًا؛ فعاد إلى أوروبا مكتفيًا بهذه المجاملة الحقيرة...

وظلت القدس وفلسطين تقريبًا في قبضة المسلمين على الرغم من الحملات الصليبية الخمس التي جردت بعد الحملة الصليبية الأولى، ثم عزم ملك فرنسا سان لويس على العود إلى الجهاد **فجرَّد حملة صليبية سابعة في سنة (١٢٤٨م)** وقد غادر إيغمورت على رأس خمسين ألف مقاتل متوجهًا إلى مصر، وقد احتل دمياط، وزحف إلى القاهرة حيث كسر جيشه قبل أن يبلغها ووقع أسيرًا وافتدى نفسه، وذهب إلى سوريا وأقام بها سنتين من غير أن يظفر بطائل ثم رجع إلى فرنسا قبل أن يرى القدس.

ولم تنثن عزيمة سان لويس مع هذا الانكسار؛ فقد جهز حملة صليبية جديدة بعد أكثر من عشرين سنة. وقد غادر إيغمورت في (٤ من يوليو سنة ١٢٧٠م) على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألفًا من المشاة، وستة آلاف من الفرسان، وقد توجه إلى تونس طمعًا في حمل غيرها على انتحال النصرانية؛ فأصابه الطاعون عندما كان محاصرًا لها، فمات في (٢٥ من أغسطس سنة ١٢٧٠م).

وكانت تلك الحملة الثامنة آخر(١) الحملات الصليبية؛ فيها ختمت تلك المغازي الكبيرة إلى الأبد وبقي الشرق خاضعًا لأتباع النبي العربي محمد ﷺ(٢).

حين أخذت التتار بغداد:

وإذا كان الغرب الصليبي قد فعل ما فعله بالمسلمين، ولم ير غير القتل والحرق سبيلًا إلى التفاهم؛ فلم يكن الشرق التتري أقل شرًّا منه. ولعله كان مع الحملة الصليبية الثامنة، وفي التاريخ نفسه كان سقوط عاصمة الخلافة بغداد في يد التتار وذلك في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وندع العلامة المؤرخ ابن كثير يحدثنا عن هذه الظلمات: فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة وانقضت دولة بني العباس منها... فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي... فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة، هوَّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفسًا، وقيل: بل خُنق، ويقال: قد أُغرق، والله أعلم...

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار فيدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء بالأزقة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة، وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب

---

(١) حتى جاء اللنبي القائد الإنجليزي واحتل القدس بعد سبعة قرون عام (١٩٢٠م) وقال: الآن انتهت الحروب الصليبية.

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون، مقتطفات (٣٢٢ - ٣٣٢). تحقيق. عادل زعيتر.

ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وقلة. وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان. فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف...

واختلف الناس في كمية مَن قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة؛ فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانية آلاف، وقيل: بلغت القتلى ألف ألف نفس، فإنا للّه وإنا إليه راجعون... وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا وأسر من دار الخلافة ما يقارب ألف بكر.. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة... وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمع مدة شهور في بغداد... ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرق كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام؛ فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون؛ فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضًا؛ فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى...

وكان رحيل السلطان المسلط هولاكو خان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة - (٦٥٦هـ) - إلى مقر ملكه، وفوَّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر؛ فوَّض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي؛ فلم يمهله اللّه ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة...

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد اللّه الذهبي وقطب الدين اليونيني أنه أصاب الناس في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن ذلك من فساد الهواء والجو؛ فَسَدَ من كثرة القتلى ببلاد العراق، وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام، فاللّه أعلم[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٢١٣ - ٢١٧) مقتطفات.

حين اقتلع الإسلام من الأندلس:

ونستدعي شاهدنا السابق المؤرخ العظيم غوستاف لوبون يحدثنا عن هذه المأساة فهو شاهد منهم:

(... لم يبق للعرب في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوج ملك أرغونة فرديناند الكاثوليكي ملكةَ قشتالة إيزابلّا، وتمت بذلك وحدة تينك الدولتين - حاصر في سنة (١٤٩٢م) غرناطة التي كانت آخر معقل للإسلام في إسبانيا، وفتحها ثم ضم إليها مملكة نبرَّة فأصبحت جميع إسبانيا خلا البرتغال تابعة لعرش واحد.

ودامت دولة العرب في إسبانيا نحو ثمانية قرون، أي ما يقرب من مدة سلطان الروم. وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدَّت إليه الغارات الأجنبية؛ فالعرب - وإن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول - لم يبدُ نبوغهم السياسي غير ضعيف. وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة. ولكن سنة (١٤٩٩م) لم تكد تحلُّ حتى حلَّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونًا، والذي لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانيا. وكان تعميد[1] العرب كرهًا فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى. ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج؛ لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة.

ونصح كردينال طليطلة التقي الذي كان رئيسًا لمحاكم التفتيش - بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالًا ونساءً وشيوخًا وولدانًا، ولم ير الراهب الدومنيكي (بليدا) - الكفاية في ذلك؛ فأشار بضرب رقاب من تنصَّر من العرب ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أنه من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب. فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى. ويُدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم تر الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومنيكي الذي أيَّده الإكليروس في رأيه؛ لما قد يبديه الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت في سنة (١٦١٠م) بإجلاء العرب عن إسبانيا فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق وأبدى ذلك الراهب البارع - بليدا - ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من (١٤٠,٠٠٠) مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقيا.

---

(١) التعميد: هو تحويل المسلم إلى نصراني عن طريق غمسه بماء المعمدانية.

وخسرت إسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدِّر كثير من العلماء - ومنهم سيدبو - عدد الذين خسرتهم إسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين، ولا تعد ملحمة سان بارتلمي إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له.

ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقتُرفت ضد المسلمين، ومما يرثى له أن حُرمت إسبانيا عمدًا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كل نصراني ترى فيه شيئًا من النباهة والفضل؛ فكان من نتائج هذه المظالم[1] المزدوجة أن هبطت إسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد وأن انهار معها كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان.

وها هي ذي عدة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع إسبانيا أن تنهض من هبوطها مع ما بذل من الجهود. وقد صار عدد سكان طليطلة في الوقت الحاضر (١٧٠٠٠) بعد أن كان (٢٠٠,٠٠٠) أيام الحكم العربي، وقد أصبح عدد سكان قرطبة في الوقت الحاضر (٤٢,٠٠٠) بعد أن كان مليونًا أيام الحكم العربي، ولم يبق من مدن ولاية شلمنقة التي كان عددها أيام الحكم العربي (١٢٥) مدينة سوى (١٣) مدينة، وسيرى القارئ في الفصل الذي خصصناه للبحث في وارثي العرب مقدار الانحطاط الذي أسفر عن إبادة العرب. وإذا كنت قد أشرت إلى هذا هنا فلأن شأن العرب لم يبدُ في قطر ملكوه كما بدا في إسبانيا التي لم تكن ذات حضارة تذكر قبل الفتح العربي فصارت ذات حضارة [2] في زمن العرب، ثم هبطت إلى الدرك الأسفل بعد جلائهم. وهذا مثال بارز على ما يمكن أن يتفق لعرقٍ من التأثير.

المسلمون ينقلون الحضارة إلى أوروبا:

تحت عنوان: « تأثير العرب في الغرب »، كتب لوبون هذا الفصل ونحن مضطرون له لردم الهوة في التاريخ التي ظهرت فيها وحشية الشرق والغرب في حربه الضارية على الإسلام وكيف كان الإسلام غلابًا فنقل مفاهيمه وعلومه وأخلاقه إلى هذه الأمم؛ حيث شهدنا في العصور الحديثة عند الغرب آثار تلك الحضارة العلمية والأدبية.

---

(١) عام (١٨٨٤م).

(٢) حضارة العرب (٢٧٠ - ٢٧٢) مقتطفات.

يقول شاهدنا العظيم غوستاف لوبون:

(... لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور أوروبا حينما أدخلوا الحضارة إليها).

إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد - حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًّا - رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا الرهبان المساكين الجاهلين، الذين يقضون أوقاتهم في أديرتهم ليكشفوا كتب الأقدمين بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

ودامت همجية أوروبا البالغة زمنًا طويلًا من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد؛ وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم، ولم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يردَّدُ على العموم؛ وإنما دخلت العلوم أوروبا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا. وذلك أن مكتبًا للمترجمين بدأ منذ سنة (١١٣٠م) ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله كللت بالنجاح ما بدا للغرب بها عالم جديد، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية؛ بل نقلت إليها أيضًا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس؛ فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب. كما روى الدكتور لوكلير في كتابه « تاريخ الطب عند العرب ».

والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبلونيوس في المخروطات، وشروح جالينوس في الأمراض السارية، ورسالة أرسطو في الحجارة، وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم؛ فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافًا أبديًّا.

قال مسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا في الآداب عدة قرون.

وعرب الأندلس وحدهم هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد - وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب - العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتى في القسطنطينية. ولم يكن في العالم في ذلك الزمان بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعًا. وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي هي موضوع جدال من غير أن يثبت عدم صحتها: جربرت الذي صار بابا في سنة (٩٩٩م) باسم سلفستر الثاني الذي أراد أن ينشر في أوروبا ما تعلمه؛ فعدَّ الناس عمله من الخوارق، واتهموه بأنه باع روحه للشيطان.

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب، وعلى كتب العرب وحدها عول (روجر بيكون) و(ليونارد البيزي) و(أرنولد الفلينوفي) و(ريمون لول) و(سان توما) و(ألبرت الكبير) و(الأذفونس العاشر) القشتالي... إلخ.

قال مسيو رينان: إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء، وإن سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد[1].

التسامح الديني:

كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم. ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين حين دخلوا سوريا مؤخرًا، ولكن العرب اجتنبوا ذلك؛ فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة. إن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرًا؛ فعاملوا - كما رأينا - أهل سوريا ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية صغيرة زهيدة في الغالب - إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا - في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم.

---

(١) حضارة العرب: لغوستاف لوبون (ص٥٦٦ - ٥٦٨).

وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد أن توارى سلطان العرب عن مسرح العالم. ونعد من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والأغارقة والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها[١].

ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار حضارة العرب، وقد أوردنا على هذا غير دليل ولا نسهب فيه؛ وإنما نشير إلى ما ترجمه مسيو دوزي في قصة أحد علماء الكلام العرب الذي كان يحضر ببغداد دروسًا كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى... إلخ. فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أي كتاب ديني كان.

فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوروبا بعدما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة وما منيت به من المذابح الدامية.

ولم يبد عدم التسامح بين المسلمين إلا بعد أن اضمحل سلطان العرب وصارت سلطتهم في قبضة شعوب ثقيلة شرسة غير مهذبة[٢]؛ من ترك وبربر وغيرهم كما أشار إلى ذلك بحق مسيو رينان. وليست المذاهب مصدر عدم التسامح في الغالب بل الأشخاص، وكان للعرق العربي من التهذيب والسماحة ما لا يحيد معه عن هذا التسامح الذي أقام الدليل عليه في كل مكان منذ بدء فتوحه[٣].

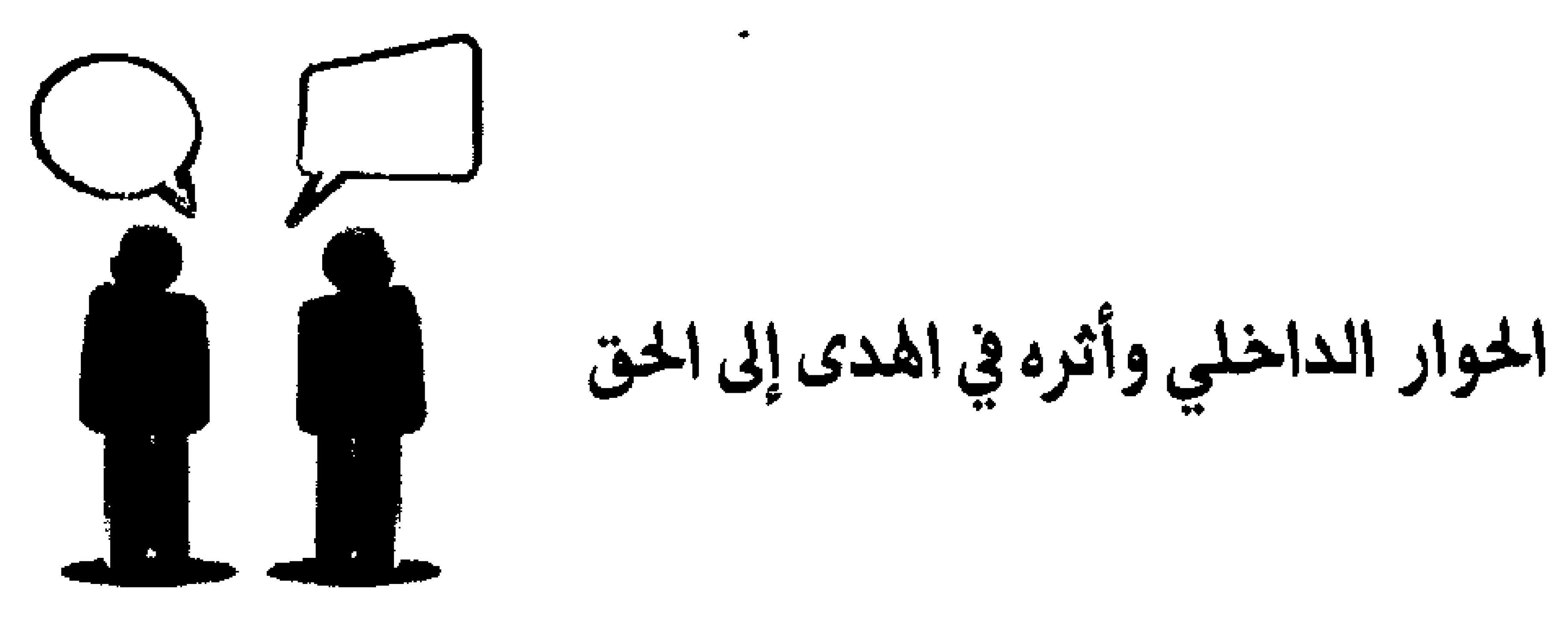
* * *

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص٦٠٥).

(٢) لا نقر المؤلف على هذا الوصف للأمم التي شاركت في الحكم الإسلامي من ترك وبربر وغيرهم. إنما كان جهلهم باللغة العربية وفقه أسرار الدين، وتعاملهم العاطفي معه هو الذي أدى إلى عدم بروز ذلك التسامح.

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص٥٧٠).



الحوار الداخلي وأثره في الهدى إلى الحق

شخصيات نصرانية أسلمت:

وأهمية إسلامها أنها كانت في أعلى المواقع الدينية، ومن خلال حوارها مع عقلها اعتنقت الإسلام. نذكر أشهرهم في ذلك:

أ - عبد اللَّه الترجمان:

ولد ببلدة مورقة سنة (٧٥٦هـ) لأنه ذكر أن عمره خمسة وثلاثون عامًا لما مثل بين يدي السلطان الحفصي لإعلان إسلامه، لَازَمَ أعلم أهل زمانه بالنصرانية وتربى على يديه.

وتحدث عن سبب إسلامه المباشر وهو مصارحة القسيس الذي يقوم على خدمته بأن (البارقليط) المذكور في كتب النصارى هو محمد - عليه الصلاة والسلام - يقول: فاعلم يا ولدي أن البارقليط هو اسم من أسماء نبيهم محمد ﷺ، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال...

قلت له: يا سيدي، وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟

فقال لي: يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين اللَّه.. ولكن بدلوا وكفروا.

فقلت له: يا سيدي، وكيف الخلاص من هذا الأمر؟

فقال: يا ولدي بالدخول في دين الإسلام.

قلت له: وهل ينجو الداخل فيه؟

قال لي: نعم ينجو في الدنيا والآخرة.

فمضى وأعلن إسلامه على يدي السلطان الحفصي. وأسند إليه قيادة البحر بالديوان لغرض حفظ اللسان العربي؛ ومن ثم قيامه بالترجمة وقيامه على خزانة السلطان أبي العباس حتى وفاته. وألف كتاب تحفة الأريب بعد مضي (٣٢) سنة على إسلامه وهو في الرد على النصارى وإثبات نبوة الرسول ﷺ بنص التوراة والإنجيل.

ب – عبد الأحد داود:

واسمه دافيد بنجامين كلداني، كان قسيسًا للروم من طائفة الكلدان. وبعد إسلامه تسمى بعبد الأحد داود، ولد عام (١٨٦٧م) وفي عام (١٨٩٥م) تم ترسيمه كاهنًا، وفي عام (١٨٩٩م) أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس لتحمل المسؤولية حيث يوجد نزاعات بين بعض القياديين النصارى، وفي عام (١٩٠٠م) ألقى موعظة بليغة انتقد فيها تواني قومه عن واجبهم الدعوي، وانتقد الإرساليات الأمريكية والإنجليزية التي لم تقدم لأمته ما كان يأمل منها. بعد هذا عزل الكاهن نفسه عن الدنيا في صيف (١٩٠٠م) واستقر شهرًا في قريته يقضي وقته بين الصلاة والتضرع إلى اللَّه أن يخرجه من هذه الحيرة وأعاد قراءة كتب ديانته ثانية. وانتهت هذه الأزمة باستقالة بعث بها إلى رئيس الأساقفة، ثم عمل بعد ذلك مفتشًا في البريد. في عام (١٩٠٣م) زار بريطانيا وانضم إلى الجماعة الموحدة باللَّـه، وأرسلته عام (١٩٠٤م) إلى فارس كي يقوم بمهمة الوعظ والتعليم. وفي طريق عودته زار إستانبول والتقى بجمال الدين الأفغاني **واعتنق الإسلام**.

وألف كتابيه (الإنجيل والصليب) و (محمد في الكتاب المقدس)، والهدف من تأليفه للكتاب الأول أن يثبت بالأدلة القطعية أن القضية الأساسية في اعتقاد النصارى وهي الصلب ما هي إلا خرافة سطرها في ثنايا أناجيلهم من رمى إلى مسخ تعاليم المسيح، واستبدل بها تعاليم وثنية. أما الكتاب الثاني فالهدف منه رصد بشارات الأنبياء السابقين بنبينا محمد ﷺ وهو دعوة موجهة للنصارى للبحث والاستقصاء حتى يصلوا إلى ما وصل إليه بواحدانية اللَّه والشهادة لنبيه بالرسالة.

جـ – محمد زكي الدين النجار:

ولد في أوائل القرن العشرين في بلدة طهطا من صعيد مصر، التحق بالكنيسة وتدرج في وظائفها حتى صار قسًّا. كان شغوفًا بقراءة الكتب السماوية، مكثرًا من تلاوة القرآن وتدبر آياته **فهداه اللَّه إلى الإسلام**، وأزعج إسلامُه الكنيسةَ فحاولت إغراءه بمختلف الوسائل. ورفض كل هذه العروض والتحق عام (١٩٤٩م) بمعهد طنطا الديني، ثم التحق بجماعة الإخوان فترة، وصل إلينا من مصنفاته كتاب (المنارات الساطعة في الظلمات الحالكة) وذكر أن الهدف من تأليف كتابه: « وأردت أن أدون ما وصلت إليه أبحاثي في هذه الكتب من الحقائق التي هدتني إلى الصراط المستقيم أرجو بها الرضوان من رب العالمين ».

د – إبراهيم خليل فيلبس:

وبعد إسلامه تسمى إبراهيم خليل أحمد. ولد في الإسكندرية في (٣ / ١ / ١٩١٩م)

لأبوين قبطيين. وفي عام (١٩٥٢م) تم الاحتفال بتنصيبه راعيًا وقسيسًا للكنيسة الإنجيلية بباقور من محافظة أسيوط، وقد زاول الأعمال التالية بالإضافة إلى عمله بالكنيسة:

١ - سكرتير عام للإرسالية الألمانية السويسرية عام (١٩٥٤م).

٢ - انتدب للعمل التنصيري في الجنوب.

٣ - رقي إلى قسيس منصر بالإرسالية الألمانية السويسرية.

٤ - زميل للمرسلين الأمريكيين.

٥ - أستاذ العقائد واللاهوت بكلية اللاهوت في أسيوط.

وقد روى سبب دخوله في الإسلام وكان ذلك خلال تحضيره لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت من جامعة برنستون وكان موضوع الرسالة يتضمن الهجوم على الإسلام وإثبات تناقض القرآن.

وشرع في المضي قدمًا فيها: « أردت الهجوم على الإسلام بمهاجمة القرآن الكريم ويشاء اللَّه أن يقهرني بالقرآن الكريم ليسمعني صوته بقوله: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] فكان لهذه الآية وقع في نفسي؛ إذ جعلتني أفكر تفكيرًا حرًّا نزيهًا... مما أيقظ ذهني وقلبي ووجهي إلى إرادته ومشيئته » ويقول: « لقد أراد اللَّه لي الخير فهداني إلى الإسلام، بينما أنا في جهالتي وحماقتي أردت للإسلام تقويضًا وللمسلمين أن يدخلوا في رحاب النصرانية ». وخلال دراسته للقرآن استوقفه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكان ذلك دافعًا له ومشجعًا على عمل دراسات مقارنة بدأها في صمت خلال خمس سنين حتى أتاه اليقين وأشرق له الحق عام (١٩٥٩م).

وقد مارس بعد إسلامه العديد من الأعمال في خدمة الإسلام؛ فكان خبيرًا في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ودرس مادة مقارنة الأديان في معهد تدريب الأئمة والدعاة التابع للأزهر، وشارك في المؤتمر الذي عقد في السودان بين مجموعة من القساوسة وعلماء المسلمين وانتهى بإسلام القساوسة[1]. وساهم في تأليف عدد من الكتب أهمها (محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن)، ومحاضرات في مقارنة الأديان، و (مواجهة الإسلام للتحديات) ومجموعة كتب عن إسرائيل، وقام بترجمة العديد من الكتب من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ومعظمها مناظرات بين الداعية أحمد ديدات وقساوسة النصارى.

---

(١) نتحدث عنه فيما بعد.

هـ - محمد مجدي مرجان:

ولد في الإسكندرية سنة (١٩٣٩م) في عائلة من أقاصي الصعيد أدخله أهله بدرجة شماس بالكنيسة وهو في الثامنة من عمره يقول: « كأن انخراطي بين رجال الدين المسيحي أتى بنتيجة عكسية خلاف ما توقعوه تمامًا. لقد اطلعت على أسرارهم وأذهلتني مخازيهم؛ فقد حولوا رسالة عيسى عليه السلام إلى وثنية مقيتة من عبادة للصور التي تملأ الكنائس إلى عبادة القسيس نفسه والانحناء على يديه لتقبيلها، وسر الاعتراف، وتمثيلية القربان المقدس، وأكل جسد المسيح وشرب دمه (بأكل القربان وشرب الخمر) من أجل غفران الخطايا والتجارة بالدين في أبشع صورها والتقاتل بعد ذلك بين القساوسة أنفسهم على حصيلة التبرعات والنذور، ناهيك عن العلاقات الشائنة بين القساوسة والراهبات، وغيرهن من النساء المترددات على الكنيسة لغفران الخطايا ونوال البركات »[1].

وسئل: ما الأمر الذي دعاكم إلى الدخول في الإسلام؟

فأجاب:

وحدانية اللَّه تعالى، وعدم تجزئة ذاته إلى أقانيم.. وعظمة الرسول ﷺ وتواضعه وحكمته، واحتواء القرآن الكريم والأحاديث الشريفة على كل ما يحتاج إليه الإنسان في آخرته ودنياه واتفاقها مع الفطرة السليمة، وتضمنها لأعظم المبادئ الإنسانية كالحرية والمساواة والإخاء والعدالة والمحبة والسلام، وغير ذلك من المبادئ التي ما زالت الإنسانية بحاجة إليها والتي تصل إليها أعظم الحضارات. فضلًا عن بشارات الأناجيل ذاتها بقدوم رسولنا الكريم[2].

وقد كتب ثلاثة كتب في مجال اختصاصه هي: (اللَّه واحد أم ثالوث) و (المسيح إنسان أم إله) و (اللَّه واحد والمسيح إنسان). هذا وقد ارتقى في السلم الوظيفي حتى غدا رئيس محكمة استئناف أسيوط.

و - رجاء جارودي:

اسمه قبل إسلامه روجيه جارودي وتسمى بعد إسلامه بـ (رجاء جارودي). ولد في مرسيليا عام (١٩١٣م) لأبوين ملحدين وبعد بلوغه العشرين من عمره قرر أن يعتنق النصرانية الكاثوليكية، ثم انضوى في صف الحزب الشيوعي الفرنسي وانتخب عام (١٩٣٧م) عضوًا في المكتب الفيدرالي. وفي عام (١٩٦٢م) حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون وصار عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي. واتسعت الخلافات

(١، ٢) قام بالمقابلة الدكتور محمد بن عبد اللَّـه السحيم وذكرها في كتابه: مسلمو أهل الكتاب (٣٢٥، ٣٢٦).

بينه وبين الحزب عام (١٩٦٨م) حيث أعفي من منصبه في اللجنة المركزية. وأسس بعد عام (١٩٧٠م) المعهد الدولي لحوار الحضارات، وشارك في ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، وحضر جلسات المؤتمر السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامي **وأعلن إسلامه في المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف** بتاريخ (٢/ ٧/ ١٩٨٢م) وتفاوت الناس في تلقي خبر إسلامه، لكنه عاد فاختل تفكيره ودعا عام (١٩٨٧م) إلى الإبراهيمية التي تضم الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام، وأسماه مركز ملتقى الحضارات في قرطبة. لكن أهم مؤلفاته هو (الإسلام دين المستقبل) وخلط فيه بين الفلسفة والتصوف المنحرف والأفكار الإسلامية. وله حوالي واحد وعشرون كتابًا تمثل كل منعطفاته الفكرية؛ منها ست كتب عن الإسلام، وأربعة كتب في القضية الفلسطينية. وظاهر غموض جارودي وتضارب طروحاته الفكرية. فهو معجب بالإسلام أيما إعجاب يشيد بحضارته في كتبه، لكنه يفتأ يتحفظ هنا ويحتج هناك ويؤول هنا ويثير هذه الشبهة ويحيي هذه البدعة؛ مما يوحي أنه لم يستوعب الإسلام استيعابًا حقيقيًّا، فوقع في هذا الخلط وطغت عليه أفكاره الفلسفية وولعه بحوار الحضارات والأديان والمذاهب والمبادئ.

ز – موريس بوكاي:

ولد في فرنسا في أوائل القرن العشرين الميلادي؛ لأنه ذكر أنه اطلع في عام (١٩٣٠م) على كتاب يتحدث عن التعاليم الدينية، وعاش فترة شبابه في المغرب إبان الاحتلال الفرنسي، وبعد عودته إلى فرنسا أكمل دراسته متخصصًا في مجال الطب البشري ولا يزال ممارسًا هذه المهنة.

وأهم أسباب إسلامه أنه اكتشف في كتب ملته بعض المشكلات المثيرة للارتياب والشك. واطلع على القرآن الكريم بترجمته الفرنسية فوجد فيه كمًّا هائلًا من الآيات المتعلقة بالخلق والفلك والإنسان والحيوان والنبات، وبدراستها دهش من دقة المعلومات والتفصيلات فيها والمتفقة مع ما درسه عنها في المجال العلمي. كما أن زيارته للسعودية ولقاءه للملك فيصل واستماعه لحديثه عن الإسلام كان له أثر في نفسه. ولما أراد اللَّه له الهداية أعلن إسلامه في الرياض عام (١٩٧٢م) وزار المدينة المنورة ومكة المكرمة مرة ثانية. وراح يتعلم اللغة العربية ليتمكن من الاطلاع على القرآن الكريم مباشرة ودون ترجمة.

ولا شك أن كتابه (القرآن الكريمْ والتوراة والإنجيل والعلم)[١] من أكبر ما يعبر عن قناعاته في أن القرآن الكريم هو الوحي الوحيد الصحيح الباقي على الأرض من حيث ثبوته وتواتر نقله وموافقته للعلم، بينما التوراة والإنجيل تحمل التناقضات وضعف الصحة ومخالفتها لحقائق العلم. وأثبت من خلال مقارنة القرآن الكريم بحقائق العلم أن من المستحيل أن يكون هذا كلام بشر، وأن التوراة والإنجيل الأصليين لا وجود لهما اليوم، كما أصدر كتابًا سماه: (ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة).

وعلينا ألا ننسى أن كثيرًا من الأخطاء عن الإسلام والإنسان راجعة لعدم تمكنه وفقهه لدين اللَّه.

ح - ليوبولد فايس:

وهو يهودي نمسوي الأصل وقد تسمى بعد إسلامه بـ (محمد أسد) ويتحدث عن نفسه وأول علاقته بالإسلام وكيف أسلم وما الذي دعاه إلى الإسلام في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) **حيث يذكر بداية صلته بالإسلام:**

(إلى أن كان يوم - وذلك في خريف (١٩٢٥م) - وأنا يومذاك في جبال الأفغان. فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله: ولكنك مسلم غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك.

لقد أثرت فيَّ هذه الكلمات حتى أني بقيت صامتًا، ولما عدت إلى أوروبا مرة ثانية عام (١٩٢٦م) وجدت أن النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا أن أعتنق الإسلام)[٢].

أما أسباب اعتناقه للإسلام فيقول عنها:

« ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها؛ فإن الإسلام - على ما يبدو لي - بناء تام الصياغة، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضًا ويشد بعضها بعضًا؛ فليس هناك نقص في سبكه. فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن. ولعل هذا الشعور من أن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي »[٣].

ثم يتحدث عن عظمة هذا الدين في قدرته على بعث الأمم من رقادها قائلًا: « هذه الدراسات والمقارنات خلَّفت فيَّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال -

---

(١) المرجع في هذه المعلومات هو كتاب « مسلمو أهل الكتاب » للدكتور محمد عبد اللّـه السحيم (ج١).
(٢) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد (ص١٤).
(٣) المصدر السابق (ص١٥).

بالرغم من جميع النكبات التي خلفها تأخر المسلمين - أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر، وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد »[١].

ويحدثنا عن عالمية هذا الدين وتضمنه أعظم المناهج في شتى مناحي الحياة فيقول: « ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري - في كل ما وصل إليه - مقصرًا كثيرًا عما تضمنه المنهج الإسلامي. فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه؛ ذلك لأن أسسه دينية خالصة، والاتجاه الديني غير شائع اليوم. ولكن إذا رأينا نظامًا بني على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجًا عمليًّا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان من كل شيء آخر، يمكن للعقل أن يأتي به عن طريق الإصلاح والاقتراح؛ أفلا يكون هذا نفسه حجةً بالغة في ميزان الاستشراف الديني؟ »[٢].

هذا وقد أثرى المكتبة الإسلامية بكتابين آخرين هما (الطريق إلى مكة) و (منهاج الإسلام في الحكم) عالج في أولهما أوضاع العالم الإسلامي ووسائل نهضته، وعالج في ثانيهما منهاج الإسلام في الحكم في أجواء الحرية والديمقراطية العالمية، وإن كان ينتهي إلى نتيجة أن النظام الأمريكي في الحكم هو الذي يمثل منهاج الإسلام في الحكم. ولعل بعض ما رُوي عنه من رأيه بالحجاب يجعله مثل إخوانه الذين سبقوه عندهم بعض الأخطاء في فهمهم لجزئيات الإسلام والخلل في فهمه، وليس هؤلاء جميعًا إلا ثمرة ذلك الحوار الداخلي بين الإنسان وذاته وفطرته التي قادتهم جميعًا إلى الإسلام.

ط - مراد هوفمان:

ولد عام (١٩٣١م) في ألمانيا، وقد درس الحقوق في ميونيخ ثم في مدرسة هارفرد للقانون حيث حاز على الدكتوراه منها. وكان دبلوماسيًّا ألمانيًّا عمل بـالسفارات الألمانية في بلاد عديدة مثل باريس وفيينا والجزائر وبون والرباط. **وكانت أول معرفته بالإسلام في الجزائر** يوم (٢٨ مايو ١٩٦٢م) حين رأى صلابة وصمود المجاهدين الجزائريين ولم يفهم من أين يأتيهم هذا الدعم الخفي حتى قرأ القرآن. وكان مدير مركز استعلامات حلف الأطلنطي حيث صرح أمام زملائه بأن الحل الوحيد للخروج من الهاوية التي تردى الغرب فيها هو الإسلام. وفي نقده لأسس مجتمع الخمر والنيكوتين ولحم الخنزير يذهب لأبعد من هذا منتقدًا جنون الاستهلاك، والتبذير، والإباحية غير الخلقية، والجنس الفاحش بلا أي وازع، والإجهاض، وتأليه الإحصائيات وبيانات الأفراد.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد (ص١٦). (٢) المصدر السابق (ص٣١١).

اعتنق الإسلام يوم (٢ سبتمبر ١٩٨٠م) وله خمسون عامًا.

من مؤلفاته: طريق فلسفي إلى الإسلام، دور الفلسفة الإسلامية، يوميات مسلم ألماني. وكان لكتابه الذي أصدره عام (١٩٩١م) (الإسلام كبديل) دويٌّ كبير في ألمانيا يتحدث عنه بقوله:

هذا الكتاب الذي ألفه أحد المسلمين الألمان في عشرين فصلًا ليس إلا محاولة لتناول الإسلام دينًا وحضارة.. إنه مرافعةٌ تدافع عن الإسلام وتزكيه.

... لكنه خالٍ من التبريرات والاعتذارات المعروفة في اللاهوت والتي تتغيا الدفاع عن الدين. كان الإسلام - إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية -: يستطيع أن يعد نفسه الطريق الثالثة المباينة لهما.. أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلًا لكلا النظامين؛ وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه وتذليل مشكلاتنا المستفحلة. خاصة بعد أن عاد العالم مصطرعًا كتلتين اثنتين لا يخفى على المتأمل البعيد الرؤية أن يرى الزحف الإسلامي في القرن الحادي والعشرين مسيطرًا، ممكِّنًا لانتشاره دينًا لأغلبية البشر. أما كون هذا الزعم الذي تؤكده مجريات الأمور حقيقة واقعة إن شاء اللَّه؛ فذلك ما يشير إليه عنوان الكتاب.

إن الإسلام لا يطرح نفسه بديلًا (خيارًا) للمجتمعات الغربية بعد الصناعية. إنه بالفعل هو البديل الوحيد.

[الرباط رمضان (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) د. مراد هوفمان]

ي - الشيخ إسماعيل:

كان واحدًا من الغربيين الذين يلمسون تهلهل النصرانية وتناقضاتها، بحث عن الحقيقة في الوثنية وفي ديانات هزيلة، وقدَّم له مسلمو تشاد نموذجًا لا يغري على الإسلام؛ نظرًا لانتشار الفساد والجهل والسحر والشعوذة بينهم فقادته تساؤلاته إلى خلافات مع البعثة التنصيرية في تشاد انتهت بفصله منها، لكنه بقي في تشاد رغم محاولات البعثة لترحيله.

حاول التعرف على الإسلام من مصادره لا من أتباعه؛ فقرأ كتيبًا صغيرًا عنه جاءه من نيجيريا فوجد أنه أمام دين مختلف، خبرته السابقة في التنصير **جعلته يدرك تميز الإسلام**.

في قلب النصرانية في إيطاليا - حيث روما الفاتيكان - نشأ نصرانيًّا خالصًا. تلقفته الكنائس ومدارس التنصير، ونذره أهله للدعوة التنصيرية؛ فعاش ثلاثين سنة تنسج الكنيسة في عقله تعاليمها كي تعده للقيام بالمهمة العظيمة عندها بالدعوة للتنصير. اختيرت له (تشاد) وهي بلد يتسابق فيه الجهل الذي لا يجعلهم يكتشفون خرافات النصرانية، والفقر الذي يدفعهم

للدخول فيها من أجل لقمة العيش. بدأ العمل مع فريق متكامل من الطبيب إلى مدربي التصنيع إلى المعلم، فريق مزود بمعلومات وافية عن طبيعة المنطقة جغرافيًا وتاريخيًا وعادات الشعوب وسلوكياتهم، وبكل حماس انطلق يدعو للنصرانية بين أوساط الوثنيين والمسلمين.

شعر نصارى تشاد والمنصِّرون بتغير (الشيخ إسماعيل) فبدؤوا في مضايقته، وأجمعوا أمرهم على حربه. أما هو فظلت الحقيقة تؤرقه، ويسعى نحوها ويبذل الجهد للتعرف على الإسلام. والمفاجأة الكبرى أن المسلمين في تشاد رفضوا التعاون معه، بل نصحوه بعدم الإسلام خوفًا على مكتسباتهم من الشعوذة. هذه الظروف لم تمنعه أن يبحث عن الحقيقة؛ لأنه رجل دين يعلم معنى البحث عن الحقيقة.

ولما اجتهد يسر اللَّه له سبل الهداية؛ إذ جاءه تاجر تشادي نصراني فقال له:

معي كتاب عن الإسلام باللغة الإيطالية ما رأيك أن تستعيره مني؟

فلما استعاره وجده تفسيرًا للقرآن الكريم باللغة الإيطالية؛ ففرح به كثيرًا وحبس نفسه في بيته زمنًا يقرأ تفسير القرآن بتمعن، ووجد في القرآن الكريم حلًّا لكل تساؤلاته، ووجد فك مشكلة التناقض في النصرانية؛ إنه القرآن الكريم، الفرق بين الحق والباطل. وبعدها أعلن إسلامه وهو يعلم أنه سيخسر كل شيء دنيوي، وسيجد المضايقات الكثيرة، وستشوه صورته .. ولكن كل ذلك يهون عندما وجد الحقيقة التي يبحث عنها. فرح نائب المحافظ المسلم فأعطاه مزيدًا من الكتب وذهب به إلى المشيخة فأسلم. وعندما يسلم المنصِّر عادة فإنه يبدأ بالدعوة إلى اللَّه مباشرة، وهكذا فعل الشيخ إسماعيل؛ بدأ ببناء المسجد، فهو الانطلاقة الحقيقية للإسلام.

ولكن النصارى التشاديين والمنصرين الأوروبيين لم يقفوا صامتين تجاه ذلك؛ فإن إسلام منصِّرٍ بحد ذاته كارثة لهم، فكيف إذا كان إيطاليًّا من بلاد البابا؟ وكيف إذا كان مرجعًا في اللاهوت وقد أصبح داعية للإسلام؟ ذلك الدين الذي ينشر برغم محاصرته وقلة حيلة أتباعه؛ ولكنها إرادة اللَّه.

حاولوا ترحيله فلم يفلحوا، ثم حاولوا محاصرته في بيته فما استطاعوا، وحاولوا منعه من بناء المسجد ففشلت كل الوسائل، استخدموا كل الطرق إلا طريقًا واحدًا؛ إنه طريق المناظرة العلنية. ولكنهم لا يريدونها؛ فهم يدركون الخلل الواضح في النصرانية ويعلمون أن الشيخ إسماعيل يعرف ثغرات النصرانية الكثيرة. واستمر الشيخ إسماعيل في الدعوة إلى اللَّه وما يزال بالقليل يفعل الشيء الكثير[1].

---

(١) مجلة الأسرة العدد (١٠٤).

الحوار النصراني الإسلامي:

أ - المناظرة الكبرى في الهند:

في شهر رجب سنة (١٢٧٠هـ) أي قبل قرن ونصف تقريبًا عقدت مناظرة في مدينة كلكتا بالهند بين الشيخ رحمت اللَّه والدكتور فندر. **وهذه لمحات سريعة عنها وعن المتناظرين:**

١ - **الدكتور فندر:** كان مستشرقًا أمريكيًّا كاثوليكيًّا تحول إلى البروتستانتية فأرسلته كنيسة إنجلترا رئيسًا للمنصرين في الهند. فتزعم الحملة الصليبية فيها بإلقاء المواعظ والخطب والندوات، وألف عدةَ مؤلفات خطيرة للدفاع عن العقائد النصرانية وتشويه عقائد الإسلام، من أخطرها على الإطلاق كتابه (ميزان الحق) الذي ترجم إلى لغات عدة.

فبعد أن ذكر في الباب الأول عدم نسخ كتب العهدين وعدم تحريفها وأن القرآن الكريم يؤيد كونهما كلام اللَّه، ذكر في الباب الثاني كيفية الإيمان بالمسيح والفوز بالخلاص وكيفية انتشار دينه، ثم زعم في الباب الثالث أن خبر رسالة محمد ليس مكتوبًا في التوراة ولا في الإنجيل، وأن أعماله لا تدل على نبوته وأن بلاغة القرآن ليست دليلًا على كونه كلام اللَّه. ثم ذكر كيف انتشر الإسلام بالسيف؛ وعليه فالقرآن في نظره ليس كلام اللَّه، وليس بناسخ لكتب العهدين.

وكانت خطورة هذا الكتاب على المسلمين عامة وفي الهند خاصة أكثر من خطورة تدريس التوراة والإنجيل في المدارس والكليات. وقد عدَّد إبراهيم خليل أحمد أخطر أربعة كتب للمنصِّرين، أولها وأكثرها خطورة كتاب ميزان الحق.

وكان له ردة فعل عنيفة عند المسلمين في الهند لسرعة انتشاره، وصاروا يتوقون إلى من يرد عليه؛ فهيأ اللَّه الشيخ رحمت اللَّه لذلك. وكان وضع المسلمين السياسي آنذاك بغاية السوء.

٢ - **الشيخ رحمت اللَّـه: هو محمد رحمت اللَّه بن خليل الكيرانوي العثماني** (نسبة لعثمان ﷺ) ولد في كيرانة من توابع دلهي عام (١٢٣٣هـ)، تلقى العلم على والده وكبار أفراد العائلة، ثم ارتحل إلى دلهي لطلب التعليم العالي ومنها إلى لكناو، ودرس الطب والعلوم الرياضية والهندسية فيها. وألف العديد من المؤلفات في الدفاع عن الإسلام، واشترك في الثورة ضد الإنكليز عام (١٨٥٧م). وبعد أن فشلت الثورة ونصبت أعواد المشانق للعلماء والمجاهدين اضطر الشيخ للهجرة إلى مكة عام (١٢٧٤هـ/ ١٨٥٩م) وأسس المدرسة الصولتية وقد زارها الملك عبد العزيز وأعجب بها. وقام بثلاث رحلات إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية؛ وكانت الرحلة الأولى عام (١٢٨٠هـ)؛ حيث كان الدكتور فندر يشيع الأكاذيب

عن مناظرته مع الشيخ؛ فاستدعاه السلطان عبد العزيز خان من مكة، وعرف منه انتصاره على فندر؛ فأمر السلطان بالقبض على المنصِّرين ومصادرة كتبهم، وفر فندر من تركيا عندما علم بوصول الشيخ إليها. وكانت الرحلة الثانية عام (١٣٠١هـ) فاستدعاه السلطان عبد الحميد ومنحه لقب (فايا حرمين شريفين) أي ركن الحرمين الشريفين. ولما علم السلطان أن الشيخ أصيب بضعف في بصره حتى عجز عن القراءة والكتابة طلبه على عجل للعلاج، واعتذر الشيخ عن قبول العملية لعينيه لصعوبتها آنذاك، كما اعتذر عن طلب السلطان الإقامة بجواره ووصل إلى مكة عام (١٣٠٥هـ) حيث وافاه أجله عام (١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م).

ودفن في المعلاة - مقبرة أهل مكة - بجوار قبر خديجة أم المؤمنين - رضي اللَّه عنها -.

٣ - **ظروف المناظرة**: كان الشيخ - رحمه اللَّه - قد أجرى مناظرة سميت بـ (المناظرة الصغرى) مع القسيس « كئي »؛ حيث ختمها بقوله للقسيس: لما ثبتت هذه الأخطاء كلها في كتابكم المقدس.. ولا يوجد خطأ واحد في القرآن؛ فلماذا لا تؤمن باللَّه أيها القسيس. فقد أحصيت بنفسي أكثر من مائة خطأ في كتابكم المقدس. فرد القسيس؟ قائلًا: إن هذا الشيء عظيم جدًّا.

كان مولوي أمير اللَّه صديقًا لفندر وللشيخ، وعرض عليه رغبة الشيخ في المناظرة، وفهم منه الموافقة شريطة مقابلة الشيخ للاتفاق على ترتيباتها وبدأت المراسلات بين الشيخ وفندر بتاريخ (٢٣) آذار وانتهت في (٨) نيسان من سنة (١٨٥٤م). وبعد انتهاء المراسلات والمداولات تم الاتفاق على المناظرة في المسائل الخمس التي هي أمهات المسائل المتنازع عليها بين المسيحيين والمسلمين وهي: التحريف والنسخ والتثليث وإعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ.

٤ - **المناظرة**: انعقد المجلس العام للمناظرة يوم الإثنين بتاريخ (١١ رجب ١٢٧٠هـ) الموافق (١٠ نيسان ١٨٥٤م) في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا ببلدة أكبر أباد. وقد توافد الناس لحضور المناظرة من المسلمين والمسيحيين والوثنيين. وكان على رأس الحضور أمراء المسلمين والهندوس والحكام الإنجليز وأعيان البلد والوجهاء وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين من الإنجليز والهنود، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلو الصحف، وقد زاد عدد الحضور على خمسمائة نفس. وكان مع الشيخ من المناظرين من الجانب الإسلامي الدكتور محمد وزيرخان الأكبر أبادي، ومع فندر في الجانب النصراني القسيس فرنج. وكان موضوع المناظرة النسخ والتحريف وهل هو ممكن في الكتب المقدسة؟ وفي اليوم الثاني يكون الموضوع نبوة رسول الإسلام.

وانتهت المناظرة في اليوم الأول؛ انتهت حيث اعترف القسيس فندر بالنَّسخ، وقال بنص العبارة: نحن نفرق أيضًا بين إمكانه ووقوعه بالفعل.

انتهت بالإقرار التالي:

(قال الشيخ رحمت اللَّه: أقررتم بالتحريف في ثمانية مواضع، ونحن نثبته إن شاء اللَّه في خمسين أو ستين موضعًا بإقرار علماء المسيحية؛ فإن كانت المباحثة مقصودة فلا بد من مراعاة ثلاثة أشياء:

الأول: نطلب منكم السند المتصل لبعض الكتب فلا بد من بيانه.

والثاني: لا بد من تسليم الخمسين أو الستين موضعًا التي أقر فيها علماء المسيحية بالتحريف أو لا بد من تأويلها.

والثالث: ما لم تفرغوا من تسليم هذه المواضيع الخمسين (أي قبولها) أو تأويلها لا تستدلوا علينا بهذا المجموع (أي بمجموع كتب العهدين القديم والجديد).

قال القسيس: نقبل بشرطٍ هو أني أسأل غدًا أن الإنجيل الذي كان في عهد نبيكم؛ أي إنجيلٍ كان؟

قال الشيخ رحمت اللَّه: هذا الشرط مقبول ونبين غدًا[1].

اليوم الثاني: (الثلاثاء ١٢ رجب ١٢٧٠هـ) الموافق (١١ نيسان ١٨٥٤م) لما تناقل الناس خبر المناظرة في اليوم الأول ولم يستطع الإنجليز أن يفرضوا حصارًا على وسائل الإعلام التي أشارت لهزيمة فندر واعترافه بوقوع التحريف في كتب العهدين. تضاعف عدد الحاضرين في اليوم الثاني وزاد عددهم على ألف نسمة من جميع الأطراف وتمت متابعة الحديث عن التحريف والنسخ في الكتب المقدسة.

واختُتِمت بما يلي:

قال القسيس فندر: أجيبوني باختصار، تسلمون المتن أم لا؟

قال الشيخ رحمت اللَّه: لا، فلا نسلم المتن؛ لأن المتن الذي هو عبارة عن المقصود الأصلي عندكم صار مشتبهًا بسبب التحريف عندنا. وقد اعترفتم في الجلسة الأولى في سبعة أو ثمانية مواضع، وفي الجلستين بأربعين ألف اختلاف في العبارة تطلقون عليها « سهو الكاتب » وهي عندنا تطلق على التحريف.

(١) المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمت اللَّـه والدكتور فندر. ت: الدكتور محمد عبد القادر خليل (٢٦٢).

وكان منصبُّنا في هذا الباب هذا القدر فقط؛ أن يثبت كون هذا الكتاب (مجموع العهدين) مشكوكًا ومحرفًا، وقد ظهر بفضل اللَّه. وإثبات عدم التحريف في المتن أي المقصود الأصلي لازم على ذمتكم ونحن حاضرون إلى شهرين للمباحثة بلا عذر، إلا أن هذا الكتاب لا يكون حجة علينا والدليل المنقول منه لا يكون كافيًا لإلزامنا. نعم إن كان عندكم دليل آخر في مسألتي التثليث والنبوة فأورده.

قال المدون الأستاذ عبد اللَّه الأكبر الأبادي: والتفت فيض أحمد باشكاتب إلى القسيس فندر وقال: العجب أن يقع التحريف في الكتاب ولا يقع نقص ما[1].

- **بعد المناظرة:** لما ظهرت الغلبة للشيخ، عزم فندر على أن يغلق باب المناظرة كي لا تتوالى الهزائم والنكسات له ولقومه، ولعل قومه نصحوه بإغلاقها (وكان لهزيمة فندر في المناظرة رد فعل عنيف لدى النصارى والمنصرين).

وقد استاؤوا من الطريقة التي اختطَّها فندر في الهند؛ لأنها أفقدتهم مكاسب كثيرة، فعمت نقمتهم عليه، وأجمعوا في مؤتمراتهم على أن هذا المظهر الديني الصارخ عرقل أعمالهم؛ فقد جاء في خطبة القسيس هاربك في المؤتمرالتنصيري في القاهرة سنة (١٩٠٦م) أنه أجرى بحوثًا في بلاد السلطنة العثمانية استخلص منها أن متنوري المسلمين يرغبون في مناظرة النصارى، وأن لا فائدة في طريقة فندر في المناظرة والجدل؛ بل إنها كانت سببًا في منع الحكومة العثمانية للنشاط التنصيري ووقوفها ضده. كما أن هذه الطريقة أبعدت محبة المنصرين عن قلوب الناس.

كما كان لها من طرف آخر أثر كبير في رفع قوة المسلمين المعنوية. ولما ظهرت الغلبة بفضل اللَّه في هذه المناظرة للمسلمين ارتفعت معنوياتهم وصار المتحجرون منهم ثابتين على دينهم متيقنين منه، ورأوا أن هذا النصر ليس خاصًّا بالشيخ رحمت اللَّه، إنما هو انتصار الإسلام على النصرانية، وانتصار الإسلام على المنصرين والإنجليز؛ فدفعهم ذلك إلى استعجال الثورة على الإنجليز الذين يترفعون عليهم بدينهم زاعمين أن دين المستعمر هو الصحيح. ولئن كانت المناظرة بجلستيها هي التي نبهت المسلمين لقرب الخلاص وشجعت فيهم روح المقاومة؛ فإن نكوص فندر عن إتمام جلساتها زاد المسلمين قوة، وأملوا أن تتبع الهزيمة الدينية هزيمة عسكرية؛ فتشجعوا لطرد الإنجليز والمنصرين من الهند...

---

(١) عن كتاب المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمت اللّـه والدكتور فندر، ت: الدكتور محمد عبد القادر خليل (ص٢٩٣).

- **تأليف كتاب إظهار الحق**: بعد هزيمة الدكتور فندر في المناظرة لامَه الإنجليز وعنفوه، ونظروا إليه نظرة من جرَّ إلى الكنيسة خزيًا وعارًا كبيرًا؛ فلم يستطع البقاء في الهند حيث مكث بعد المناظرة مدة يسيرة سافر بعدها إلى ألمانيا وسويسرا وبريطانيا. ثم اختارته الإرسالية الكنسية فى لندن منصرًا في مقر الخلافة الإسلامية في القسطنطينية فسافر إليها عام (١٨٥٨م). وكانت علاقات تركية مع بريطانيا في ذلك الوقت حسنة.

وقد اتصل فندر بالسلطان عبد العزيز خان، وزوَّر أخبار المناظرة، وزعم أن الغلبة فيها كانت له، ثم دعا مسلمي تركيا إلى الاقتداء بإخوانهم مسلمي الهند؛ حيث زعم أنهم تحولوا إلى النصرانية وأن المساجد أصبحت كنائس. وأخذ يتجول في أرجاء تركيا؛ يشيع أخبار هذه المناظرة معتمدًا على الكذب وتزوير الحقائق لرفع مكانته وستر فضائحه، ولكن السلطان عبد العزيز أصيب بغم شديد لسماعه أخبار فندر وخشي أن تؤثر هذه الإشاعات على أبناء المسلمين، وقد علم من الحُجاج الأتراك أن الشيخ رحمت اللَّه موجود في مكة المكرمة؛ فعجل بالأمر إلى أمير مكة الشريف عبد اللَّه بن عون إرسال الشيخ رحمت اللَّه، إلى دار الخلافة. ولما حلَّ الشيخ ضيفًا رسميًّا في مقر الخلافة وسمع فندر بذلك فر هاربًا من تركيا ولم يتريث لمقابلة الشيخ رحمت اللَّه، ولما استدعاه السلطان عبد العزيز خان بعد سماعه أخبار المناظرة من فندر واستضافه في القصر - دعا السلطان العلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، وطلب من الشيخ أن يقص خبر المناظرة. فلما استبان للسلطان طول باع الشيخ في هذه الموضوعات وتمكنه منها طلب منه تأليفَ كتاب يضم مسائل المناظرة الخمس؛ فعقد الشيخ العزم على ذلك وبدأ بتأليفه في الأستانة بتاريخ (١٦رجب ١٣٨٠هـ) وانتهى منه في نهاية ذي الحجة من نفس العام. ولما انتهى من تأليفه هداه اللَّه لأن يسميه (إظهار الحق) وسلم النسخة الأولى منه بخط يده العربي إلى رئيس الوزراء خير الدين التونسي. وظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب باللغة العربية في إستانبول سنة (١٢٨١هـ) كما ظهرت الطبعة الثانية في محرم (١٢٨٤هـ). وتلقفت المطابع الكتاب تطبعه وتنشره في العالم، وقد طبع إلى الآن أكثر من عشر طبعات بالعربية. وأمر السلطان العثماني عبد الحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي، وفعلًا ترجم إلى تسع لغات أجنبية منها الألمانية والفرنسية والإنجليزية. وأصبحت لا تكاد تخلو مكتبة في الشرق والغرب من نسخة لهذا الكتاب. وبعد موت السلطان عبد الحميد لم تجدد طباعاته بهذه اللغات.

ويعد كتاب (إظهار الحق) من خير ما ألف للرد على النصارى وكشف مزاعمهم، مع خلوه من الشتائم واللغو، وتقريره الحقائق الدينية والتاريخية بأسهل الطرق وأقربها، واعتماده

في ذلك على ما في كتب العهدين المسَلَّمَة عند فرق النصارى؛ ولذلك لا عجب أن يُحدِث ظهور هذا الكتاب بعدة لغات أوروبية صدًى عجيبًا في الأوساط النصرانية والإسلامية[1].

ب - المناظرة الثانية:

بناء على الرغبة التي أبداها بعض كبار رجال القانون والفكر في أوروبا عن طريق السفارة السعودية في باريس للاجتماع بالعلماء في المملكة السعودية للتعمق في مفاهيم حقوق الإنسان في الإسلام؛ فقد نظمت وزارة العدل برئاسة سماحة وزير العدل محمد الحركان ثلاث ندوات لهذا الغرض ابتداءً من يوم الأربعاء في (٧ صفر ١٣٩٢هـ) الموافق (٢٢ مارس آذار سنة ١٩٧٢م).

وقد مثل **الجانب العلمي السعودي** في هذه الندوة:

وزير العدل محمد الحركان، ووكيلا الوزارة راشد بن خنين وعمر بن مترك، والشيخ محمد بن جبير وعبد العزيز المسند، والأستاذ محمد المبارك، والدكتور معروف الدواليبي، والدكتور منير العجلاني.

بينما مثل **الجانب الأوروبي**:

- سين ماك برايد الأستاذ في جامعة دبلن ووزير خارجية أيرلندا السابق.
- الأستاذ ك. فاساك أستاذ القانون العام في كلية بوزانسون فرنسا.
- الأستاذ المستشرق لاووست أستاذ في الكولليج في باريس.
- الأستاذ جان لويس أوجول السكرتير العام لجمعية الصداقة السعودية الفرنسية ومن كبار المحامين في محكمة الاستئناف في باريس.

وأثار الوفد الأوروبي النقاط التالية: قضية العقوبات والحدود، قضية المرأة، قضية التنظيمات النقابية المحظورة، عدم وجود دستور للبلاد.

وبعد أن ختم الوفد السعودي كلامه - في جميع النقاط التي أثارها الوفد الحقوقي الأوروبي - تعاقب الخطباء من الوفد الأوروبي وفي مقدمتهم ماك برايد الذي قال: (من هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان، وأنه يتوجب على العلماء المسلمين أن يعلنوا هذه الحقائق المجهولة عند الرأي العام العالمي، والتي

---

(١) المرجع في هذا البحث هو كتاب: المناظرة الكبرى بين الشيخ رحمت اللّه والدكتور فندر تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد القادر خليل. منشورات: دار ابن تيمية، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) الكتاب (٥٢٠) صفحة.

كان الجهل بها سببًا لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين والحكم الإسلامي عن طريق أعداء الإسلام والمسلمين).

وألحَّ أن تكتب للوفد هذه الأجوبة القيمة لتكون في أيديهم وثيقة مخطوطة يدافعون بها عن الإسلام ويشرحون بها الحقيقة لكل راغب في المعرفة.

كما أعلن زميل له بكلمة أخرى:

(وإني بصفتي مسيحي أعلن أنه هنا في هذا البلد الإسلامي يُعبد اللَّه حقيقة. وأنه مع السادة العلماء في أن أحكام القرآن في حقوق الإنسان - بعد أن سمعها ورأى في الواقع تطبيقها - هي بلا شك تفوق ميثاق حقوق الإنسان)[1].

أما بقية الندوات التي في باريس والفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي في جنيف والمجلس الأوروبي في ستراسبورغ لم تكن أكثر من محاضرات ألقيت فيه بدعوة من هذه المؤسسات دون أن نعلم أثر هذه المحاضرات عند الحاضرين. وهل كانت هناك مناظرات انتهت إلى نتائج أم لا؟

جـ - المناظرة الثالثة:

في يونيو سنة (١٩٧٦م) عقد في جنيف بسويسرا مؤتمر بين المسلمين والنصارى دعا إليه مجلس الكنائس العالمي حول موضوع: نظرة الأديان السماوية إلى الإنسان وإلى تطلعه نحو السلام. وفي ذلك المؤتمر أبدى مجلس الكنائس العالمي أسفه الشديد؛ لأن الواقع أثبت أن إرساليات التبشير النصرانية في ديار المسلمين قد تسببت في إفساد الروابط بين المسلمين والنصارى. كما اعترف بأن تلك الإرساليات كان طابع نشاطها في خدمة الدول الأوروبية المستعمرة، وأنها كانت تستخدم التعليم وسيلة لإفساد عقائد المسلمين. وقد تعهد الجانب النصراني في هذا المؤتمر بإيقاف جميع الخدمات التعليمية والصحية التي تستخدم لتنصير المسلمين.

د - المناظرة الرابعة:

في عام (١٩٧٩م) عقد في قرطبة بإسبانيا المؤتمر الثاني للمناظرة بين المسلمين والنصارى. وقد ألقى كلمة الافتتاح الكاردينال ترانكون رئيس أساقفة إسبانيا؛ فكان مما قاله:

---

(١) المرجع في هذه المناظرة كتاب: ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان، والذي أصدرته رابطة العالم الإسلامي (ص ٥ - ٢٦).

إنني كأسقف أود أن أنصح المؤمنين المسيحيين بنسيان الماضي كما يريد المجمع البابوي منهم، وأن يعربوا عن احترامهم لنبي الإسلام، إن هذا شيء مهم جدًّا بالنسبة للمسيحي؛ إذ كيف يستطيع أن يُقدّر الإسلامَ والمسلمين دون تقدير نبيهم. والقيم التي بثها ولا يزال يبثها في حياة أتباعه. لن أحاول هنا تعداد قيم نبي الإسلام الرئيسية - الدينية منها والإنسانية - فليست هذه مهمتي وسوف يلقيها عليكم الإخصائيون اللاهوتيون المسيحيون بالمؤتمر. غير أني أريد أن أبرز جانبين إيجابيين ضمن جوانب أخرى عديدة وهما: إيمانه بتوحيد اللَّه وانشغاله بالعدالة.

وفي ذلك المؤتمر ألقى الدكتور (بيجل كروث) بحثًا عن الجذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التي كونتها المسيحية عن النبي محمد ﷺ وقد جاء فيه قوله:

لا يوجد صاحب دعوة تعرَّض للتجريح والإهانة ظلمًا على مدى التاريخ مثل محمد... ولقد سبق لي أن أكدت في مناسبة سابقة - وأظن أنني قد قررت ذلك عدة مرات - الاستحالة من الوجهة التاريخية والنفسية لفكرة النبي المزيف التي تنسب لمحمد ما لم نرفضها بالنسبة لإبراهيم وموسى وأصحاب النبوات الأخرى من العبرانيين الذين اعتبروا أنبياء، إنه لم يحدث أن قال نبي منهم بصورة بينة وقاطعة أن عالم النبوة قد أغلق، وفيما يتعلق بالشعب اليهودي فإن عالم النبوة ما زال مفتوحًا ما داموا ينتظرون المسيح المخلص.

أما فيما يتعلق بالحركة المسيحية فإنه لا يوجد أي تأكيد قطعي يدل على انتهاء عالم النبوة.

هـ - المناظرة الخامسة:

كان هذا اللقاء في الخرطوم في الفترة من (٢٣/ ١/ ١٤٠١هـ) إلى (٢٩/ ١/ ١٤٠١هـ) الموافق (١/ ١٢/ ١٩٨٠م) إلى (٧/ ١٢/ ١٩٨٠م) بين قادة من الفكر النصراني وقادة من الفكر الإسلامي.

وقد مثَّل الجانب الإسلامي:

- الدكتور محمد جميل غازي: الذي قام بإدارة الحوار وهو من مواليد (١٩٣٦م) عالمية الأزهر الشريف، دكتوراه في النقد الأدبي، رئيس المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسنة بالقاهرة، نائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية.

- الأستاذ إبراهيم خليل أحمد: نشأ نشأة مسيحية حتى صار قسًّا راعيًا في العديد من الكنائس، وقد حصل على دبلوم اللاهوت. ثم أسلم عام (١٩٥٥م) وله مؤلفات كثيرة عن المسيحية والإسلام.

- السيد اللواء المهندس أحمد عبد الوهاب: ولد في الشرقية عام (١٩٣٠م) وشغل بمقارنة الأديان أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وله مؤلفات في هذا المجال.

بينما مثَّل الجانب النصراني: جيمس بخيت وتبخا رمضان وقد تقدما بعشرة أسئلة عن الديانة المسيحية وعشرة أسئلة عن الديانة الإسلامية.

وتم في الجلسة الأولى: الحديث عن أسفار العهد الجديد، ومشكلة الاختلاف الكثير بينها، ومشكلة التنبؤات التي استحال تحقيقها، وقضية صلب المسيح.

- **أما الجلسة الثانية**: فتمت متابعة مناقشة قضية الصَّلب، ونهاية يهوذا الخائن، والخلاص الحق لا علاقة له بالصلب.

- **وفي الجلسة الثالثة**: تمت مناقشة القيامة، والظهور، والملاحظات على روايات الإنجيل حولها. مع الحديث عن بولس، وأن دين المسيح هو دين التوحيد.

- **وفي الجلسة الرابعة**: حول ألوهية المسيح والرد عليها، وأن التوراة والإنجيل تدعو إلى التوحيد.

- **وفي الجلسة الخامسة**: حديث عن المجامع المسكونية، والانقسامات المسيحية.

- **وفي الجلسة السادسة**: كان الحديث عن مواجهة القرآن للوثنيات التي تسربت للمسيحية، وحديث عن الإسلام وأنه دين الأنبياء جميعًا، والحديث عن النبي الخاتم وعموم الرسالة المحمدية، والجهاد في الإسلام وتعدد الزوجات والطلاق.

الجلسة الختامية: حيث تكلم القس جيمس بخيت. وكلمات علماء المسلمين.

* أما كلمة القس فكانت:

(السادة أعضاء هيئة إحياء النشاط الإسلامي بالسودان.

السيد فضيلة الملحق الديني السعودي بالخرطوم.

السادة الضيوف الكرام.

حسبما تقرر في بداية الجلسة الأولى بأن تعطى الفرصة للعلماء: جميل غازي وأحمد عبد الوهاب وإبراهيم خليل لمواصلة الإجابة على الأسئلة الإسلامية والمسيحية التي تقدمنا بها إلى سيادتكم آملين أن نجد تفسيرات وتوضيحات تزيل كل الشكوك العالقة في نفوسنا؛ وذلك لمعرفة الحق من الباطل، وبعده نبدي رأينا فيما يجيء من الإجابات، ولا شك أنكم تتوقعون منا في هذه اللحظة أن ندخل في حوار معكم للرد على إجاباتكم وتفصيلاتكم للعقيدتين الإسلامية والمسيحية.

ولكننا نقول أمام اللّه ونحن صادقون:

إننا لا نملك أي رد غير إعلان الإسلام دينًا لنا، والتمسك بكل قيمه ومُثله؛ لأنه الحق والنور لخير الأمم في الدنيا والآخرة. سادتي:

من هذا المنطلق الروحي الهادف: علينا أن نعلن أن هناك مسؤوليات عدة تنتظرنا، ليس تجاه الإخوان الذين أسلموا فقط؛ وإنما هناك أيضًا قساوسة وقادة مسيحيون ومسيحيات في حاجة لمعرفة ما خرجنا به من الحوار الذي دار بيننا، وهذا لا شك جزء من مهمتنا الأساسية التي يجب أن نتعاون فيها ونحن صادقون، لا لأجل شيء وإنما لإبلاغ الجميع - مسلمين كانوا أو مسيحيين - بكل الحقائق التي أوحى اللّه ﷻ بها إلى خير خلقه سيدنا محمد ﷺ.

وقبل أن أختم حديثي أود أن أخص بالشكر كل الإخوة الذين ساهموا بشتى الوسائل المقدرة لإنجاح هذا الحوار والخروج بنتائج مثمرة ستظل باقية لكل الأجيال ليس في السودان فحسب وإنما لكل الأمم[1].

* ومن كلمة الأستاذ إبراهيم خليل أحمد - تعقيبًا على إسلامهم - قال:

أما الكلمة الثانية التي أريد أن أقولها لكم فهي:

أيها الإخوة، إن اللّه ﷻ قد هداكم للإسلام. وعندما طلب الدكتور جميل غازي أن أتحدث إليكم فإنما لكي أكون مثالًا لكم؛ لأني عندما دخلت في الإسلام لم أدخله عفوًا أو بارتجال، ولكن أخذت أدرس الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكًا من سنة (١٩٥٥م) إلى نهاية سنة (١٩٥٩م) أي على مدار خمس سنوات متتالية حتى أتاني اليقين فأعلنت إسلامي.

ولقد شعرت أن الإسلام يفرض عليَّ فرضًا وهو أن أحمل رسالة التبليغ وأن أدعو برسالة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه.

إنني في هذا اللقاء أعود بذاكرتي إلى ما قبل سنة (١٩٥٥م) حينما كنت قمة من قمم الكفر، وكنت أضلل الشباب المسلم. ولعل اللّه ﷻ أراد أن يطمئن نفسي وأنه قد غفر لي ما تقدم من ذنبي إذ أراني هذا الشباب وقد أسلم، وإني لأرجو لكم كل خير وسعادة في ظل الإسلام.

المناظرة السادسة:

وقد تحدث عنها الدكتور معروف الدواليبي بمقالٍ مسهب مفصل كما ورد في مجلة الرسالة الإسلامية.

---

(١) المرجع: كتاب: مناظرة بين الإسلام والنصرانية. طبع الرئاسة العامة لإدارة الإفتاء والبحوث (١٤١٣هـ).

- الدكتور محمد معروف يروي قصة لقاءات الحوار بين الإسلام والمسيحية كيف بدأت وعلام انتهت.

- العثور على « سفر أشعياء » الصحيح في مغاور الأردن - كان البداية.

- وتدخُّل السفير الإسرائيلي في روما وموت البابا الفجائي - كان النهاية.

- الدكتور محمد معروف الدواليبي الداعية الإسلامي الكبير ورئيس وفد المملكة العربية السعودية إلى لقاءات الحوار بين الإسلام والمسيحية التي عقدت في عاصمة الكثلكة - الفاتيكان قبل ١٧ سنة - يكشف عن حقائق مذهلة لم تنشر بعد عن تلك اللقاءات.....

*** يقول الدكتور محمد معروف الدواليبي:**

بدأت قصة الحوار الإسلامي المسيحي عندما اكتشفت سنة (١٩٥٨م) في إحدى المغاور في جبال الأردن التي تبلغ نحو (٦٠٠) مغارة - وهي الأمكنة التي كان يختفي بها المؤمنون قبل آلاف السنين - مخطوطات دينية مهمة ومن هذه المخطوطات التي تم اكتشافها سفر أشعياء الصحيح بكامله بينما المنشور في التوراة جزء منه.

وبعد دراسته اجتمع الفاتيكان لمدة أربع سنوات من عام (١٩٦١م - ١٩٦٥م) وتبين أن لهذا السفر تأثيرًا جديدًا على قواعد ومفاهيم المسيحية بالنسبة للإسلام؛ فأصدروا كتيبًا دعوا فيه للحوار ما بين المسيحية والإسلام ويثنون ويأسفون لما سبق من خلاف بين الديانتين، ويطلبون نسيان الماضي وأن يدخل المسيحي في حوار مع المسلم لا ليعلمه ويتظاهر بالعلو؛ وإنما ليتعلم كيف ينقي عقيدته المسيحية من عقيدة التثليث.

وثيقة مهمة: بعد ذلك صدرت عن الفاتيكان وثيقة مهمة كانت بمثابة اعتراف رسمي مسيحي بالدين الإسلامي. ولأول مرة جاء فيها:

« إن كل من آمن بعد اليوم باللَّه خالق السموات والأرض ورب إبراهيم وموسى فهو ناج عند اللَّه وداخل في سلامه وفي مقدمتهم (المسلمون)»، وبعد صدور هذه الوثيقة. صادف أن كنا في موسم الحج مع المرحوم الملك فيصل بن عبد العزيز عام (١٩٦٥م) عندما وجَّه الفاتيكان عن طريق إذاعته نداءً بالتهنئة بالحج وقضاء مناسكه إلى الفيصل - طيب اللَّه ثراه - وإلى الحجاج؛ فردَّ الفيصل بالإذاعة على الإذاعة محييًا هذه الروح الجديدة، ولم يلبث الفاتيكان أن سعى للدخول في حوار، والناس بين مصدِّقٍ ومكذب. حتى وصلت الدعوة إلينا للدخول في حوار معهم وزيارتهم؛ وذلك للتعاون فيما يتعلق بحقوق الإنسان، وكنا في كل مكان أيضًا مستغربين هذه الروح الجديدة... فأمرني الملك فيصل - رحمه اللَّه - بالتوجه

للفاتيكان لكشف ما وراء هذه الدعوة؛ فذهبت بالفعل، وكان معي سفير المملكة في روما.

واجتمعنا بالكاردينال (بيمونوللي) وزير الدولة في حكومة الفاتيكان فيما يتعلق بالعلاقات ما بين الإسلام والمسيحية؛ فعرفت أن الدعوة صحيحة وطيبة، وأنهم يريدون التعاون، ونسيان الماضي. وكانت إذاعة الفاتيكان تركز في نشراتها على الاجتماعات التي كنا نعقدها على أنني مندوب الملك فيصل - رحمه اللَّه - وأننا اتفقنا على مبدأ الحوار.

السفير الإسرائيلي يتدخل: وبعد (٤٨) ساعة من مغادرتي الفاتيكان طلب السفير الإسرائيلي في روما مقابلة الكاردينال (بيمونوللي) مع أنه لم يكن بين إسرائيل والفاتيكان تمثيل دبلوماسي؛ وإنما كان طلبه الزيارة باسم حكومة إسرائيل.

ماذا قال السفير الإسرائيلي للكاردنيال؟

نطلب منكم وقف أي حوار بين الفاتيكان وبين المملكة العربية السعودية. فيرفض الكاردنيال طلب السفير.

وفي اليوم الثاني عاد السفير وكَرَّرَ الطلب ورفض طلبه.

وهكذا على مدى خمسة أيام متتالية.

أكثر من ذلك فقد بعث البابا (بولس السادس) برسالة إجلال واحترام للملك فيصل - رحمه اللَّه - وراويًا له ما جرى بين السفير الإسرائيلي في روما والكاردنيال (بيمونوللي) من إصرار على عدم تحقيق لقاء الحوار بين الإسلام والمسيحية.

ثورة داخل الفاتيكان: يومها أعلنوا أننا قمنا بثورة داخل الفاتيكان لماذا؟

لأنه ليس من التقاليد البابوية أن يبدأ البابا الكتابة لأي رئيس دولة؛ فقد جرت العادة منذ القِديم أن يتولى البابا الإجابة على رؤساء الدول لا أن يكون هو البادئ بكتابة الرسائل.

بدء الحوار: وقبل أن يبدأ الحوار بين علماء المملكة وبين الفاتيكان، صدر عن مجمع الفاتيكان الثاني كتيب يقع في نحو (١٥٠) صفحة تحت عنوان (توجيهات للمسيحية من أجل الحوار بينهم وبين المسلمين).

فقد أمروا بنسيان الماضي، وذكروا بأن المسلمين ناجون عند اللَّه؛ عملًا بما اتخذته أعلى سلطة في الفاتيكان.

وفي هذه الأجواء بدأت اجتماعات الحوار الإسلامي المسيحي في الفاتيكان، ثم ما لبث أن دعانا مجلس الوحدة الأوروبية بناء على قرار مجمع الفاتيكان الثاني في ستراسبورغ.

ولبَّينا الدعوة أيضًا التي وجهها إلينا مجلس الكنائس العالمي في جنيف، وأيضًا إلى وزارة العدل الفرنسية، ثم إلى جمعية الصداقة السعودية الفرنسية.

وكانت كل تلك اللقاءات تتم وفقًا لتلك الروح التي أعلنها الفاتيكان، والتي كان لها الدوي والتأثير العظيمان. فقد كانت المرة الأولى التي يخرج فيها وفد من المملكة السعودية بناءً على دعوة للقاء البابا ومجلس الكنائس العالمي البروتستانتي الذي يقابل الكنيسة الكاثوليكية.

وقف التنصير: بعد انتهاء اللقاءات المتعددة التي حصلت بين علماء المملكة وبين كبار مسؤولي الفاتيكان. وفي يوم مغادرتنا عاصمة المملكة وقف الكاردينال (بيمونوللي) مخاطبًا العلماء المسلمين بقوله:

لقد قررنا في هذا اليوم وقف التنصير الكاثوليكي في العالم الإسلامي، ونحن نطلب منكم أن تعودوا إلينا (بالبشارة)؛ ذلك أن السيد المسيح عندما ودَّع أتباعه نبَّأهم أنه ستأتي من بعده بشارة أي نبي يخبرهم بالحقائق. وقد جاء في سفر أشعياء ما يأتي:

(بعد المسيح يأتي نبي عربي من بلاد فاران) - بلاد إسماعيل - وفاران باللغة الآرامية: بلاد الحجاز وعلى اليهود أن يتبعوه، وعلامته أنه نجا من القتل فإنه النبي المنتظر؛ لأنه يفلت من السيف المسلول على رقبته ويعود إليها بعد ذلك بعشرة آلاف قديس.

انطباق على الواقع: وهذه تنطبق تمامًا على الواقع؛ فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠] - أي اليهود - كما يعرفون أبناءهم.

- فأعطى مكانه: بلاد إسماعيل؛ أي مكة المكرمة.

- وأعطى صفته: يهرب من السيف المسلول على رقبته؛ وذلك عندما هرب ليلة المؤامرة التي حيكت لقتله (ليلة الهجرة).

- ويعود بعشرة آلاف قديس: وقد عاد ﷺ إلى مكة بعشرة آلاف مؤمن.

وهذه النصوص واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؛ ولذلك نعتبر أن ما صدر عن مجمع الفاتيكان الثاني في عهد (بولس السادس) كان خطوة طيبة وجديدة.

وفاة البابا والكاردينال: ولكن مع الأسف - يضيف محمد معروف الدواليبي - فإن هذا البابا لم يلبث أن توفي في ظروف لا ندريها، كما توفي بعده بقليل الكاردينال « بيمونوللي » الذي كان صلة الوصل بيننا وبين الفاتيكان، وبوفاتهما أوقف الحوار بين الإسلام والمسيحية[1].

---

(١) الرسالة الإسلامية، العدد (١١٥) ربيع الأول (١٤١٢هـ) تشرين الأول (١٩٩١م).

لجنة الاتصال الإسلامي الكاثوليكي:

ابتعدت المحادثات والحوارات بين المؤسسات الإسلامية والنصرانية بعد وفاة البابا المذكور عن الدخول في جوهر الموضوع بين الإسلام والنصرانية، ومضت في خط البحث عن العموميات التي تلتقي عليها الأديان وهذا نموذج منها:

- **بيان صحفي صادر عن لجنة الاتصال الإسلامي - الكاثوليكي**: بعون اللّه تعالى عقدت لجنة الاتصال الإسلامي الكاثوليكي دورتها السابعة في روما في الفترة من (٣ - ٤ تموز ٢٠٠١م) الموافق (١٢ - ١٣ ربيع الثاني ١٤٢٢هـ). ومثل الجانب الكاثوليكي وفد برئاسة الكردينال فرنسيس إرنزي رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان في مدينة الفاتيكان، ومثل الجانب المسلم وفد برئاسة معالي الأستاذ كامل الشريف الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة. وكان موضوع الحوار: « **الدين وحوار الحضارات في زمن العولمة** ».

وبعد التدارس والتحاور حول هذا الموضوع وغيره **اتفق الجانبان على ما يأتي**:

١ - التأكيد على أن الحضارات بشقيها المادي والتكنولوجي إرث بشري عام يجب المحافظة على الجوانب الإيجابية فيه، وتعميم نفعها بين الناس وتطويرها وتنميتها لتكون في صالح أمن ورفاهية المجتمعات البشرية كافة.

٢ - التأكيد على أن القيم الدينية يجب أن تكون المنطلق الأساسي لترشيد البشرية بما يصون كرامة الإنسان، ويحقق التعايش الآمن بين الناس وسلامة البيئة.

٣ - التأكيد على أهمية الحوار بين الحضارات من أجل التعارف والسير معًا بسلام ووئام؛ لحماية المجتمعات البشرية من الكوارث والفقر والجهل والتدهور الأخلاقي والتفسخ الأسْري والحروب وأسلحة الدمار الشامل، ورفض مقولة حتمية صراع الحضارات والصراع بين المجتمعات.

٤ - الاعتراف بأهمية العولمة وفوائدها من حيث المبدأ مع التنبيه إلى خطورتها التي تحول دون تحقيق نظام عالمي عادل متفق عليه، ودون التزام المعايير العادلة في تحقيق المصالح المشتركة للناس، والتي تحُول كذلك دون احترام القيم الدينية والثقافية للمجتمعات البشرية.

٥ - العمل معًا من أجل تعميم ثقافة الحوار وبعث روح المسؤولية لدى الأجيال البشرية تجاه المجتمعات، ومقاومة ظاهرة الإسراف في الاستهلاك، وحماية كرامة الإنسان وحقوقه. ومنع العدوان والاضطهاد والظلم، والعمل على ضمان حقوق اللاجئين بالعودة

إلى بلدانهم، ورفض كافة أشكال التمييز بين الشعوب.

٦ - استنكار ما يجري في بعض أنحاء العالم من انتهاك حرمة المقدسات والتعرض لأماكن العبادة، والعمل المشترك للتأكيد على احترام المقدسات وحمايتها.

٧ - السعي لنشر هذه المبادئ خلال الاتصالات المتاحة ووسائل الإعلام والمؤسسات التربوية والثقافية وغيرها[١].

المنتدى الإسلامي العالمي للحوار في ندوة عالمية:

كان المنتدى الإسلامي للحوار - أحد لجان المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة - بالتعاون مع مؤتمر العالم الإسلامي بجدة - قد عقدا ندوة عالمية للحوار بالقاهرة في الفترة من (٢٨، ٢٩) أكتوبر المنصرم حضرها وفود من (٤٥) هيئة إسلامية ومسيحية في العالم؛ وذلك لمناقشة مخاطر التداعيات الأمنية العالمية في أعقاب الأحداث المؤلمة في (١١) سبتمبر الماضي، والظاهرة العالمية للإرهاب وخطورة اختلاط المفاهيم والمعايير حوله وعالم الحروب والدفاع المشروع عن النفس والممتلكات وسيادة الأوطان، ومخاطر الظلم وهجر القيم الدينية الربانية، والتدهور الأخلاقي وآثاره المدمرة على أمن المجتمعات، وخطورة استخدام أسلحة الدمار الشامل النووية، والعدل والاحترام المتبادل بين الثقافات والحضارات.

وتحدث في هذه الندوة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الذي أكد على أنه ليس من حق أمريكا أن تعاقب شعبًا بأكمله يقتل فيه الأطفال والشيوخ في أفغانستان بسبب حادث إجرامي حصل في أمريكا يوم (١١) سبتمبر الماضي، ولا توجد أي أدلة حتى الآن على من فعل هذا الحادث...

وقال الدكتور حامد الرفاعي رئيس المنتدى الإسلامي العالمي للحوار أن الحوار بين الأديان أقره الإسلام، وأن المملكة العربية السعودية لا تألو جهدًا في تشجيع الحوار ودعم كل عمل مشروع يحقق التعايش الأمين بين المجتمعات والحضارات، وأوضح الدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية أن ما يحدث اليوم في العالم جاء نتيجة لفصل الدين عن الدولة؛ مما أدى لنشر الرذائل وتقويض الفضائل.

وأكد قداسة البابا شنودة الثالث على أهمية الحوار بين الأديان وقال: لا يمكن مقاومة الإرهاب إلا بمعالجة أسبابه الأساسية وهي الظلم والقهر؛ حيث كان يوجد أناس متدينون تحولوا إلى إرهابيين بسبب الظلم الواقع عليهم، وقال:

---

(١) عن موقع المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، جدة، السعودية.

إن ما يتعرض له إخواننا المسيحيون والمسلمون في فلسطين من قتل وتشريد، وهدم للمنازل ودور العبادات، وتغطرس إسرائيل بآلتها العسكرية - هو أهم أنواع الإرهاب؛ لأنه إرهاب دولة.

تشويه العمل الإغاثي: وأضاف كامل الشريف أمين عام المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة أن ما يجري في العالم من حملة شديدة ضد الإسلام، وتشويه صورة العمل الإغاثي الإنساني في الدول الإسلامية - يعد حربًا على الإسلام، وأوضح الشريف أن جميع المجامع الدينية في العالم الإسلامي وخاصة في السعودية ومصر وفي العالم العربي - قد أدانت حادث (١١) سبتمبر في أمريكا، وأن إسرائيل استغلت هذا الحادث لتتاجر بالمآسي من أجل كسب عمل سياسي لتشويه صورة العمل الوطني.

وطالب الدكتور عبد اللَّه عمر ناصيف من وسائل الإعلام الإسلامية ومفكريها وعلمائها أن يتصدوا للحملة الشرسة التي تقودها الصهيونية العالمية لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وأن ما يحدث في أفغانستان لا تقبله الأديان والقوانين والأعراف الدولية؛ حيث فقدت الأمم المتحدة دورها المنوط بها وأهدرت الحريات.

التنسيق والتعاون:

وقال الدكتور وليم فنيدلي الأمين العام لمؤتمر الدين والسلام في أمريكا: إن الإعلام الأمريكي غالبًا ما يشوه الصورة لشعوبنا؛ حيث يصف لنا بأنه يوجد معسكرات لتدريب الأطفال في العالم الإسلامي على تنفيذ أعمال إرهابية، وذلك حين يضعوا على أجسادهم قنابل لتفجير أنفسهم في سبيل الآخرين..

وأشار مايكل فيتزجيرلد الأمين العام للمجلس البابوي للحوار بين الأديان في الفاتيكان إلى أهمية الحوار بين الأديان، وطالب بالتعاون والتنسيق بين المنظمات الإسلامية الإغاثية والهيئات المسيحية في تقديم الإغاثة للفقراء والمساكين في العالم وخاصة أفغانستان.

المسيحيون الصهيونيون:

وقال الأيكونومس قسطنطين قرمش الرئيس الروحي لرعاية الأرثوذكس في الأردن:

إن أخطر أنواع الإرهاب ما يقوم به المسيحيون الصهيونيون في أمريكا واتفاقهم مع التلموديين اليهود؛ حيث هؤلاء المسيحيون الصهيونيون - وعددهم في أمريكا ما يقرب من (٨٠) ألف - يعملون لصالح اليهود سواء على المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، وهؤلاء قد تربوا على إزالة كل الشعوب ما عدا الشعب المختار، وهؤلاء

مأجورون لليهود. وإن المسلسل الإجرامي الذي يقوم به اليهود في فلسطين نابع من عقيدة التلمود[1].

* * *

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي العدد (٤٤٣) رمضان (١٤٢٢هـ) ديسمبر (٢٠٠١م)، (ص١٢، ١٣).



الحوار القومي الإسلامي

*** مرحلة الحوار:**

كانت نكبة عام (١٩٦٧م) في فلسطين مرحلة فاصلة في تاريخ هذه الأمة، ومرحلة مراجعات عامة في كثير من مسلَّمات هذه الحركات.

وقام نقد كبير لأفكار هذه الحركات في صفوفها ومن خارجها جعل كثيرًا من الثوابت تتزلزل عندها، غير أنها لم تتجه أبدًا إلى الإسلام، ومن الممكن القول: إنها خففت شيئًا من الحرب الضارية على دعاته.

ومضت السبعينيات تحمل بعض الأوبة للإسلام من المفكرين القوميين الأحرار الذين لا يرتبطون بمنظمات معينة. ومع بداية الثمانينيات كان في قضية الحوار تطوران كبيران:

الأول: ضمن المفكرين القوميين المستقلين.

الثاني: ضمن بعض فصائل الحركات القومية.

أولًا: الحوار الأول:

دعا لهذا الحوار مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٨١م)؛ كما تقول المقدمة:

(لقد التقى نحو سبعة وأربعين مفكرًا وباحثًا من أقطار عربية مختلفة في هذه الندوة ليطرحوا تساؤلاتهم، وليتلقوا عنها الإجابات... وفي هذا الملتقى الفكري تقاطعت رأسيًّا وأفقيًّا خطوط انتماءات متباينة فكرية؛ قطرية ودينية وجيلية، لكن هذا التقاطع كان يشد الجميعَ نحو مفهوم مركزي ربما يكون قد لعب الدور الأكبر بين المفاهيم التي طرحت والتي استخدمت في هذا الحوار... وهو مفهوم الأمة)[١].

ولم ينته المؤتمرون إلى توصيات نهائية؛ إنما اكتفوا بتعقيب ختامي قدَّمه الدكتور سعد الدين إبراهيم وذكر فيه أربعة اتفاقات يمكن أن تستنتج من هذا الحوار:

- **الاتفاق الأول:** هو التداخل المكثف بين الإسلام - كدين وإطار حضاري - والعملية التاريخية الكبرى لتكوين الأمة العربية. لقد بلغ هذا التداخل في بعض المراحل حد التطابق

---

(١) القومية العربية والإسلام (ص ١٠).

الكامل، وفي بعضها الآخر حدث بعض الاختلاف والتمايز، ولكن العروة الوثقى بينهما لم تنفصم أبدًا.

- **الاتفاق الثاني**: هو أن أي مشروع قومي للبعث الحضاري في هذه المنطقة لا يمكن أن يكتب له النجاح إذا لم يرتكز على أرضية التراث الإسلامي العربي.

- **الاتفاق الثالث**: هو أن الجانب السياسي التوحيدي لمشروع البعث الحضاري الكبير سواء كان في ظل الإسلام أو تحت راية القومية العربية - لا بد أن ينطوي على الالتزام بالمساواة والعدل بين المواطنين عربًا مسلمين أو عربًا غير مسلمين. الذين يريدون التوحيد في ظل الإسلام يؤكدون أن ذلك وارد في روح الإسلام والشريعة، وكل ما نحتاجه هو فرصة للاجتهاد والتجديد للوصول إلى الصيغة المناسبة لذلك. والذين يريدون التوحيد تحت راية القومية العربية يعتقدون أن صيغة واضحة لذلك لا بد من وجودها، وهي غير موجودة الآن في إطار الشريعة الإسلامية بشكلها الحالي. وبعضهم يرى في العلمانية صيغة معقولة للحل ولكنَّ الفريقين لا يختلفان على الالتزام مبدأ وتطبيقًا بخصوص المساواة والعدل والحرية لكل المواطنين العرب وغير العرب في الإطار السياسي لأي مشروع توحيدي عربي أو إسلامي أو عربي إسلامي.

- **الاتفاق الرابع** - والأهم في نظري -: هو أن المشروع الحضاري التوحيدي سواء كان مرتكزًا على الإسلام أو على القومية العربية أو عليهما معًا - ينبغي أن يكون مشروعًا نضاليًّا تحرريًّا استقلاليًّا تنمويًّا؛ فروح المشروع وأهدافه هي: تقليص التبعية بكل صورها (السياسية والاقتصادية والثقافية) لقوى الهيمنة الأجنبية، وتكريس أصالة المنطقة وتطور تنظيمها ومؤسساتها بحيث تخدم إنسان وجماهير الرقعة التي يشملها هذا المشروع الحضاري[1].

تعقيب ختامي (د. عبد العزيز الدوري):

وقد قدم الدكتور الدوري هذا التعقيب بناءً على طلب من المركز بعد انتهاء الندوة التي حضر كافة جلساتها. **هذا وسنعرض لمقتطفات مهمة توضح نقاط الالتقاء والخلاف بين الفريقين:**

- كانت ندوة القومية العربية والإسلام ندوة حوار، عُرضت فيها الاتجاهات والمفاهيم بوضوح وتركيز ونوقشت بصراحة وموضوعية... وتبين من الندوة أن الحاجة أكيدة إلى متابعة الحوار وإلى التوسع والتعمق في الدراسات.

---

(١) القومية العربية والإسلام. بحوث ومناقشات الندوة (ص ٧٣٨).

- لقد أوضحت الدراسات مفهوم العروبة ونطاقها البشري والجغرافي في الإطار التاريخي وأبانت عن قيامها على أساس لغوي ثقافي.

كما كشفت عن الترابط التاريخي العضوي بين الإسلام والعروبة في التكوين الثقافي والحضاري. وكان التلازم واضحًا بين الإسلام والعربية عبر التاريخ؛ فيهما تتمثل الحيوية، وبهما يجري كل تعبير عن الذات أو رد فعل على التحديات.

- وواجه العرب التحديات في العصور الحديثة في إطار الإسلام والعروبة. وهي وإن كانت تحديات واحدة في الأساس؛ إلا أن التأكيد في المواجهة لم يخل من تباين حسب الظروف والنظرة للأولويات.

- ويبدو من الدراسات أن البلاد العربية تحملت العبء الأكبر في مواجهة الموجة الغربية وفي محاولات الإحياء والتجديد في إطار الإسلام والعربية.

- ولئن كانت الصلة بين الإسلام والعروبة عبر التاريخ صلة ترابط وتوازٍ؛ فإنها تعرضت للاختبار في الفترة الحديثة، فما يبدو من تباعد بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه القومي حديث يرجع إلى أوائل القرن العشرين. ولعل بداية هذه الظاهرة تتصل بقيام الحركة القومية التركية من جهة وبانتشار الليبرالية من جهة أخرى.

- وجاء الحديث في الدراسات عن الصلة بين العروبة والإسلام في العصر الحديث حينًا، وبين القومية العربية والإسلام أحيانًا. وتبين أن الصورة ليست واحدة؛ إذ لا تناقض ولا تمايز بين الإسلام والعروبة في المغرب العربي، وأن التمايز اقتصر على بلاد المشرق العربي (الشام والعراق خاصة) في حين أن الإسلام كان باب التوجه المصري للعروبة.

- وكان الاتجاه الغالب في الندوة التقريب والتوفيق، وخاصة أن التحديات التي تواجه القومية العربية والإسلام واحدة: الاستعمار، والصهيونية، والتحرر، والمعاصرة.

- ويبقى الحوار بين التأكيد على أصول الإسلام - أساسًا شاملًا للبناء - والإفادة من التراث مع الانفتاح على العصر.

- ويبقى الترابط بين الإسلام والعروبة - تاريخًا وواقعًا - أرضية عامة للأمة العربية، وأساسًا في تحديد الهوية.

- هذا وأظهرت الندوة أهمية الحوار وضرورة متابعته لخير العربية والإسلام[١].

---

(١) القومية العربية والإسلام، تعقيب الدكتور الدوري، مقتطفات (٧٤١ - ٧٤٥).

ولنا ملاحظتان رئيسيتان على هذا الحوار، هما:

١ - كل الشخصيات الإسلامية والقومية التي ساهمت في هذا الحوار ليست شخصيات حزبية، ولا تمثل الحركات الإسلامية أو القومية، لكنْ لها تأثيرُها على الساحتين العربية والإسلامية.

٢ - كل ما أمكن التوصل إليه بعد هذا الحوار هو اعتراف كل تيار منهما بالآخر؛ بأهميته ودوره، والعمل على التقارب بين التيارين والتصالح بينهما بعد القطيعة والمواجهة التي مثلت الحقبة الزمنية في القرن العشرين.

ثانيًا: الحوار الثاني:

حيث أدت ظروف تطور الأحداث الدامية في سوريا في بداية الثمانينيات إلى لقاء بين الإخوان المسلمين في سوريا وبعض فصائل البعث والاتحاد الاشتراكي التي تقف ضد تسلط النظام السوري ودكتاتوريته، والتي شهدت حجم المأساة في سوريا من خلال مذابح مدينة حماة. وتمت لقاءات عدة وحوارات باردة حينًا وساخنة أحيانًا أخرى أسفرت عن (التحالف الوطني لتحرير سوريا) وصاغت وثيقة التحالف بصفتها تحمل المبادئ المشتركة التي يلتقي عليها العاملون في الحقل القومي والإسلامي، وهذه مقتطفات منهما:

(... كان لا بد أمام هذا الخطر الداهم الذي يهدد سوريا بتمزيق وحدتها الوطنية وتفتيت شعبها، وجعلها عرضة للهجمة الصهيونية والاستعمارية - أن ترتفع جميع الأطراف إلى مستوى المسؤولية التاريخية التي تحملها إياها طبيعة هذه المرحلة؛ فتنبذ خلافاتها، وتتجاوز سلبيات الماضي وتناقضاته وأخطاءه، وتبحث عن الإطار المشترك الذي يجتمع عليه أبناء هذا الشعب لتعمل يدًا واحدة من خلال المبادئ المشتركة على إنهاء الفرقة المصطنعة بين العروبة والإسلام، وإيجاد تحالف وطني بين هذه القوى مفتوح أمام الجميع، قادر - بإذن اللَّه - على إسقاط نظام الخيانة، وإرساء الأسس الصالحة لحياة سياسية نشطة ومتفتحة تكون سوريا في ظلها مصدر إشعاع في جميع المجالات الوطنية والعربية والإسلامية).

وتعبيرًا عن المعاني الوطنية السامية والتزامًا بها؛ فقد اتفق أطراف التحالف على المبادئ الآتـيـة:

١ - العمل الجاد الدؤوب لإسقاط النظام الحالي؛ باعتماد كافة الوسائل السياسية والإعلامية والجماهيرية والعسكرية لتحقيق هذا الهدف، وعلى رأس هذه الوسائل الكفاح الشعبي المسلح.

٢ - محاكمة كبار المسؤولين في هذا النظام عن جرائمهم التي ارتكبوها في حق الشعب والوطن.

٣ - تأليف حكومة مؤقتة تقوم فور إسقاط النظام الحالي، وتعمل بأسرع وقت ممكن بالإشراف على انتخاب مجلس تأسيسي بغرض تأسيس دستور دائم للبلاد.

٤ - الإسلام دين الدولة، والشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع والتقنين باعتبارها تراثًا حضاريًا وفقهيًا للعرب والمسلمين كافة؛ بل وللإنسانية جمعاء، لا يمس تطبيقها حقوق غير المسلمين في عقيدتهم وأداء شعائرهم، وتطبيق قوانينهم الخاصة بهم بكل حرية وأمان.

٥ - ضمان الحريات العامة لجميع المواطنين في سوريا، وفي مقدمة ذلك حرية الاعتقاد والتعبير والاجتماع، وتأليف الأحزاب السياسية.

٦ - إعادة بناء الجيش العربي السوري، وسائر مؤسسات الدولة على أساس الإخلاص والكفاءة ومبدأ تكافؤ الفرص - بما يعيد ويحفظ الوحدة الوطنية في سوريا ضمانًا لدورها الرائد في المنطقة.

٧ - معالجة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة، وإعادة بناء الاقتصاد السوري على أسس متينة وبما ينهي بكل حزم حالة الاستغلال والسلب والنهب والرشاوى. ودعوة الخبرات والطاقات المهاجرة لتساهم في إعادة بناء البلاد.

٨ - إنقاذ العمال والفلاحين والفئات الكادحة من عبث النظام في مكتسباتهم، والعمل على تعزيز هذه المكتسبات التي حققوها في نضالهم الطويل منذ فجر الاستقلال.

٩ - إعادة النظر في المناهج الدراسية، والمعاهد العلمية، وجميع مؤسسات الدولة بما ينقذها من حالة التردي الراهنة، ويؤهل البلاد للاضطلاع بمسؤولياتها الكاملة.

١٠ - التعويض الكامل لذَوي الشهداء والمتضررين والمصابين في مرحلة الصراع ضد النظام الخائن.

١١ - الإيمان المطلق بتحرير فلسطين من الاغتصاب الصهيوني والتنمية الإمبريالية، واعتماد كافة الوسائل التي لا تفرط في الحق العربي والإسلامي فيها والسعي لتعبئة كل الطاقات البشرية والعسكرية والسياسية من أجل التحرير.

١٢ - التضامن الكفاحي من أجل الثورة الفلسطينية، وممثلها الشرعي الوحيد منظمة

التحرير الفلسطينية[1] من أجل تحقيق أهداف الشعب العربي الفلسطيني في التحرير واستعادة وطنهم.

١٣ - النضال الجاد لإقامة الوحدة العربية، وبذل كل الجهود لاتخاذ خطوات وحدوية عملية في هذه السبيل.

١٤ - العمل الجاد من أجل إقامة أوثق العلاقات العربية والأخوية مع الدول العربية الشقيقة، وحشد جميع الطاقات لمواجهة الأخطار التي تهدد الوجود العربي.

١٥ - إقامة أوثق العلاقات الأخوية مع العالم الإسلامي شعوبًا ودولًا ومنظمات بما يعزز من دور الرسالة الإسلامية في العالم أجمع؛ باعتبار أن الإسلام هو عمق إستراتيجي ومبدئي للعرب وروافد أساسية للشعب العربي.

١٦ - عدم التورط في الصراعات الدولية، وعدم الانحياز إلى الكتل الدولية والالتزام بمبادئ حركة عدم الانحياز واعتماد سياسة خارجية مستقلة.

إن سوريا التي كانت أول بلد حقق الاستقلال التام في العالم العربي لجديرة بأن تتجاوز مأساتها، وإن الأطراف المشاركة في هذا التحالف لتطمح أن يكون هذا الميثاق محورًا للحركة الحالية وإطارًا للمستقبل الدستوري والعملي للسياسة السورية. وإن هذه الأطراف كلها لتأمل أن تكون الجمهورية القادمة في سوريا معقد الأمل ومحط الرجاء على المستويين العربي والإسلامي.

وقد حرصت أطراف هذا التحالف على أن يجتمع في سيرها الأصالة مع المعاصرة، والأخلاق مع التقدم، والعدالة مع إطلاق الطاقات. وهي إذ تسأل اللّٰه التوفيق، وتسأله النصر؛ فإنها تناشد شعوب العالم وقادته دعمها في كفاحها العادل لإنقاذ سوريا من المأساة التي تعانيها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

[١٥ جمادى الأولى سنة ١٤٠٢هـ/ الموافق ١١ آذار ١٩٨٢م]

ثالثًا: الندوة الثانية للحوار القومي الديني (١٩٨٩م):

يمكن أن نأخذ مقتطفات عنها من المقدمة التي كتبها (محسن عوض) مدير مكتب مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة سابقًا:

---

(١) لم تكن المنظمات الإسلامية الفلسطينية المسلحة قد قامت بعد. والتي نشأت عام (١٩٨٧م) وما بعدها.

(.. جاءت دعوة مركز الدراسات العربية إلى عقد هذا الحوار، ووجدت استجابة طيبة لدى عدد من المفكرين القوميين والإسلاميين. وأمكن معها أن يجتمع نحو خمسين من مفكري التيارين خلال الفترة (٢٥ - ٢٧) أيلول سبتمبر في القاهرة واستمر لمدة ثلاثة أيام وناقش ثماني أوراق عمل وجدول أعمال يضم أهم القضايا المثارة وأكثرها إثارة للجدل.

قضايا الحوار:

في هذا الإطار غاص المتحاورون في ستة محاور رئيسية تمثل جوهر الجدل المثار بين التيارين تتعرض لـ:

١ - جامِعي العروبة والإسلام.

٢ - موقف كلا التيارين من مبدأ المواطنة.

٣ - ومن الفكر والمؤسسات الحديثة والتقليدية.

٤ - ومن الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

٥ - ومن النظام السياسي ومن الأوضاع السياسية.

٦ - دعوة كل طرف إلى نقد ذاته.

- **كانت مناقشات المحور الأول** (جامعي العروبة والإسلام) متقاربة تنفي وجود تناقض بين العروبة والإسلام...

- **أما المحور الثاني** الذي ناقش حقوق المواطنة ومدى ما تشمله من مساواة بين المختلفين في الدين والمختلفين في اللغة في المجتمع الإسلامي؛ فقد كان مثيرًا للجدل، وبخاصة إزاء حقوق الأقليات.. وتم جلاء موضوع الجزية التي عادة ما تثار في أدبيات الإخوة المسيحيين بأنها إنما كانت ضريبة جندية سقطت عن الذين انخرطوا في جيش الدولة، وأنها لم تعد واردة اليـوم.

- أما بخصوص موقف كل من التيارين حيال الفكر والمؤسسات الحديثة والتقليدية فقد شمل الحوار حوله مجالات التفاعل مع منجزات الغرب العلمية والتقنية مع المحافظة على الهوية الحضارية والقومية..

- وكما هو متوقع كانت الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية هي أكثر الموضوعات إثارة للجدل وجذبًا للنقاش، سادها اتجاه حاسم بين التيار الإسلامي بأنها ركن من أركان العقيدة الإسلامية غير قابل للجدل، وأكدوا عدم تعارضها مع الحداثة والمعاصرة، وأكدوا

أن التطبيقات الخاطئة في بعض البلدان ليست حجة في القضية..

ومقابل هذا الاتجاه الحاسم بين التيار الإسلامي كان هناك اتجاهات متنوعة داخل التيار القومي؛ بعضها معارض بشدة لهذه الدعوة يرى أنه لا مناص من فصل الدين عن الدولة والأخذ بالعلمانية، بينما اتجه آخرون إلى أن المشكلة تكمن في فهمنا لتطبيقات الشريعة الإسلامية، وفي فهمنا لشعار العلمانية. فإذا كان المقصود بتطبيق الشريعة الإسلامية أن تحافظ الدولة على مبادئ الإسلام الكبرى وتستمد الكثير من تشريعاتها من تلك المبادئ؛ فنعم، وإذا كان المقصود أن تكون الدولة دينية، تكون سلطة الحاكم فيها مستمدة من اللَّه؛ فهذا غير صحيح..

- وشمل الحوار حول النظام السياسي الموقف من فكرة الحرية، ومدى الالتزام بها، ومفهوم المساواة السياسية والتعددية السياسية بمعنى تكوين أحزاب متعددة، ودلالة الشورى في مجتمعاتنا. وجاء الحوار في هذه الموضوعات هادئًا ومتقاربًا. كما عبر كلا الجانبين عن الدعوة إلى مزيد من الضمانات للحرية وحقوق الإنسان. وقد عبر أحد المشاركين عن ذلك قائلًا: الحقيقة أننا في مواجهة النظام السياسي نجد أنفسنا - إسلاميين وقوميين - في موقف واحد أو متقارب.

وبالمثل سادت المناقشات حول قضية الأوضاع السياسية رؤية متوافقة، واتجهت المناقشات نحو قضايا الحاضر والمستقبل أكثر مما غاصت في شؤون الماضي... وفي قضايا العمل القومي والعربي والإسلامي تصدرت قضية تحرير فلسطين ومقاومة الصهيونية قضايا الالتقاء..

- لم يقتصر الحوار بين التيارين على نقد موقف كل منهما للآخر؛ وإنما شمل نقد كل تيار لذاته إزاء فكره وممارساته.

بدأ التيار القومي نقده لذاته وقدم ما يزيد على خمس عشرة مسألة نقدية شملت الفكرة والممارسة... ولم يقلّ التيار الإسلامي شجاعة في نقد ذاته وعبَّر عن عدد مماثل من الملاحظات...

وبعدُ، فقد تكون النتائج التي توصل إليها هذا الحوار مهمة، وقد تفتح الباب ليس لفضّ الاشتباك بين أهم تيارين سياسيين في الوطن العربي فقط؛ ولكن أيضًا لتعاون مستمر وبناءٍ بين تيارين متداخلين هما أحوج ما يكونان إلى التساند وجمع الجهود من أجل مصلحة الأمة[1].

---

(١) الحوار القومي الديني أوراق عمل مناقشات الندوة الفكرية، المقدمة (ص ٧ - ١٨) مقتطفات.

ونصل إلى نتيجة حاسمة: أن هذا الحوار لم يثمر جديدًا إلا محاولة فض الاشتباك بين التيارين، والدعوة إلى التعاون بينهما لمصلحة الأمة. أما في قضية العودة إلى الإسلام وقبول شريعة اللَّه حكمًا على الجميع؛ فهذا ما لم يمكن التوصل إليه إلا في الثناء العام على المبادئ العامة للإسلام.

كما أننا نلاحظ أن هوية المشاركين في هذه الندوة تحمل العديد من أبناء الحركات الإسلامية والقومية في الوطن العربي، وليست مجموعة مفكرين مستقلين.

رابعًا: الدورة الطارئة للمؤتمرين القومي العربي والقومي الإسلامي:

وكانت هذه الدورة خلال اليوم الخامس عشر من أكتوبر (تشرين الثاني) عام (٢٠٠٠م) وخُصصت لقضية فلسطين و (استجابة للوقائع التي أطلقتها الانتفاضة وعززتها المقاومة في لبنان ورفدتها حركة النهوض الشعبي في الشارع العربي والإسلامي وَرَدًّا قوميًّا إسلاميًّا على محاولات إخماد الانتفاضة ووأد النهوض الجماهيري والمساومة على دماء شهدائها وتضحيات شعب فلسطين)[١].

وكانت أهم توصياتها:

١ - اعتماد المقاومة كسبيل وحيد للتحرير ووقف المفاوضات بأشكالها كافة، وإلغاء اتفاقيات الإذعان والإملاء وملحقاتها، لا سيما اتفاقية أوسلو، ومواصلة الانتفاضة بفعالياتها المختلفة حتى التحرير الكامل[٢].

ولأن قضية فلسطين قضية قومية وقضية إسلامية؛ فالنظرة إليها واحدة؛ ولهذا لم يقم المؤتمر القومي الإسلامي فقط بالمشاركة فيها؛ بل شارك المؤتمر القومي كذلك، وقد أكدوا التفاعل العربي الإسلامي في واحدة من الثوابت التي قرروها وهي:

٢ - أن الأحداث الجارية في فلسطين والوطن العربي والعالم الإسلامي وفي أماكن الانتشار العربي الإسلامي - أظهرت وحدة شعورية نضالية سياسية تثبت أن وحدة هذه الأمة تستعصي على إجراءات التجزئة والأقلمة؛ ما ينبغي أن يعزز السعي إلى توكيد هذه الوحدة وتطهيرها وتنظيمها والاستفادة من قوتها[٣].

لقد عدد المؤتمرون القوميون والإسلاميون سبع ثوابت وحقائق، وتقدموا بثمان وعشرين توصية من أجل القضية الفلسطينية.

---

(١) (المستقبل العربي) البيان الختامي للمؤتمر (ص ١٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٩).

(٣) المصدر السابق (ص ١٣٨).

أما في مجال تحقيق الدعوة والامتزاج مع الإسلام كدين فلم يتقدم القوميون خطوة واحدة في هذا المجال، وهي المواقف السابقة نفسها التي برزت في الحوارين السابقين المذكورين.

خامسًا: المؤتمر القومي التاسع:

والحقيقة أن الحوار الداخلي أثبت أنه هو الأجدى من الحوار المعلن، ومراجعة الذات أدنى إلى الاقتراب من الحقيقة. فما هو المؤتمر القومي التاسع؟

عقد المؤتمر القومي العربي دورته التاسعة في بيروت على مدار أربعة أيام (١٥ - ١٨ آذار (مارس) ١٩٩٩م) وبمشاركة (٢٢٠) شخصية ثقافية وسياسية ونقابية ناشطة في الحياة العربية؛ وذلك لتدارُس حالِ الأمةِ واستعراض وسائل وإمكانيات مواجهة التحديات الراهنة، ولا شك في أن هذه الاستمرارية في انعقاد دورات المؤتمر منذ عقد دورته الأولى في تونس عام (١٩٩٠م) تمثل ظاهرة إيجابية في حدود ما هو سائد في الوطن العربي. ولقد بدأ المؤتمر سباقًا في الزمان والمكان للتأكيد على ضرورة (الحل القومي العربي) لما يواجه الأمة العربية من تحديات قائمة.

... واليوم يتأكد للجميع من جديد - حكامًا ومحكومين - أن الأمل الحقيقي للأمة العربية في دخول القرن الحادي والعشرين إنما يتمثل في (الحل القومي العربي) للمشكلات التي تواجهه.

من هم المؤتمرون؟

نحب أن نشير إلى أن هذا المؤتمر يمثل أكبر شرائح دعاة القومية في الوطن العربي فهو أكبر من حزب محلي وحركة قُطرية وتجمُّع نخبوي. جاء وصفه كما يلي:

(ولقد جاء تكوين المؤتمر في دورته التاسعة ليعكس مدى اتساع الوعي العربي بالحاجة إلى مؤسسات وآليات للعمل والفكر على المستوى القومي. وتكفي في هذا السياق إشارة سريعة إلى بعض المؤشرات؛ فهذا المؤتمر ابتداء شارك في أعماله (٢٢٠ عضوًا) وهو عدد يتجاوز أي دورة سابقة للمؤتمر. وفضلًا عن ذلك فقد ضم هذا المؤتمر مشاركين من تسعة عشر بلدًا عربيًا - وهو رقم قياسي جديد أيضًا - حيث لم يشارك في أعماله أي عضو من ثلاث دول عربية فقط هي: عُمان والصومال وجيبوتي - ثم إن نوعية الحضور بدورها بعد هذه المؤشرات الكمية تستحق التوقف عندها. وعلى سبيل المثال: شارك في أعمال هذه الدورة (٦) من رؤساء الحكومات السابقين، و (٢٠) وزيرًا سابقًا و (١٦) نائبًا برلمانيًا

حاليًّا وسابقًا، و (٢٧) من أساتذة الجامعات، و (٢٣) من كبار الصحفيين والكُتَّاب... إلى جانب (١٦) من رؤساء ومديري تحرير عدد من كبريات الصحف العربية وكذلك من مديري عدد من مراكز البحوث العربية المرموقة، و (٢٥) من رؤساء وأمناء عامِّين وأمناء مساعدين لعدد من الأحزاب العربية، و (١٢) من رؤساء وأعضاء المنتديات الفكرية القومية في أكثر من بلد عربي، و (٥) من قادة منظمات حقوق الإنسان الوطنية والعربية).

ماذا يبحثون؟

انتقل المؤتمر لبحث أوضاع الأمة العربية وقضاياها البارزة؛ حيث استعرض د. مجدي حماد منسق تقرير (حال الأمة) أبرز التطورات والتفسيرات التي تضمنها تقرير (حال الأمة) (١٩٩٨م) والتي تدور حول ثمانية محاور أساسية:

أولها: العرب والعالم.

وثانيها: الصراع العربي - الصهيوني.

وثالثها: الأمن القومي العربي.

ورابعها: النظام العربي.

وخامسها: التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية.

وسادسها: العلم والثقافة.

وسابعها: الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وثامنها: الجاليات العربية في المهجر.

ما هي الحلول للتغيير؟

أين الإسلام من عملية التغيير؟

لا وجود له. ومعالم هذا التغيير: (أن التغيير المطلوب ينبغي أن ينفذ إلى عمق الأمة فيصوغ القيم والمعتقدات كما يصوغ النظم والمؤسسات؛ وبالتالي يستبق خطرًا داهمًا في حركة الأمة التي يبدو فيها أحيانًا - من فرط الجمود فيها - أنها تتجه إلى القرن التاسع عشر لا إلى القرن الحادي والعشرين؛ فالأساس هو الحل القومي العربي.

نجد الحديث عن التيار الإسلامي في مكان يتيم واحد؛ حيث يسوي بينه وبين الليبرالية واليسار **فيقول التقرير:**

(مع التأكيد على أن ذلك الحل القومي العربي لا يقف في جزيرة منعزلة مدعيًا احتكار

الحكمة والوطنية؛ وإنما يدخل في المفهوم الجديد للتيار القومي. التيارات الأساسية الفاعلة على الساحة العربية وبصفة خاصة التيارات الإسلامية والليبرالية واليسارية؛ لأن (القومي) يمكن أن ينتمي إلى هذه التيارات بغير تناقض أو ازدواج؛ فيكون قوميًّا ويكون في الوقت نفسه مسلمًا وليبراليًّا ويساريًّا، وهو ما تأكد عندما عمد التيار القومي بمبادرة منه إلى تنظيم حوارات مع التيارات الأخرى وبصفة خاصة الحوار القومي اليساري والحوار القومي الديني، كما تبلور عمليًّا في تدشين دورات انعقاد (المؤتمر القومي الإسلامي) التي أكدت أن ما يجمع ويوحد بينهما أكثر بكثير مما يمكن أن يفرق، وفي الحقيقة لا يفرق بقدر ما يحدد جوانب التميز والخصوصية)[1].

إذن – حتى هذه اللحظة – العلاقة بين القوميين والإسلاميين علاقة حوار، نقاط الالتقاء الكبرى فيها على القضايا القومية المهمة مثل قضية فلسطين. وفي قضايا الحرية وحقوق الإنسان هناك تقارب في المواقف، أما أكثر الموضوعات خلافًا وإثارة للجدل وجذبًا للنقاش فهي قضية الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وهي القضية الأولى عند التيار الإسلامي.

سادسًا: حزب البعث يولد من جديد في سوريا:

لقد كان دستور حزب البعث ثم الدستور السوري عام (١٩٧٣م) يمثل آخر مراحل التطور الفكري للحزب، وبعد ثلاثين عامًا تقريبًا (٢٠٠٢م) يطرح الحزب مقولات جديدة بحاجة إلى التوقف عندها بإمعان؛ ففي موقع الحزب الإلكتروني وتحت عنوان: « بعض المقولات الأساسية حول تطوير الحزب » – كان هذا التقرير.. أما فقرات التطوير المطروحة فهي بعد المقدمة:

١ – المسألة التنظيمية.

٢ – المسألة الفكرية.

٣ – الموقف من قضية الوحدة.

٤ – قضية الحرية (الديمقراطية، المنظمات الشعبية).

٥ – الاشتراكية.

٦ – الموقف من الدين.

---

(١) المستقبل العربي (المؤتمر القومي العربي التاسع)، (ص ١٦٦، ١٦٧).

٧ - موضوع الحداثة.

٨ - موضوع العولمة.

- خاتمة.

ويتحدث في المقدمة عن ضرورات التطوير قائلًا:

إن الحاجة باتت ملحة لتطوير الحزب فكريًّا وتنظيميًّا في إطار المحافظة على مبادئه الأساسية، وفي ضوء معطيات الواقع ومتطلباته، وتحصين نهج الحركة التصحيحية، وتعزيز دور الحزب عبر المراجعة والتجديد والتطوير...

إن التطوير الفكري لا يعني التخلي عن المبادئ الأساسية؛ وإنما اختيار النهج الأفضل لضمان ترسيخ هذه المبادئ وتحقيقها والابتعاد عن الجمود في فهمها، والتحلي بالقدرة على ترسيخ الوعي المتجدد؛ إذ إن الجمود الفكري يعني موت الحزب وتراجع دوره[1].

لقد تقلب الحزب في أفكاره منذ عام (١٩٤٧م) وكتابة دستوره إلى عام (١٩٧٣م)

في أربعة تطورات فكرية مهمة خلال ثلاثين عامًا، وهي:

١ - الدستور.

٢ - مقررات المؤتمر القومي الرابع.

٣ - بعض المنطلقات النظرية في المؤتمر القومي السادس.

٤ - الدستور السوري.

بينما بقي على جموده منذ عام (١٩٧٣م) إلى عام (٢٠٠٢م).

وها هي محاولة الإحياء من جديد، وهو التعبير الذي اختاره الحزب لنفسه:

إن الجمود الفكري يعني موت الحزب وتراجع دوره.

فما هي القضايا المهمة الجديدة المطروحة في فكر الحزب؟

١ - يتحدثون عما يجب التركيز عليه في المسألة الفكرية فيقولون:

(أهم ما يجب التركيز عليه في المراجعة الفكرية أن يعزز البعثيون نضالهم لتحقيق مشروع قومي عربي تمثل مبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي حاضنته وقاعدته الأساسية)[2].

---

(١) المقدمة (ص ١، ٣).

(٢) المسألة الفكرية (١/ ٥).

ولن نتناول إلا ما يخص بحثنا من حيث علاقة حزب البعث العربي الاشتراكي بالدين عامة وبالإسلام خاصة، من خلال حوار داخلي ومراجعة في داخل الحزب، وهو الذي ثبت جدواه وتأثيره أكثر من الحوار العلني والمحاجة والمجادلة. ونشير إلى ما يأتي:

١ - لم يسبق لحزب البعث في أدبياته وفي مبادئه أن تعرض للدين أو الإسلام بشكل مباشر. ودستوره - كما سبق وقلنا - لم يذكر الدين ولا اللَّه ولا الإسلام ولا بكلمة واحدة.

٢ - لكنه في تطوره الثاني من خلال مؤتمره القومي الرابع يتناول الدين بصفته السلبية من خلال النقاط الآتية:

أ - اعتبار الحركات الدينية حركات رجعية.

(تقوية الحركات الرجعية وخاصة الدينية منها للوقوف في وجه الحركة الشعبية، وقد ساعدت الظروف التي أوجدها الشيوعيون بانتعاش هذه الحركات).

ب - الرجعية الدينية إحدى المخاطر التي تهدد الانطلاقة التقدمية.

(التوصية الرابعة: يعتبر المؤتمر القومي الرابع الرجعية الدينية إحدى المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة).

جـ - الطائفية الإسلامية.

(سيكون نضالنا في هذه المرحلة حول تأكيد علمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي لاستقطاب قاعدة شعبية - لا طائفية إسلامية - من كل فئات الشعب وطبقاته).

٣ - الدين في المرحلة الثالثة (المنطلقات النظرية):

أعلن بشكل سافر عن أن عقيدة الحزب هي الاشتراكية العلمية، ويجب التحرر من الماضي كله بما فيه الدين.

(تربية المواطن تربية اشتراكية علمية:

أ - تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة.

ب - لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح.

جـ - ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة ويؤمن بقيم جماعية).

٤ - الدين في مرحلة الدستور من (١٩٧٣ - ٢٠٠٢م):

أ - في المبادئ الأساسية للدستور نجد المادة (٣) تقول:

١ - دين رئيس الجمهورية الإسلام.

٢ - الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع.

وهو تطور جديد وإن لم يكن تطورًا مهمًّا فالفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع مع مصادر رئيسية أخرى. وهذا الأمر قائم في ميثاق الأمم المتحدة التي تعتبر الدين والعرف من المصادر الرئيسية للتشريع في الأرض.

لكننا سميناه تطورًا؛ لأنه ذكر الدين بصورة إيجابية.

ب - كما ذكر في مكان آخر القسم باللّه العظيم بينما كان من قبل (بشرفي ومعتقدي) وقد سماه القسم الدستوري.

جـ - وهي تحترم جميع الأديان وتؤمن بحرية الاعتقاد.

المادة (٥): ١ - حرية الاعتقاد مصونة وتحترم الدولة جميع الأديان.

٢ - تكفل الدولة حرية القيام بجميع الشعائر الدينية على أن لا يخل ذلك بالنظام العام.

٥ - الدين في المرحلة الأخيرة (اليوم) (مرحلة البعث الجديد للبعث):

حيث تفرد له فقرة مستقلة تعدل صفحتين من سبع عشرة صفحة.

٦ - الموقف من الدين:

وها نحن نعرض هذا الموقف كاملًا كما ورد في (بعض المقولات الأساسية في تطوير الحزب) ولن يكون لنا فيه إلا العناوين التي توضح الفقرات المتداخلة. وما عدا هذه العناوين الجانبية فالكلام كلام الحزب في فهمه المتطور الجديد:

١ - الدين والتدين هو الذي يميز الثقافة العربية: (لا شك أن مسألة الدين والتدين تحتل حيزًا خاصًّا في مجمل الثقافة العربية؛ بل إن هذه المسألة بالذات تعتبر واحدة من أهم ما يميز الثقافة العربية عن غيرها من الثقافات، ويؤكد جوهرها الإنساني وعمق مضامينها الفكرية).

٢ - الأرض العربية مهد الرسالات السماوية والأمة العربية حاضنتها: (فالأرض العربية تتميز عن غيرها بأنها مهد الرسالات السماوية والديانات، والأمة العربية تتميز في أنها كانت حاضنة هذه الديانات وحاملة لواءها وناشرة قيمها).

٣ - الدين الإسلامي عبَّر عن قيم الأمة العربية: (ويظهر التمازج الحقيقي بين العرب والأديان في أبهى صورة عبر الدين الإسلامي الذي أكد بوضوح على القيم التي آمن بها العرب عبر تطورهم التاريخي، وهي قيم التسامح والمحبة والدعوة للخير والعمل وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة في المجتمع ومناهضة الظلم والطغيان ومقاومة العدوان والاحتلال والدفاع عن

الكرامة، وهو ثورة على التخلف والتعصب والفُرقة والتشرذم، ودعوة للوحدة والتضامن).

٤ - **الإسلام حوَّل القيم إلى قوة محركة وموحدة:** هذه القيم حملتها كل الديانات إلا أن الإسلام حولها إلى قوة حركت الأمة العربية وَوَحَّدَتها وحرضت طاقتها الحضارية وجعلتها واحدة من إحدى أهم الأمم وأعلاها شأنًا عبر عصور متوالية. ثم وصل دور الأمة إلى مرحلة الجمود عندما تفككت الدولة الواحدة وسادت التناقضات بين الكيانات. وجاء الغزو الصليبي والاستعمار الغربي الذي عمل على تمزيق العرب وإضعافهم عبر استهداف هويتهم الثقافية والحضارية خدمة لمشاريعه في السيطرة والهيمنة.

٥ - **الدين مكون أساسي من مكونات الشخصية العربية:** إن مشروع النهضة العربية يؤكد على التواصل بين الأصالة والتحديث، بين التراث ومتطلبات العصر؛ فإن هذا يشمل أيضًا الموقف من الدين باعتبار الدين مكونًا أساسيًّا من مكونات الشخصية العربية.

٦ - **بين الاستغلال والتحامل وإساءتهما للدين:** (وعلى هذا الأساس يميل الإنسان العربي نحو التدين، وتظهر محاولات لاستغلال هذا الميل ودفع الناس إلى مواقف ليست من الدين في شيء، وفي المقابل نرى بين بعض التقدميين والقوميين من يقفون موقف المتحامل على الدين نتيجة انتقاداتهم لتحجر عقول بعض مستغلي الدين والمتاجرين به. إن هذين الموقفين - استغلال ميل الناس للتدين وما يقابل ذلك من تحامل على الدين - هما موقفان يسيئان إلى الدين وإلى القومية والتقدمية في الوقت نفسه. ولا بد من معالجة هذه المظاهر والإشارة إلى خطر تفاقمها وتصاعدها وتهديدها للوحدة الوطنية).

٧ - **الفكر القومي يؤكد على الترابط والتكامل بين العروبة والإسلام:** (وهذه المعالجة ضرورية وممكنة؛ وخاصة أننا نشهد تعزيزًا مستمرًّا للفكر القومي الذي يؤكد على الترابط بين العروبة والإسلام في أذهان عامة الناس. والذي يعمل على ترسيخ هذا الترابط بشكل منظم عبر التربية والإرشاد والإعلام وغير ذلك من مكونات بناء الإنسان.

وتحقيقًا لهذه المهمة يجب إعادة التأكيد على العلاقة التكاملية بين العروبة والإسلام، ومواجهة كل المحاولات الرامية إلى وضع حواجز بينهما وإظهارهما في مظهر متناقض وفي حالة عداء. وتتطلب هذه القضية التأكيد على ما يأتي:

١ - احترام الأديان وحرية التدين لكل المواطنين.

٢ - أن الإسلام - بوصفه تعبيرًا عن جوهر الثقافة العربية الإنسانية - كان العامل الرئيسي في نهوض العرب وانتقالهم إلى عصر الفعل والوحدة؛ حيث أسس العرب استنادًا إلى قيم

الإسلام حضارة إنسانية راقية لا يزال العالم مدينًا لها في تقدمه وتطوره المبني على الأسس التي وضعتها. وقيم الإسلام التي تم ذكرها تمثل قاسمًا مشتركًا بين كل العرب من مسلمين ومسيحيين.

٣ - وبما أن قيم الإسلام تعبير عن جوهر الثقافة العربية الواسع؛ فإن محاولات استغلال الإسلام لخدمة أغراض سياسية لبعض الجماعات تسيء إليه، وتضيق من أطره الواسعة وقيمه الشاملة؛ وهذا يؤدي إلى تفتيت الوحدة الوطنية للشعب والأمة...

كما أن التطرف والتعصب والدعوات الطائفية والمذهبية والقبلية والإقليمية تتنافى مع الأديان وقيمها.. وعلى وجه الخصوص مع جوهر الإسلام وقيمه التي تدعو إلى الوحدة والتسامح والنضال ضد الظلم والعبودية والاستغلال والتفاهم والتشارك.

٤ - إن حزب البعث العربي الاشتراكي إذ يؤكد نهجه العلمي - يشير إلى أن هذا النهج لا يتعارض مع القيم الحقيقية للأديان، كما يؤكد أهمية تعزيز تلك القيم وخاصة تلك التي تدعو إلى النضال ضد الظلم والاحتلال والاستغلال.

وتحض على العمل والكرامة وتحرير الإنسان وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين والتسامح والدعوة للخير، والوحدة الوطنية، وتدعو إلى الدفاع عن الوطن وتحرير أرضه المحتلة، وتكاتف الجميع في مواجهة الطامعين بأرضنا وأمتنا، وفي التعامل مع تحديات العصر ومتطلباته.

٥ - وحزب البعث العربي الاشتراكي يواجه ويعارض الاتجاهات التي تنادي باستخدام الدين وسيلة لتحقيق المصالح الخاصة. وإظهاره بمظهر العائق في طريق تطور الأمة وتقدمها وتحويله إلى أحزاب تجعل منه أداة للتفريق بين الناس.

كما يؤكد على خطورة كل محاولة للعزل بين الإسلام من جهة والعروبة والقومية والتقدم من جهة أخرى بغض النظر عمَّا إذا جاء ذلك من الذين يدَّعون أنهم في جانب الإسلام أو أولئك الذين يدَّعون أنهم في جانب العروبة أو التقدم أو الاشتراكية.

إن الادعاء بوجود تناقض بين العروبة والإسلام يتنافى مع المنطق والوعي الصائب ومعرفة التاريخ وفهم الجوهر التكاملي للوجود العربي.

إن هذه القضايا تتطلب معالجة مستمرة على أساس وعي حقيقي متفهم يساهم في الاستفادة من توجه الناس نحو الدين عبر تأكيد قيم الدين الحقيقية وخاصة النضال والكفاح ضد العدوان والظلم والاستغلال بكل أنواعه. ولقد أثبتت هذه القيم فاعليتها في جنوبي لبنان

وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ إذ برزت القيم الحقيقية للدين كواحد من أهم محرضات النضال والكفاح والشهادة من أجل عزة الوطن واستعادة حقوق الأمة[1].

ما هو سر إغفال الشريعة؟

لقد تقدم البعث شوطًا كبيرًا في موقفه من الإسلام، ويكاد يكون بمثابة انقلاب في طروحه الرسمية.

والانتقال من تجاهل الإسلام كلية وتبني غيره، أو ذكره من الجانب السلبي فقط إلى:

١ - احترام عقيدته.

٢ - تبني قيمه.

٣ - اعتباره جوهر الثقافة العربية والإسلامية.

٤ - اعتبار الإسلام والعروبة مترابطين متكاملين لا ينفصلان.

٥ - محاربة كل محاولة لإيجاد التناقض بين العروبة والإسلام.

٦ - اعتباره من أهم محرضات النضال والكفاح والشهادة من أجل عزة الوطن.

٧ - اعتباره المحرك والمكون للأمة العربية في الماضي.

٨ - الأمة العربية هي حاضنة الديانات وحاملة لوائها وناشرة قيمها بين البشر.

٩ - لا تعارض بين النهج العلمي والقيم الحقيقية للأديان وخاصة الإسلام.

١٠ - اعتباره العامل الأساسي الرئيسي في نهوض العرب وانتقالهم إلى عصر الوحدة، وتم تأسيس الحضارة العربية الإنسانية استنادًا إلى قيم الإسلام ومبادئه.

١١ - قيم الإسلام تمثل قاسمًا مشتركًا بين كل العرب من مسلمين ومسيحيين.

نقول: إن هذا ليس انتقالًا فقط؛ بل نقلة كبرى في تاريخ الحزب. لقد قطع الحزب نحو الإسلام ثلثي الطريق، ووقف عند الثلث الأخير « **الإسلام: عقيدة وشعائر وشريعة** ».

لقد تم احترام العقيدة والعبادة والأخلاق، أما الشريعة فكأنها غير موجودة ألبتة.

نُذكِّر الحزب بموقع الشريعة في الإسلام أولًا من الإسلام الذي يثنون عليه ومن نص القرآن:

١ - ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

---

(١) بعض المقولات الأساسية حول تطوير الحزب (٦) - الموقف من الدين.

٢ - ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

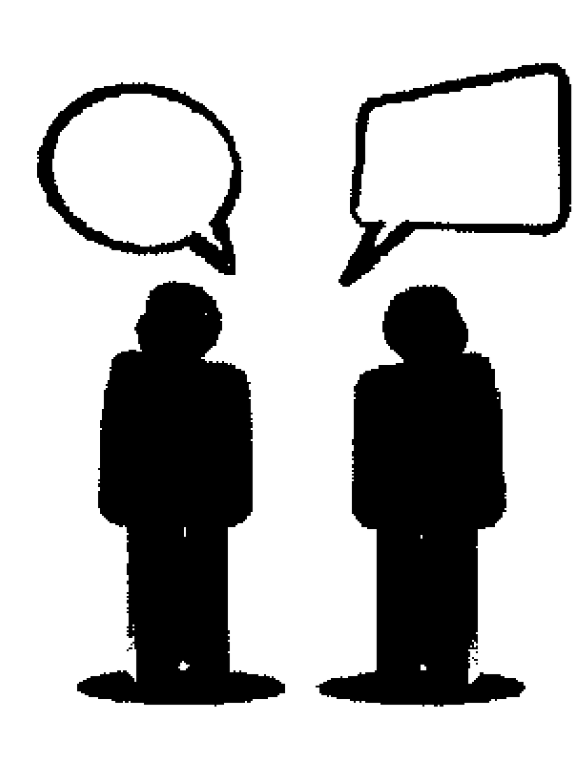
٣ - ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

٤ - ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

٥ - ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

٦ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

* * *



حوار الحضارات

الحضارة بالمعنى الاصطلاحي مستحدثة لم تكن قبل القرون الحديثة، والظاهر أنها مترجمة.

أما معناها القديم كما هي في القاموس المحيط:

(الحضارة: الإقامة في الحضر، وهي عكس البداوة)[١].

وفي المعجم الوسيط يُعرض معناها اللغوي والاصطلاحي؛ فالمعنى اللغوي: الحضارة: الإقامة في الحضر. قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا[٢]

أما المعنى الاصطلاحي كما عرفها المجمع اللغوي بالقاهرة:

(هي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي)[٣].

والصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي صلة وثيقة؛ فالانتقال من البداوة ورعي الإبل إلى المدنية، والقرية والاستقرار فيها، واعتماد الزراعة بعد تتبع الكلأ - هي مرحلة متقدمة من مراحل الحضارة. وقد أشار القرآن الكريم إلى نعمة الانتقال من البداوة للحضارة كما في سورة يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ .. ﴾ [يوسف: ١٠٠].

إذ جاء إخوة يوسف من البادية إلى حاضرة مصر وأقاموا مع يوسف عليه السلام.

وفي الحديث عن رسول اللَّه ﷺ: « من بدا فقد جفا »[٤] (أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب)[٥].

ويوضح هذا المعنى حديث آخر عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: (أن أعرابيًّا وهب للنبي ﷺ هبة فأثابه عليها قال: « رضيت؟ » قال: لا، قال: فزاده. قال: « رضيت؟ » قال: لا.

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص٤٨١). طبع مؤسسة الرسالة.

(٢،٣) المعجم الوسيط (١/ ١٨١).

(٤) رواه أحمد، حديث (٨٢٢٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث (ص ٢١٤).

قال: فزاده. قال: « رضيت؟ » قال: نعم. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لقد هممت أن لا أتَّهب هبة**[١] **إلا من قُرَشِيٍّ أو أنصاريٍّ أو ثَقَفِيٍّ** »[٢].

فالحضارة تشمل الجانب المادي والخلقي والمعنوي، وأصبحت الآن تمثل اسمًا وتاريخًا وثقافة وعادات وتقاليد لهذه الأمم.

يقول الأستاذ الدكتور جعفر إدريس:

كلمات: الحضارة، والمدنية، والثقافة، والعولمة، وإن كانت عربية؛ إلا أنها جعلت في استعمالنا الحديث رموزًا تدل على المعاني والمفهومات نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها. فلننظر في تلك المعاني والمفهومات كما هي عند أهلها. وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي هنتنجتون أول من أشاع تعبير صراع الحضارات...

ينقل هنتنجتون عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة المدنية والحضارة والفرق بينهما وما نسميه ثقافة.. يمكن أن **نلخص مجمل أقوال من نقل عنهم هنتنجتون في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يأتي:**

يضع المفكرون الألمان حدًّا فاصلًا بين الحضارة والثقافة؛ فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومُثُلَه العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أن الحضارة والثقافة كلتيهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن كلتيهما تشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الدين من أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العِرق؛ فأصحاب العِرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أن الحضارة الواحدة - كالحضارة الإسلامية - قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال. والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قرية إيطاليَّة مثلًا قد يتميزون ثقافيًّا عن قرية إيطالية أخرى، لكنهم يشتركون في ثقافة إيطالية أخرى تميزهم عن أهل القرى الألمانية. والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية؛ هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم، وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري[٣].

---

(١) أتهب هبة: أقبل هبة. (٢) رواه أحمد، حديث (٢٦٨٧).

(٣) العولمة وصراع الحضارات: د. جعفر شيخ إدريس، مجلة البيان - العدد (١٧٠) (شوال ١٤٢٢هـ/ يناير ٢٠٠٢م).

العلاقات بين الحضارات: حوار أم صراع؟

كثر اللغط والحديث في هذه الأيام حول العلاقة بين الحضارات الإنسانية، هل هي علاقة صراع أم حوار؟

والذي دفع بفكرة صراع الحضارات إلى الذروة هو كتاب صموئيل هنتنجتون الأمريكي الذي كتب كتابه (صدام الحضارات)، وبرهن على صحة نظريته في هذا الكتاب. **وهذه مقاطع من نظريته:**

١ - الحضارات هي القبائل الإنسانية النهائية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كـونـي...

٢ - الإسلام والغرب:

يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون: إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أي مشكلة؛ وإنما المشكلات فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين.

٣ - أربعة عشر قرنًا من التاريخ تقول عكس ذلك: العلاقة بين الإسلام والمسيحية سواء الأرثوذكسية أو الغربية كانت عاصفة غالبًا، كلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر.

٤ - الاكتساح العربي الإسلامي في اتجاه الخارج من بداية القرن السابع إلى منتصف القرن الثامن - أقام حكمًا إسلاميًا في شمال أفريقية وأيبيريا والشرق الأوسط وفارس وشمال الهند. ولمدة قرنين تقريبًا كانت خطوط التقسيم بين الإسلام والمسيحية.

٥ - بعد ذلك في أواخر القرن الحادي عشر أكد المسيحيون سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط الغربي: غزوا صقلية، استولوا على طليطلة، وفي (١٠٩٥م) بدأت المسيحية الحملات الصليبية. ولمدة قرن ونصف القرن حاول الحكام المسيحيون مع نجاح متناقص أن يقيموا حكمًا مسيحيًا في الأرض المقدسة. والمناطق المتجاورة في الشرق الأدنى. وخسروا آخر موضع لقدم هناك في عام (١٢٩١م).

٦ - في نفس الوقت كان الأتراك العثمانيون قد ظهروا على المسرح: أضعفوا بيزنطة في البداية، ثم غزوا معظم البلقان بالإضافة إلى شمال أفريقيا، واستولوا على القسطنطينية في (١٤٥٣م)، وحاصروا فيينا في (١٥٢٩م).

٧ - ويلاحظ برنارد لويس (لمدة ما يقرب من ألف سنة منذ أول رسوٍّ موريسكي في إسبانيا وحتى الحصار التركي الثاني لفيينا - كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام).

الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل.

٨ - بحلول القرن الخامس عشر بدأ المد ينقلب. استعاد المسيحيون تدريجيًا أيبيريا مكملين المهمة حتى غرناطة في (١٤٩٢م). في نفس الوقت كان الروس قد أنهوا قرنين من حكم التتار. والعثمانيون قاموا باندفاعة أخيرة إلى الأمام ليحاصروا فيينا (١٥٢٩م).

٩ - فشلهم هناك كان بداية تراجع طويل متضمنًا كفاح الشعوب الأرثوذكسية في البلقان لتحرير أنفسهم من الحكم العثماني، وتوسيع إمبراطورية هالسبورج، والتقدم الدرامي للروس نحو البلقان والقوقاز. وفي ظرف قرن تقريبًا كان (إجلاء المسيحية) للحكم لإسلامي الذي أصبح (رجل أوروبا المريض).

١٠ - وبانتهاء الحرب العالمية الأولى، أطلقت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا رصاصة الرحمة وأقاموا حكمهم المباشر أو غير المباشر على الأراضي العثمانية الباقية ما عدا مساحة الجمهورية التركية، وبحلول سنة (١٩٢٠م) لم يكن هناك سوى أربع دول مستقلة على نحو ما عن الحكم غير الإسلامي؛ وهي تركيا والسعودية وإيران وأفغانستان.

١١ - تراجع الكولونيالية الغربية بالتالي بدأ بطيئًا في العشرينيات والثلاثينيات، ثم تسارع بصورة كبيرة نتيجة للحرب العالمية الثانية، كما أن سقوط الاتحاد السوفييتي حقق الاستقلال لمجتمعات إسلامية إضافية. وطبقًا لأحد التقديرات حدث ما يقرب من (٩٢) حالة استيلاء على أراضٍ إسلامية من قبل حكومات غير إسلامية بين عامي (١٧٥٧ - ١٩١٩م) وبحلول عام (١٩٩٥م) كان (٦٩٪) من تلك المساحات عاد مرة أخرى تحت الحكم الإسلامي وفي حوالي (٤٥) دولة مستقلة كانت الأغلبية الساحقة من السكان مسلمين[1].

لقد قدم هنتنجتون واقع أربعة عشر قرنًا من الحروب بين الإسلام والمسيحية في الفقرات الآنفة الذكر. ثم راح يدلل على صحة نظريته بطبيعة الديانتين الإسلامية والمسيحية. وأن كلًا منهما ترفض الأخرى. يقول:

الطبيعة العنيفة للعلاقات:

(الطبيعة العنيفة لهذه العلاقات المتغيرة تعكسها حقيقة أن (٥٠٪) من الحروب التي تضمنت ثنائيات من دول ذات أديان مختلفة بين عامي (١٨٢٠ - ١٩٢٩م) كانت حروبًا بين مسلمين ومسيحيين. أسباب هذا النمط منه الصراع تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين

(١) الفقرات من (١ - ١١) مقتطفات من: صدام الحضارات، لهنتنجتون (ص ٣٣٧ - ٣٤٠).

المؤسستين عليهما. الصراع كان من ناحية نتيجة الاختلاف؛ خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة - ضد المفهوم الغربي المسيحي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر، كما كان الصراع نابعًا من أوجه التشابه بينهما؛ كلاهما دين توحيد يختلف عن الديانات التي تقول بتعدد الآلهة، ولا يستطيع أن يستوعب آلهة الآخرين بسهولة، وكلاهما يَنظر إلى العالم نظرة ثنائية (نحن) و (هم)، كلاهما يدَّعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، كلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم التزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلى ذلك الإيمان الصحيح.

الإسلام انتشر بالفتح:

الإسلام منذ البداية انتشر بالفتح، والمسيحية كانت تفعل نفس الشيء عند وجود الفرصة. مفهوما (الجهاد) و (الصليب) المتوازيين لا يشبهان بعضهما الآخر فقط؛ وإنما يميزان العقيدتين عن الأديان العالمية الأخرى. مستوى الصراع العنيف بين الإسلام والمسيحية عبر الزمن كان يتأثر دومًا بالنمو الديموغرافي وهبوطه، وكذلك بالتطورات الاقتصادية، والتحول التكنولوجي، وشدة الالتزام الديني)[١].

وفي القرن العشرين:

(مجموعة مشابهة من العوامل زادت من الصراع بين الإسلام والغرب.

أولًا: خلَّف النمو السكاني أعدادًا كبيرة من الشبان العاطلين والساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية.

ثانيًا: أعطت الصحوة الإسلامية ثقة متجددة للمسلمين في قدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة على الغرب.

ثالثًا: جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكري والاقتصادي.

رابعًا: سقوط الشيوعية أزال عدوًّا مشتركًا للغرب والإسلام وترك كلًّا منهما لكي يصبح الخطر المتصور على الآخر.

خامسًا: الاحتكاك والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير في كل من الجانبين إحساسًا بهويته الخاصة)[٢].

---

(١) صدام الحضارات لهنتنجتون (ص٣٤٠، ٣٤١). (٢) المرجع السابق (ص٣٤٢).

ومن أهم الافكار الأساسية في الكتاب أن الصراع اليوم بين سبع حضارات هي: الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الغربية، الأمريكية، اللاتينية)[١]. لكن حضارات التحدي ثلاثة هي الغربية والإسلامية والصينية (ومن المرجح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام والصين متوترة على نحو ثابت وعدائية جدًّا في معظم الأحوال)[٢].

والصراع هو مع الإسلام وليس مع الأصولية الإسلامية، (المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام؛ فهو حضارة مختلفة، شعبها متفوق بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته)[٣]. وطبيعة الإسلام عدائية (هناك محاجة أن الإسلام كان دينًا للسيف منذ البداية، وأنه يمجد فضائله القتالية... وتعاليم الإسلام تنادي بقتال غير المؤمنين به)[٤].

ولهذا السبب وغيره كان المسلمون هم الأكثر تورطًا في مزيد من العنف ونقطة الضعف الكبرى عند الحضارة الإسلامية: أنها اليوم وعي بدون تماسك؛ فالإسلام مقسم بين مراكز قوى متنافسة وليس له دولة مركزية واحدة (إن غياب دولة مركز إسلامية عامل أساسي ومساعد على الصراعات الداخلية والخارجية المستمرة التي تميز الإسلام، وعلى الوعي دون تماسك، كما أنه مصدر ضعف للإسلام ومصدر تهديد للحضارات الأخرى)[٥]، (وهناك ست دول يتردد ذكرها من وقت لآخر كزعامات ممكنة للحضارات الإسلامية وهي: إندونيسيا، مصر، إيران، باكستان، السعودية، تركيا).

(واللغة والدين هما العنصران الرئيسيان في أي ثقافة أو حضارة)[٦].

ويأخذ برأي (كويجلي) (بأن الحضارات تتحرك عبر سبع مراحل: الامتزاج، الحمل، التوسع، عصر الصراع، الإمبراطورية الكونية، التآكل، الغزو)[٧]. والحضارة الغربية اليوم هي في مرحلة التآكل والغزو (فرفض قانون الحضارة الغربية يعني نهاية الولايات المتحدة التي نعرفها)[٨]، والإنقاذ (إذا جددت أمريكا وأوروبا حياتها الأخلاقية، وبنيا على العوامل الثقافية المشتركة، وطورا أشكالًا وثيقة من التكامل الاقتصادي والسياسي والديني (٢٨٩ - ٢٩٠) - سيكون بمقدورهما استيلاد مرحلة ثالثة أوروبية أمريكية من الثراء الاقتصادي والنفوذ السياسي الغربي)[٩].

---

(١) صدام الحضارات لهنتنجتون (٧٥، ٧٦).
(٢) المرجع السابق (ص٢٩٥).
(٣) المرجع السابق (ص٣٥٢).
(٤) المرجع السابق (ص٤٢٦).
(٥) المرجع السابق (ص٢٨٩).
(٦) المرجع السابق (ص٩٨).
(٧) المرجع السابق (ص٧٢).
(٨) المرجع السابق (ص٤٩٦).
(٩) المرجع السابق (ص٤٩٨).

وسنقف الآن مع هذه المفاهيم التي تؤصل صراع الحضارات لنعرضها على محك التحليل والنقد:

أولًا: الإسلام جاء لتعارف البشرية لا للصراع فيها، وهذا ينقض ما يفهمه عن الإسلام؛ أنه دين الصراع ودين السيف ودين العدوان.

يقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فقد خلق اللّه هذا الخلق كلَّه من الشعوب والقبائل، لماذا؟ ليتعارفوا، وليس ليتصارعوا أو يتقاتلوا.

ثانيًا: لقد جاء الإسلام بالتعايش بين المسلمين وغيرهم ولم يأت بالصراع؛ فقد طلب منا أن يكون أساس العلاقة بيننا وبين أهل الكتاب الجدال والحوار: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهو الموقف العام مع غير المسلمين: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجاء النص بالحوار مع العدو مباشرة: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

ثالثًا: أكذوبة أن الإسلام قد انتشر بالسيف من الكذبات الكبار في التاريخ؛ فالإسلام يرفض الإكراه على الدين والإجبار عليه بالنفي لجنسه كله: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويؤكد الإسلام أن إرادة اللّه - تعالى - لو شاءت الإكراه في الدين لأمكن خلق الخلق كلهم مسلمين ابتداء، ولكن الإرادة الربانية شاءت غير ذلك: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

فالقرآن يستنكر الإكراه على رسوله محمد ﷺ؛ فمن باب أولى أن يستنكره من أي مخلوق.

أما تعليل الصراع بين المسلمين وغيرهم على مدى التاريخ - وهو الذي ساقه دليلًا على

صحة نظريته - فسرعان ما ينهار من أول نظرة؛ لأنه يقوم على دراسة المظاهر لا الحقائق.

فالإسلام دائمًا كان له خيارات ثلاثة، وليس خيارًا واحدًا، وكلها خيارات متاحة: الإسلام، أو الجزية، أو السيف.

وتسلسلها بهذا الشكل؛ يعني أن الإسلام أولًا خيار وليس فرضًا، والجزية للتعايش بين الإسلام وخصومه، أما عندما يرفض الخصم التعايش؛ فيبقى الخيار الأخير هو القتال للعودة إلى أحد الخيارين.

وأصّل الإسلام هذا التعايش في أخص خصائص الإنسان في الطعام والنكاح: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

الخيار النظري عند الكافرين خياران فقط: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

والتاريخ الإسلامي من حيث الواقع أكَّد أنه لا شيء عند العدو إلا هذين الخيارين: الكفر، أو السيف. ومحاكم التفتيش في الأندلس تشهد بذلك؛ فلقد أصرت البربرية الأوروبية على المسلمين إما القتل وإما الكفر، وحافظت أوروبا على ذلك؛ فلم يعد للمسلمين وجود في الأندلس، ولا خيار عن الكفر أو القتل إلا التهجير، ولا تعايش بين الملتين في المنطق الغربي.

بينما نعرف تاريخ أربعة عشر قرنًا للأمة المسلمة واقع التعايش الكامل بين هاتين الديانتين؛ فالعالم الإسلامي كله يعيش فيه المسلمون والنصارى جنبًا إلى جنب، وكذلك اليهود؛ ففي مدينة مثل دمشق - حيث حكم الإسلام طيلة هذه القرون - تعيش الأحياء متجاورة للنصارى واليهود والمسلمين، وهو نموذج مستمر وقائم في العالم الإسلامي كله.

وهذه القدس صورة ونموذج آخر كذلك لهذا التعايش.

لم تقم الحروب بعد القرن الأول في أرض الإسلام بين الديانتين أبدًا. ولولا الغزو الصليبي من الغرب لما سمعنا عن قتالٍ واحد في صف المسلمين والنصارى على الإطلاق. وقد استمرت الحروب السياسية طيلة هذه القرون بين المسلمين أنفسهم وصراعهم على السلطة؛ لكن لم يقع شيء من ذلك بين النصارى والمسلمين.

الإسلام حين تحدث عن الجهاد تحدث عن دولة مسلمة لا بد لها من أن تملك قوة ذاتية تدافع عن نفسها، وقوة تزيح الطغاة من أن يحولوا بين البشر وبين دين الله ﷻ.

فالدفع الذي ذكر في القرآن: هو الذي يسميه دعاة صراع الحضارات معركة حتمية. يقول ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

فالجهاد في الإسلام ليس للقضاء على النصارى كما يدعي المغرضون؛ بل لحماية بيوت العبادة لهم كما تُحمى المساجد، ولجعل ذكر اللَّه ﷻ فيها محميًّا من الطاغوت الذي يريد أن يطمس هذا الذكر.

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

إنه قتال لدفع العدوان وليس للعدوان؛ دفع العدوان عن الأرض والعِرض والدين وكل المقدسات، ولوْلا هذا الدفعُ لهُدِّمت بيعٌ وصوامعُ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم اللَّه كثيرًا.

والملاحظة البينة الواضحة أن ما يتحدث عنه هنتنجتون هو صراع بين البشر، وليس صراعًا بين الحضارات؛ لأن الحضارات تتداخل مع بعضها رغم إرادة البشر، والنفوس الشريرة توقد الشرَّ دائمًا: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

فالطغاة تحت اسم الصليب أو غيره يشعلون الأرض نارًا، ويهيِّجون نار الحرب وينفخون فيها، ويسعون في الأرض فسادًا، واللَّـه - تعالى - يتكفل بإطفاء نار حربهم واجتثاث فسادهم، واللَّـه لا يحب المفسدين.

حوار الحضارات:

إن القصد من حوار الحضارات هو التفاعل بينها وتكاملها، وليس إحلال واحدة مكان الأخرى؛ فالحضارات تحمل عناصر الشر والخير بما تكونت به خلال التاريخ، وقد يكون الكثير من عناصرها على منهج اللَّـه، وقد يكون بعضه على منهج الشيطان. وكثيرًا ما تأخذ

العادات والتقاليد في الحضارة أثرًا لا يقره الشرع ولا يقبله، لكنه دخل في العنصر الحضاري فيصعب الانفصال عنه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

لكن ساسة العالم اليوم يرفضون هذا الطرح - صراع الحضارات - وينطلقون من طرح حوار الحضارات؛ فكلينتون الرئيس الأمريكي الأسبق قال في مجلس النواب الأردني:

(إن أمريكا ترفض القبول بحقيقة أن حضاراتنا يجب أن تتصادم. إننا نحترم الإسلام..).

ويقول في مكان آخر:

(إن المسلمين يعيدون صوغ شخصية بلادنا بالذات بسرعة؛ فالدين الإسلامي هو أسرع الديانات انتشارًا ونموًّا في الولايات المتحدة؛ إذ يمارس معتقداتِه ستةُ ملايين أمريكي في أكثر من (١٢٠٠) مسجد ومركز إسلامي).

وتقول أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة:

(في تنمية علاقاتنا مع الدول ذات الغالبية السكانية الإسلامية يجب علينا التأكد من أنهم يفهموننا ونفهمهم، من المحتم أن تكون هناك اختلافات في الرأي، لكن تلك الفروقات تكون بالتأكيد أقل تكرارًا وأقل خطرًا لو استنفدنا كلَّ سبيل لإزالة الصور النمطية المؤذية). مضيفة أنه بهذه الطريقة يمكن أن يشتهر القرن الجديد ليس بتصادم الحضارات الذي تم التكهن به، وإنما بتقدم الحضارات الذي يتوقف عليه مستقبلنا جميعًا[١].

وتوني بلير رئيس الوزراء البريطاني السابق يقول: هل الغرب معادٍ للإسلام فعلًا كما يدعي ابن لادن؟ لو كان هذا صحيحًا لماذا يعيش عشرات الملايين من المسلمين في أمريكا وأوروبا ويمارسون الإسلام بحرية؟ لماذا يتولى جنود حلف الأطلسي حماية المسلمين في أرجاء البلقان من كوسوفو إلى البوسنة؟ لماذا تدخلت الولايات المتحدة وحلفاؤها عسكريًّا للدفاع عن المسلمين في كوسوفو الذين كانوا آنذاك يعانون أعمالًا ظالمة هائلة على أيدي دولة مسيحية أرثوذكسية؟)[٢].

وعندما تكلم بيرلوسكوني رئيس وزراء إيطاليا بجلافة عن صراع الحضارات قائلًا: (إن الغرب يجب أن يثق بأن حضارته أرقى من العالم الإسلامي) وأضاف: (يجب أن نكون

(١) الشرق الأوسط (١٣/ ٩/ ٢٠٠٠م).

(٢) الحياة (١١/ ١١/ ٢٠٠١م)

على وعي بتفوق حضارتنا التي تقوم على نظام من القيم يوفر للشعب الرخاء في الدول التي تتبناه، وتضمن احترام حقوق الإنسان والدين؛ لأن هذا الاحترام غير موجود بالتأكيد في الدول الإسلامية)[١].

عندما قال ذلك تصدى للرد عليه رئيس الوزراء البلجيكي رئيس دورة الاتحاد الأوروبي آنذاك بقوله:

(لا أستطيع أن أتصور أن يكون رئيس الوزراء الإيطالي أدلى بمثل هذه التصريحات، وأعتقد أن الاتحاد يناضل من أجل التعددية الثقافية والديمقراطية والتسامح وتلاقي الحضارات، وحذر من أن الإدلاء بتصريحات مماثلة يمكن أن يكون خطيرًا؛ لأنه يؤدي إلى شعور بالمهانة من نتائجه توقف حوار الحضارات. واعتبرت الحكومة الألمانية أن كلام بيرلوسكوني يعوزه المنطق ويعطي الانطباع وكأن الأمر يتعلق بحرب الحضارات، وهذا ما لا يعبر أبدًا عن موقف حكومة ألمانيا).

وعلق رئيس الحكومة الفرنسية ليونيل جوسبان أمس على تصريحات نظيره الإيطالي قائلًا: (ليس هناك تراتبية ينبغي إحلالها بين الحضارات والمذاهب، وأكد أن على كل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي التزامَ هذه النظرة الفلسفية والسياسية الجديدة بالحضارة)[٢].

وقال البابا يوحنا بولس الثاني أثناء زيارته لدمشق:

يتجه فكري أيضًا إلى التأثير الثقافي العظيم الذي قام به الإسلام في سوريا، ذاك الذي كان في عهد الخلفاء الأمويين، ووصل إلى أبعد شواطئ البحر المتوسط. اليوم - في عالم يزداد تشعبًا وتفاعلًا - هناك حاجة إلى روح جديدة للحوار وللتعاون بين المسلمين والمسيحيين، معًا نعترف بالإله الواحد الأحد خالق البرايا بأسرها، معًا يجب أن نعلن للعالم أن اسم الإله الواحد هو اسم سلام ودعوة إلى الإسلام)[٣].

هذا من الجانب الغربي، أما من الجانب العربي والإسلامي؛ فقد تبنى مؤتمر القمة الإسلامي هذا الاتجاه، وذكر في بيانه الختامي الذي صدر في الدوحة:

(نعتبر أن مبادرة الحوار بين الحضارات تشكل إطارًا جديدًا ورؤية عالمية لبناء نظام دولي متكافئ. والمشاركة والتفاهم المتبادل والتسامح بين الشعوب والأمم تقوم على

---

(١) الحياة (٢٧/ ٩/ ٢٠٠١م).

(٢) الحياة (٢٩/ ٩/ ٢٠٠١م).

(٣) الحياة (٦/ ٤/ ٢٠٠١م).

الشمول)[١] جاءت هذه الفقرة بعد الفقرة التي تقول: نحن ملوك ورؤساء وأمراء الدول والحكومات الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي المجتمعون في الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي في الدوحة في دولة قطر الفترة من (١٦ إلى ١٨ شعبان ١٤٢١هـ) الموافق (١٢ - ١٤ نوفمبر ٢٠٠٠م).

كما قامت الجامعة العربية ودعت إلى مؤتمر عام خصيصًا للحوار بين الحضارات، ودعت إليه كبار المثقفين في العالم العربي خاصة، والعالم عامة، وجاء في الكلمة التي ألقاها الدكتور جمال برزنجي ممثلًا للجالية الإسلامية في أمريكا ما يأتي:

(كلنا يعلم أن العالم الإسلامي يمثل وحدة حضارية ثقافية دينية كبرى لما يمثله بين شعوبه من جذور مشتركة في التاريخ والقيم والثقافة والعقيدة، وأن النظام العالمي الجديد الذي جعل من العالم قرية واحدة - أصبحت الوحدات الكبرى فيه هي وسيلة البقاء وحماية المصالح الحيوية والحفاظ على الهوية الحضارية، وتضاءل فيه دور الدولة القومية ومفهوم السيادة المطلقة. كذلك فإننا ندرك أن التواصل والتبادل بين أعضاء كل كتلة وبين الكتل مع بعضها يعتبر عاملًا أساسيًّا لتحقيق التعامل الفاعل في أوجهه الحضارية المختلفة ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا وتكنولوجيًّا.

من هذا المنطلق ينظر المسلمون في أمريكا إلى منظمة المؤتمر الإسلامي لا على أنها تعبر فقط عن وحدة الأمة الإسلامية حضارة وثقافة، لكن على أنها أيضًا المؤسسة السياسية الدولية المسؤولة عن مهمة حماية هوية الأمة والحفاظ على خصوصيتها في زحمة صراعات الكتل العالمية الكبرى في عالم اليوم.

وأقليتنا المسلمة في الولايات المتحدة تمثل نسبة (٢,٥٪) في شعب يمثل أكبر قوة وتنظيم بشري في العالم بما يجعل لهذه الأقلية أهمية خاصة توجب عليها مسؤوليات مهمة تجاه شعبها، وتجاه الأمة الإسلامية في وقت واحد.

هذه المسؤولية بما تمثله من انتماء حضاري ثقافي وديني للأمة المسلمة، وبما تمثله من انتماء المواطنة والرحم لشعبها الأمريكي - مؤهلة لتكون حلقة الوصل بين رابطة الدين والعقيدة والثقافة، ورابطة المواطنة الأمريكية بتنوعها العرقي والثقافي والحضاري)[٢].

---

(١) المنتدى الإسلامي العالمي للحوار، جدة، السعودية، إعلان الدوحة.

(٢) المجتمع الكويتية، العدد (١٤٧٤) شعبان (١٤٢٢هـ) - (٢٧/ ١٠/ ٢٠٠١م).

حوار الحضارات في التاريخ:

وإذا كان ما ذكرناه هو تأصيل نظري لفكرة حوار الحضارات؛ فالواقع العملي في التاريخ يؤكد هذه الفكرة. ونستعرض هذا الواقع العملي عند شخصيتين غربيتين أصَّلتا في ما كتبتا لهذه الفكرة:

الشخصية الأولى: غوستاف لوبون في كتابه: حضارة العرب.

الشخصية الثانية: زيغريد في كتابها: شمس الإسلام تسطع على الغرب.

وهما نموذجان للفكر الموضوعي الحيادي المنصف في عالم الغرب.

ونأخذ أولًا مقتطفات عند غوستاف لوبون في كتابه العظيم حضارة العرب:

• **نتائج الحروب الصليبية:** كان من النتائج السياسية التي نشأت عن الحروب الصليبية أن تضعضع النظام الإقطاعي في فرنسا وإيطاليا على الأقل... ولم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك؛ فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار السنيورات الصليبيين مع جَلَفِهم.. وإذا كانت صنائع الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلب معارف كثيرة؛ فقد اقتبسها الأوروبيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية.. فعن صُور أخذت البندقيةُ نماذج صناعة الزجاج، وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة، وعن سوريا أخذ عمال الحملات الصليبية - التي دام أمرها قرنين - وصانعو أسلحتها ومهندسوها ونجاروها ومن إليهم - ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية؛ وذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها... وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيمة باطراد بين الشرق والغرب؛ تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تعوّل عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم)[١].

هذا هو حوار الحضارات فيما قدمه الشرقُ للغرب، أما صراع الطغاة - ولا نسميه صراع الحضارات - فيقول عنه لوبون:

(لم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق، ولم ينتفع الشرق بشيء منهم في الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرِها في قلوبِهم الازدراءَ للغربيين على مَرِّ الأجيال. ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلظتهم وتوحشهم وسوء نيتهم

---

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، مقتطفات (ص٣٣٥ - ٣٣٩).

غيرُ حمل الشرقيين أسوأ الأفكار عن نصارى أوروبا وعن النصرانية، وغير إيجاد هوة عميقة لا يمكن سدها بين أمم الشرق وأمم الغرب)[١].

• **تأثير العرب في الغرب:** (نثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم أيضًا، وأن أوروبا مدينةٌ للعرب بحضارتها. والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق؛ ولكن بمعنًى آخر: فأما تأثيرهم في الشرق فتراه باديًا في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص، وأما تأثيرهم الديني في الغرب فكان صفرًا، وترى تأثيرهم الفني واللغوي طفيفًا، وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيهم عظيمًا)[٢].

• **حالة أوروبا حين أدخلوا الحضارة إليها:** ولا يمكن إدراك شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخلوا الحضارة إليها. إذا راجعنا القرن التاسع والقرن العاشر للميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًّا رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لايقرؤون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا الرهبان المساكين.. ودامت همجية أوروبا البالغة زمنًا طويلًا. ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد حين ظهر فيهما أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عليهم؛ فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم)[٣].

• **دور الأندلس في الإشعاع على أوروبا:** لم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يردد على العموم؛ وإنما دخلت العلوم أوروبا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا؛ وذلك أن مكتبًا للمترجمين في طليطلة بدأ منذ (١١٣٠م) ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة خلال القرون: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من الميلاد. ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد؛ بل نقلت إليها أيضًا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة؛ ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وإقليدس وأرشميدس وبطليموس؛ فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب كما روى الدكتور لوكير في كتابه تاريخ الطب الغربي.. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنيعهم على إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافًا أبديًّا.

قال مسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا في الآداب

---

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون (ص٣٣٤).
(٢) المصدر السابق (ص٥٦٦).
(٣) المصدر السابق (ص٥٦٧).

عدة قرون... ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب، وعلى كتب العرب وحدها عوّل روجر بيكون وليونارد البيزي و.. ألبرت الكبير و.. الأذفونش العاشر. قال مسيو رينان: إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء، وإن سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد. وظلت ترجمات كتب العرب - لا سيما الكتب العلمية - مصدرًا وحيدًا تقريبًا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون، ويمكن القول: إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا دام إلى أيامنا؛ فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبلييه في آخر القرن الماضي... ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة (١٤٧٣م) أمر بتدريس مذهب الفيلسوف ابن رشد ومذهب أرسطو...

• **تأثير العرب في فن العمارة:** للعرب لا ريب تأثير في فنون أوروبا ولا سيما في فن عمارتها... ولا يجوز الشك في أن الفنانين الفرنسيين اقتبسوا من الفن الشرقي كثيرًا من العناصر المعمارية المهمة والزخارف... وقد ذكرنا في فصل سابق أنه نشأ عن تمازج فنون العرب والنصارى طراز خاص يعرف بالطراز المدجن الذي ازدهر في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر للميلاد.

• **في المجال الخُلُقي:** ولا نعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الخُلُقي في أوروبا؛ وإنما نذكر أننا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين سنيورات النصارى وأشياع النبي ﷺ في ذلك الزمان، وأن النصارى تخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم وما تؤدي إليه هذه المبادئ من الالتزامات كمراعاة الشيوخ والأولاد واحترام العهود... إلخ.

ونُذكِّر القارئ بالنتيجة التي توصل إليها أيضًا العلامة المتدين مسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن حيث قال: (أسفرت تجارة العرب وتقاليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى. وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئًا من شجاعتهم، وأشك في أن تكون النصرانية وحدها قد أوحت إليهم بهذا مهما بولغ في كرمها)[1].

ثانيًا: العلَّامة الألمانية زيغريد هونكة:

وقد قدَّم الأستاذ عبد الغني عطري دراسة وافية عن كتابها (شمس العرب تسطع على

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون، مقتطفات (ص٥٦٦ - ٥٧٦).

الغرب) والتي طوتها يد الموت بعد أن تجاوزت الثالثة والثمانين من عمرها، وحملت راية المدافع عن الحضارة العربية.

... لقد تحدثت الدكتورة هونكة عن هذه الحضارة بكثير من الإيجاز في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) الذي جاوزت صفحاته الأربعمائة؛ فدافعت عن العرب وأنصفتهم كما لم يدافِع عن العرب أبناء جلدتهم أو ينصفوهم، وهي أستاذة متخصصة في فلسفة الثقافات والحضارات. ولها عدد كبير من المؤلفات عن العرب وغيرهم:

١ - ثمانية قرون طوال سبقْنا بها الغرب بحضارتنا، نقلنا خلالها إليه طائفة لا تحصى من الفنون والعلوم والصناعات والاكتشافات التي أفاد منها وادعى السبق إلى بعضها. ثمانية قرون طوال والحضارة العربية تشع كالشمس على الغرب، بينما كان الغرب غارقًا في بحر من الظُّلم والظلام؛ سبقْناه في علوم الفلك والجغرافيا والرياضيات والطب والصيدلة والموسيقى.. ونُسب السبق في كثير منها إلى اليونان.

٢ - خلال هذه الفترة ألف الخوارزمي كتبه المشهورة في الفلك والجغرافيا والرياضيات.. فتُرجمت إلى اللاتينية بعد ثلاثة قرون. وكان اكتشافه العلمي الأكبر أن جميع الأجرام السماوية - ومن بينها النجوم - ترسل نورها إلى الأرض عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وتعلق المستشرقة هونكة على هذا الاكتشاف فتقول: أما أثر هذا العبقري العربي على أوروبا والأوربيين فعظيم جدًّا لأن نظرياته في الطبيعة البصرية ما زالت مسيطرة حتى اليوم على أوروبا؛ فعلى أبحاث ابن الهيثم الخاصة بالبصريات تعتمد جميع الأبحاث الحديثة منذ ظهور الإنجليزي بيكون.

٣ - وقد ترجم العالم الإنكليزي أتيلهرت كتبه فيسَّر بترجمته هذه - كما تقول المستشرقة الألمانية - لعلماء أوروبا الاطلاع عليها والإفادة منها. أما المؤلفات التي خلدت ذكر الخوارزمي فكتاباه في الرياضيات: الجبر والمقابلة، وأما الثاني فكتاب صغير في الحساب الهندي يشرح فيه الأعداد والحساب، وقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى إسبانيا فترجم في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية ومنها ترجم إلى الألمانية وعدد من اللغات الأخرى.

٤ - وقدم العرب في القرن التاسع عالمهم العربي الكِنْدي، الذي أطلقوا عليه في أوروبا فيلسوف العرب... ولا تقل شهرة الكندي عن ابن الهيثم، وقد بلغت مؤلفاته نحو مئتين وخمسة وستين كتابًا في مختلف أنواع العلوم، ومن بينها بحث حول تقهقر الأفلاك، واللغز

الأول لعلم الفلك، وهو أول من استخدم الفرجار لقياس الزوايا في الهندسة، كما حسب أثقال بعض السوائل الخاصة، وأجرى عددًا من التجارب على الجاذبية وسقوط الأثقال.

٥ - وفي عام (٨٧٠م) ظهر الفيلسوف والحكيم والعالم والموسيقي البارع الفارابي.. هذا الرجل الذي تصفه الدكتورة هونكة. ثاني اثنين عرفتهما البشرية وأولهما أرسطو. وقد اشتهر الفارابي بمناقشاته العلمية مع علماء قصر الخليفة في دمشق.. وقد انتهت به هذه الدراسات إلى فكرة اللوغاريتمات التي نجد أصولها في بحثه حول أصول الفنون الموسيقية.

٦ - وقدَّم العرب إلى أوروبا علماء أعلامًا مثل ابن سينا والرازي وابن رشد. وتعتبر كتبهم ونظرياتهم في منزلة كتب أبقراط وجالينوس. وتقول المستشرقة الألمانية: إن ابن سينا هو العالم الذي استطاع بحق القضاء على شهرة جالينوس وسائر علماء اليونان، وابن سينا هو الذي حطم ذلك التقديس لعلماء اليونان قرونًا عديدة. وابن سينا هو العربي الثاني الذي يطل - إلى جانب أبي بكر الرازي - من قاعة محاضرات كلية باريس، وهو يعتبر أكبر أساتذة الطب ومعلم أوروبا فترة لا تقل عن سبعة قرون.

٧ - ولكي ندرك مدى تقدم الحضارة العربية وتخلف أوروبا يومذاك يكفي أن نذكر - كما تقول المستشرقة - أنه كان في بغداد تسعمائة طبيب، بينما لم يكن يوجد في حوض الراين طبيب واحد.

لقد تجاهل الغرب فضل العرب والإسلام عليه، ونسب الحضارة إلى اليونان وزيفوا التاريخ وشوهوا الحقائق مدفوعين بالهوس القومي والجنون الوطني والتعصب الديني، وأنكروا على العرب فضلهم، ونسبوا كل ما بلغه العالم من حضارة ورقي إلى اليونان.

٨ - وقفت أوروبا منذ أن بعث الرسول العربي ﷺ موقفًا عدائيًّا بعيدًا عن الإنصاف والعدالة، وقد أملى هذا الموقف على المؤرخين التعصب الأعمى لا الضمير الحي أو الوجدان النقي.

٩ - لقد سبقت الحضارة العربية[1] حضارة أوروبا بمئات من السنين؛ الغزالي سبق ديكارت، والمعري سبق لامارتين، وابن سينا سبق دانتي... والبيروني أول من قال: إن الشمس مركز الكون من وجهة النظر الفلكية، وابن الهيثم وضع أساس علم الضوء - وليس روجي بيكون أو غاليلي - وابن النفيس اكتشف الدورة الدموية قبل هارفي بأربعة قرون.

١٠ - لقد أحبت المستشرقة الألمانية العرب وأنصفتهم وقالت في حضارتهم الشامخة قول الحق حين عز قول الحق. لقد أنكرت أوروبا على العرب فضلهم. إن أوروبا تعتقد ظلمًا

(١) يكثر الأستاذ العطري من استعمال كلمة (العربية) بدل (الإسلامية) بحكم انتمائه القومي.

أن العرب ليس لديهم موهبة في الإبداع، وهؤلاء يبنون آراءهم هذه على أن العرب مجرد ناقلين لحضارات الشرق القديم مثل اليونان والفرس والرومان والهنود والصينيين، وأن أصل الحضارة الأوروبية يوناني وروماني، ويتجاهلون ما قدمه العرب، ويعتبرونه أدى دور ساعي البريد؛ ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب حينما قاموا بنقل تلك الحضارات إلى أوروبا فإنهم قبل أن ينقلوها درسوها وهضموها وأضافوا إليها من إبداعهم ما لا يحصى.

وتحية شكر إلى العالمة الأديبة والمفكرة العظيمة المستشرقة الدكتورة هونكة على كتابها الذي تُرجم إلى سبع عشرة لغة من لغات العالم..»[١].

هذا غيض من فيض من تفاعل الحضارات وتأثرها ببعضها، ونحن اليوم مدينون للغرب بتقدمه العلمي الهائل؛ لكنه يريد أن يلغي الكل لصالح حضارته الغربية، والعولمة الأمريكية هي التي تقود هذا التيار، وليس هنتنجتون إلا من مفرزات هذا التيار؛ فهو يخشى من الحضارات الأخرى؛ إذ يقول: « إن ميزان القوى بين الحضارات يتغير؛ الغرب يتدهور في تأثيره النسبي، الحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، الإسلام ينفجر سكانيًّا مع ما ينتج عن ذلك من عدم استقرار بالنسبة للدول الإسلامية وجيرانها، والحضارات غير الغربية عمومًا تعيد تأكيد ثقافتها الخاصة »[٢].

* **والمطلوب من الحضارة الغربية**: (إن بقاء الغرب يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية، وعلى الغربيين عندما يقبلون حضارتهم **كحضارة فريدة** وليست عامة، ويَتَّحِدون من أجل تجديدها والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من المجتمعات غير الغربية)[٣]. ويهدد بالحرب ما لم يقبل العالم بحضارة الغرب وحيدة فريدة (إن تجنب حرب حضارات كونية يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية وتعاونهم للحفاظ عليها).

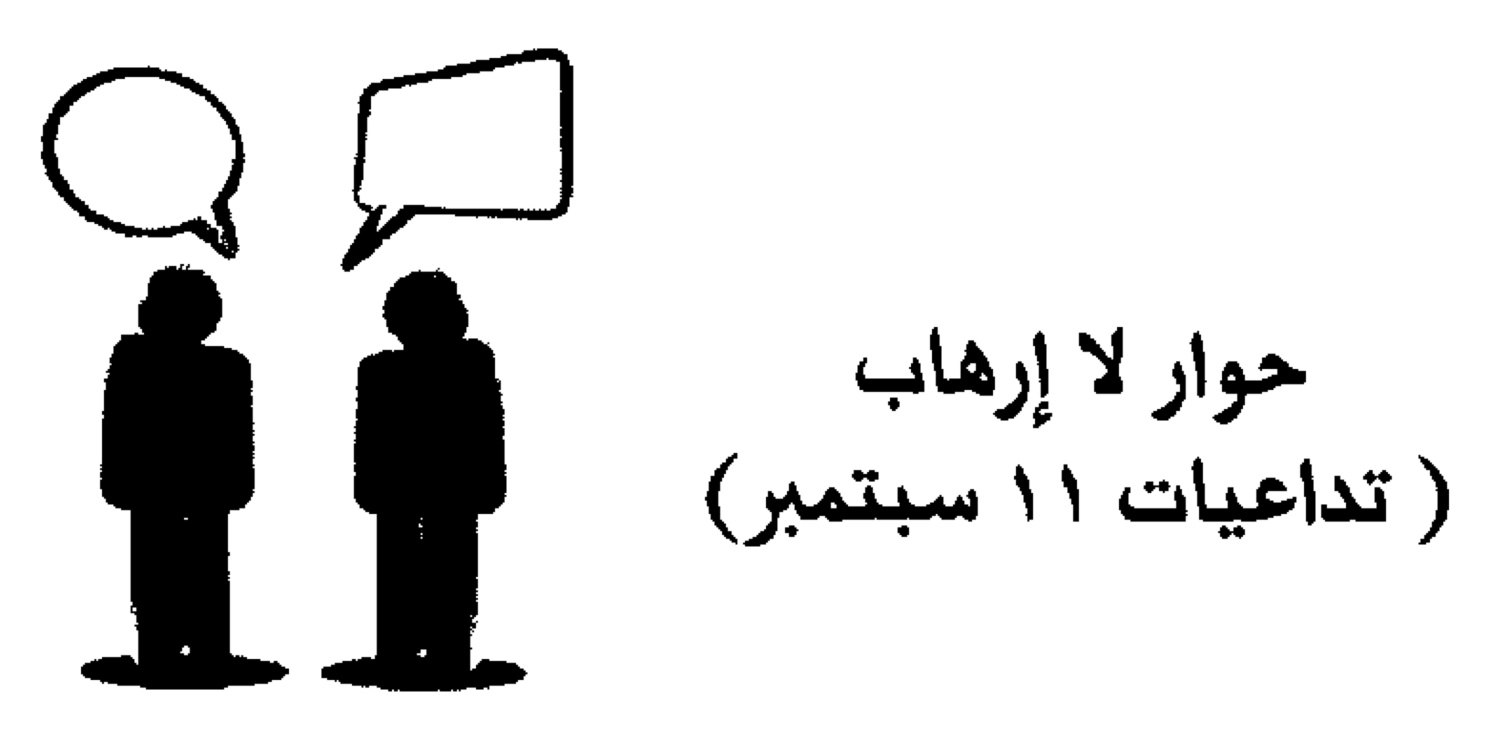
ولا بد أن نشير إلى أن المحافظة على الذات الحضارية لا تعني الحرب مع الحضارات الأخرى بمقدار ما تعني الاستفادة من الإيجابيات والتعامل معها في جميع الحضارات، (والحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها).

* * *

(١) مجلة تشرين السورية العدد (٧٩٨٤) (٣٠/ ٤/ ٢٠٠١م).

(٢) صدام الحضارات: هنتنجتون (ص٣٦).

(٣) المصدر السابق (ص٣٧).



حوار لا إرهاب
(تداعيات ١١ سبتمبر)

أحداث الحادي عشر من سبتمبر:

لقد برز الحديث عن الإرهاب أكثر ما يكون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا؛ فماذا جرى؟

للوهلة الأولى يمكن القول: إن القرن الحادي والعشرين بدأ في نيويورك وواشنطن يوم (١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م) تمامًا: كالقرن العشرين الذي بدأ هو الآخر في ساراييفو بتاريخ (٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٤م) الفارق الأساسي بين المنعطفين هو أن أمريكا حلت محل أوروبا في حين خلَّف انهيار أحلام مجتمع الإنترنت غياب الزمن الغابر الجميل، وطغت مخاوف الحرب على أوهام السلام.

فمع تدمير بُرجي مركز التجارة العالمية دُمِّر رمز جبروت نظام العولمة الذي تقوده أحادية التفكير الأمريكي - كما شَخَّصَ ذلك الكثير من المحللين الماليين والسياسيين الأمريكيين -)[1].

أما معنى قول الأمريكيين بأن أمر أمريكا بعد الحادي عشر من أيلول ليس كما قبله؛ فهذا ما حاولت مجلة (الأوبسرفاتور) معرفته من خلال استطلاع لآراء العديد من الأمريكيين الذين أكدوا أن ما حدث مؤخرًا في الولايات المتحدة أمر مريع لن تمحوَه ذاكرة التاريخ من أذهان الأجيال.

لقد أكد الكثيرون بأن الولايات المتحدة قد دخلت عهدًا جديدًا مرعبًا أدركت من خلاله إلى أي مدى يمكن أن يصل الحقد الذي يضمره العالم لها - وهي التي كانت تعتقد أنها قادرة على كسب الحرب دون أية خسائر - وها هي اليوم تهاجم في عُقر دارها وتفقد آلاف الضحايا وهي في زمن السلم.

لقد أعطت الحرب الباردة الولايات المتحدة الأمريكية زعامة لا مثيل لها على العالم، وأغرقها سقوط جدار برلين بالنرجسية والأنانية.

---

(١) الحياة/ (٢٣/ ١٠/ ٢٠٠١م). سمير صبح.

أما أحداث الحادي عشر من أيلول فقد برهنت على رغبة الولايات المتحدة في البقاء في جانب أحادي وفي عزلة جديدة يبدو أنها ترسخت مع إدارة بوش العمياء.

تتلخص هذه الأحادية باعتبار أن كل ما هو جيد بالنسبة للولايات المتحدة هو كذلك بالنسبة لبقية دول العالم وهكذا.

فهل ستؤدي الجراح العميقة التي منيت بها الولايات المتحدة إلى الانغلاق على الذات من جديد، والانغماس في الدفاع عن مصالحها الخاصة متناسية أن هناك قضايا إستراتيجية في العالم لا يمكن تجاوزها مهما كلف الثمن.

ففي خطابه التاريخي أمام الكونغرس بعد أسبوع من وقوع الكارثة كان جورج بوش الابن قد ألهب المشاعر بحماسة جياشة للحرب التي سيقودها حين قال: (إن مصير الحرية والنجاح في هذا العالم مرهون بانتصارنا على الإرهاب) فالإدارة الأمريكية تعتقد أنها تقود أُمّ المعارك؛ حيث ستسود الحرية والعدالة أرجاء المعمورة... وهكذا سادت مصطلحات جديدة كان الشعب الأمريكي بمنأًى عنها؛ كالحرب على الإرهاب، صناعة الموت، العدمية، الحرب دون الخسائر البشرية، يضاف إلى هذه المصطلحات: الإرهاب البيولوجي والمعلوماتي. وطغت مسألة الأمن على الحياة العامة، وأصبحت هاجس المواطن الأمريكي الذي أدرك بعد هذه الأحداث أن القوة العسكرية والاقتصادية والبشرية التي تتمتع بها لم تعد تكفي لمواجهة الأخطار المحتملة[1].

الإرهاب: ترفض أمريكا أن تعرِّف الإرهاب وتعلن قوائم الإرهابيين دولًا ومنظمات، وتعلن أن كل من ليس معها فهو ضدها. والبيان الصادر عن المجمع الفقهي في رابطة العالم الإسلامي (الإرهاب: يعني الاعتداء على الآخرين بدون وجه حق).

مرتكبو الاعتداء:

سارعت أمريكا فأعلنت بعد عدة أيام من الاعتداء. أن ابن لادن وراء الهجوم على بُرجي التجارة والبنتاغون، قام به مجموعة من الطيارين العرب الذين اختطفوا الطائرات الخمسة ونفذوا الهجوم صباح الثلاثاء (١١) أيلول بعد الثامنة صباحًا. كانت السماء صافية فوق الساحل الشرقي الأمريكي، لم يكن هناك ما يدل على شيء غير عادي، استقل طائرة (أمريكان أرلاينز) الرحلة رقم (١١) خمسة هم – كما حددتهم أجهزة التحقيق الأمريكية –: المصري محمد عطا، والسعوديون: وليد الشهري، وائل الشهري، عبد العزيز العمري وسطام السقامي،

---

(١) الثورة (٣/ ٣/ ٢٠٠٢م) عن (الأوبسرفاتور) الأمريكية.

اقتحم الخمسة (الذين يُزعَم أنهم من الخلايا النائمة للقاعدة) قمرة القيادة في الطائرة بعد قليل من إقلاعها من مطار بوسطن (شرق) في رحلة مقررة إلى لوس أنجلس (كاليفورنيا) وحوَّل واحد منهم مسارها باتجاه نيويورك تحديدًا باتجاه البرج الشمالي لمركز التجارة العالمية الشاهق وضربته، وبدأ الموظفون في هذا البرج بإخلائه في حين وصل مئات من رجال الإطفاء والدفاع المدني في محاولة إنقاذ المصابين من البرج المحترق.

كانت عملية الإخلاء بدأت للتو عندما اقتربت طائرة أخرى تابعة لشركة (يونايتد أيرلاينز) الرحلة (١٧٥) من البرج الجنوبي لمركز التجارة بعد نحو (١٨) دقيقة. كان المشهد مرعِبًا؛ ظلت الطائرة تسير على خط مستقيم حتى ضربت البرج في وسطه واخترقته من جهة وخرج حطامها من الجهة الثانية. كان خمسة آخرون من عناصر الخلايا النائمة - المزعومة - للقاعدة خطفوا الطائرة قبل لحظات وحوَّلوا مسارها إلى نيويورك والخمسة - كما أفاد الـ (إف، بي، آي) - هم: أحمد الغامدي، ومروان الشيحي، وفايز أحمد، ومحمد الشهري وحمزة الغامدي (والأسماء هنا أيضًا ليست بالضرورة صحيحة ولا حتى الجنسيات) التي أكدت أجهزة التحقيق الأمريكية أنها سعودية وإماراتية.

ما حصل في نيويورك كان على وشك أن يتكرر في أنحاء أخرى في الولايات المتحدة؛ إذ خطفت خلية أخرى - قيل: إنها من القاعدة - طائرة لـ (أمريكان أيرلاينز)، الرحلة (٧٧) وطارت بها إلى العاصمة واشنطن لتضرب مقر وزارة الدفاع (البنتاغون) وعناصر الخلية هم بحسب (إف، بي، آي): خالد المحضار، نواف الحازمي، هاني حنجور، سالم الحازمي، وماجد مقبد.

طائرة رابعة لـ (ديوناتد آيرلاينز) الرحلة (٩٣) كانت في طريقها - كما يبدو - نحو هدف رابع؛ لكن ركابها - الذين علم بعضهم من خلال اتصالات هاتفية أجروها خلال الرحلة بما حصل للطائرات الثلاث الأخرى - رفضوا الاستسلام لخاطفيهم؛ حاولوا المقاومة، واشتبكوا معهم كما تقول الرواية الأمريكية؛ مما أدى إلى سقوط الطائرة في غابة في ولاية بنسلفانيا؛ الأمر الذي يقول عنه المحققون الأمريكيون: إنه حال دون بلوغها الهدف. والخاطفون كانوا أربعة هم: سعيد الغامدي، زياد الجراح، وأحمد النعمي، وأحمد الحزناوي (سعوديون) والجنسيات حددتها أجهزة التحقيق الأمريكية... وشكَّل (١١ أيلول) كارثة لكبرياء أمريكا أصابتها في الصميم؛ فهناك العدد الهائل للضحايا الذي يقدر بأكثر من سبعة آلاف شخص[١]، وهناك أيضًا

---

(١) انخفض العدد إلى خمسة آلاف تقريبًا.

تدمير بُرجي مركز التجارة الشاهقين فوق نهر الهدسون وعلى مسافة قصيرة من تمثال الحرية. الأخطر من ذلك كله ما ظهر من عجز كلي للولايات المتحدة حتى عن الدفاع عن وزارة دفاعها (البنتاغون) على أبواب العاصمة واشنطن وعلى مسافة قصيرة من البيت الأبيض)[1].

هذا وقد ظهرت وثيقة بريطانية من عشرين صفحة تورد الأدلة على تورط القاعدة (التنظيم العسكري لابن لادن) وجاء في مقدمة الوثيقة:

(لا تزعم هذه الوثيقة أنها تشكل ادعاء يمكن تقديمه إلى المحاكم ضد أسامة بن لادن؛ إذ لا يمكن في حالات كثيرة استعمال معلومات الاستخبار ات كأدلة؛ بسبب قواعد مقبولية الأدلة في المحاكم من جهة، والحاجة إلى حماية مصدر المعلومات من جهة أخرى. لكن حكومة صاحبة الجلالة - بناء على كل المعلومات المتوافرة لها - واثقة بصحة النتائج الواردة في الوثيقة)[2].

آراء أخرى:

وقد ظهرت أكثر من دراسة لشخصيات أمريكية بارزة ترى أن الذي نفذ الاعتداء وخطط له جهات من داخل أمريكا، وإسرائيل واليهود ضالعان في هذا الهجوم. نسوق على سبيل المثال فقط ما كتبه الكاتب الأمريكي ديفيد ديول رئيس منظمة الحقوق الأمريكية الأوروبية في دراسة على موقعه الخاص على شبكة الإنترنت:

١ - في (١٠ أيلول ٢٠٠١م) نشرت صحيفة واشنطن تايمز تقريرًا عن دراسة من (٦٨) صفحة أعدها ضابط مركز الأبحاث والدراسات العسكرية في الجيش الأمريكي إلى المخاطر المحتملة لوجود قوات عسكرية في الشرق الأوسط، ومن مقاطع هذه الدراسة: القدرة على استهداف قوات ومصالح أمريكية وجعل الأمر يبدو وكأنه من تدبير فلسطينيين وعرب.

وبعد (٢٤) ساعة من نشر هذا التقرير يقع حادث التفجير في نيويورك وواشنطن.

٢ - في اليوم التالي للتفجيرات نشرت صحيفة جيروزلم بوست تقريرًا يؤكد اختفاء (٤٠٠٠) إسرائيلي. وهذا العدد كان بناءً على البلاغات التي تلقتها وزارة الخارجية الإسرائيلية من عوائل وأصدقاء المفقودين الذين اتصلوا بالوزارة في الساعات القليلة التي تلت الحادث. وحتى دون هذا التقرير فمنطقي أن يكون المئات بل الآلاف من الإسرائيليين في مركز التجارة العالمي خصوصًا مع معرفتنا مدى تغلغلهم في الاقتصاد الأمريكي؛ فمثلًا أكبر وأغنى الشركات في نيويورك هما شركتا جولدن ساكس وسولومون برززز. ونيويورك

(١) الحياة/ الثلاثاء (٩/ ١٠/ ٢٠٠١م).

(٢) الحياة (٥/ ١٠/ ٢٠٠١م).

عمليًّا مركز القوة الاقتصادية اليهودية وتحديدًا بُرجَا مركز التجارة.

٣ - عندما ألقى جورج بوش خطابه أمام الكونغرس ارتكب من الأخطاء الكثير؛ ومنها قوله: إن الذين قاموا بالهجوم فعلوا ذلك لأنهم يحقدون على الحرية... إلى قوله: بالإضافة إلى آلاف الأمريكيين هنا (١٣٠) إسرائيليًّا قضوا في الهجوم. والمغزى من ذلك أن الهجوم موجه ضد إسرائيل كما هو ضد الولايات المتحدة.

على كل حال هذا الرقم مثير للشك؛ فإذا كان هناك (٤٠٠٠) إسرائيلي يعملون في المبنى فكيف لم يقتل منهم سوى (١٣٠)؟ والحقيقة أنه لم يُقْتَل أكثر من واحد. بينما نجد من كل الجنسيات أعدادًا أكثر بكثير.

ويتابع الكاتب: بعد البحث في مئات المقالات سعيًا لمعرفة العدد الفعلي للإسرائيليين الذين قضوا في الحادث؛ وجدت تقريرًا نشر في صحيفة نيويورك تايمز أوضح أن العدد الفعلي للإسرائيليين الذين لقوا حتفهم من بين المائة والثلاثين الذين زعم بوش بأنهم قتلوا هناك هو إسرائيلي واحد فقط، والباقون ما زلوا أحياء.

٤ - نشرت صحيفة نيوز يايتس التابعة لواشنطن بوست مقالًا عنوانه: رسائل فورية حذرت من الهجوم على مركز التجارة العالمي قبل وقوعه. أيضًا صحيفة هآرتس الإسرائيلية أكدت تلك المزاعم على النحو الآتي: أكد المسؤولون في شركة أوديجو للرسائل الفورية أن اثنين من الموظفين استقبلا رسائل حذرت من الهجوم على مركز التجارة في نيويورك قبل ساعتين من وقوعه. كل ذلك يعطي أدلة دافعة على أن إسرائيل كان لديها علم مسبق بالهجوم؛ فالتحذيرات وراءها الموساد الإسرائيلي؛ وبالتالي الموساد مسؤول عن قتل آلاف الأمريكيين كما هو حال من قاموا بالهجوم.

ويرى الكاتب أن سُحُب الدخان الكثيف التي تصاعدت بين البرجين أدخلت البهجة والسرور في قلوب الإرهابيين الإسرائيليين. ويذكر أن المباحث الأمريكية ألقت القبض على خمسة إسرائيليين قرب موقع الحادث وهم يصورون بفرح بالغ مشاهد الدمار التي حلت بالمباني هناك... ويختم كلامه بقوله:

إلى متى نظل عاجزين عن وضع حد لكل العملاء الإسرائيليين والخونة الأمريكيين لوقف خمسين عامًا من دعم الإرهاب الإسرائيلي؟[1].

---

(١) الثورة السورية العدد (١١٧٢٥) (٤/ ٣/ ٢٠٠٢م) ت. د. سعيد مسلم.

الإسلاميون حكومات ومنظمات يُدينون العدوان:

ففي المؤتمر الوزاري الطارئ لدول القمة الإسلامية والذي عقد في الدوحة، أُصدر بيان بإدانة العدوان وإدانة الإرهاب وهذا نصه:

« أدان المؤتمر بشدة أعمال الإرهاب الوحشية التي تعرضت لها الولايات المتحدة والتي نجم عنها خسائر فادحة في الأرواح البشرية من مختلف الجنسيات ودمار هائل وأضرار بالغة في مدينتي نيويورك وواشنطن، وأكد المؤتمر أن هذه الأعمال الإرهابية تتنافى مع تعاليم الديانات السماوية والقيم الأخلاقية والإنسانية، كما أكد ضرورة ملاحقة مرتكبي هذه الأعمال في ضوء نتائج التحقيقات وتقديمهم للعدالة لينالوا عقابهم. وأكد مؤازرته لهذا الجهد وأعرب عن تعازيه وتعاطفه مع شعب الولايات المتحدة وحكومتها وذوي الضحايا في هذه الظروف الحزينة المأساوية.. »[(١)].

قادة الحركات الإسلامية:

أوضح البيان الذي وقَّع عليه (٧٤) من قادة الحركات الإسلامية والعلماء - وتلقته (الحياة) أمس - أنهم استنكروا الاعتداء الإرهابي على منشآت أمريكية ضخمة أودى بحياة ضحايا أبرياء ينتمون إلى أكثر من ستين دولة وأديان كثيرة؛ تأسيسًا على أن الإسلام أعلى مكانة الحياة الإنسانية، وأن القرآن نص على أن قتل نفس واحدة كقتل الإنسانية جمعاء. واعتبروا أن ما حصل في نيويورك وواشنطن كارثة أخرى تضاف إلى الكوارث البشرية في هيروشيما وفلسطين ولبنان ورواندا وغيرها، وشدد الموقعون على البيان على مبدأ أن يحاكم كل من ثبت تورطه في أعمال إرهابية ضد الإنسانية سواء كان فردًا أو جماعة أو حكومة، وأن يعاقب من دون محاباة. غير أنهم اعتبروا أن أي محاولة للعقاب العشوائي للشعوب باسم الحرب ضد الإرهاب - تعد انتهاكًا لأبسط مبادئ العدل. وطالب القادة والعلماء كل حكومات العالم وخصوصًا الحكومة الأمريكية بكبح جماح غضبها على الإقدام على أي عمل عشوائي أو منفرد لاستخدام القوة على أساس مجرد الاشتباه والشك... ومن الموقعين على البيان المرشد العام للإخوان المسلمين مصطفى مشهور والعالم الإسلامي يوسف القرضاوي وأمير الجماعة الإسلامية في باكستان[(٢)]...)[(٣)].

---

(١) بيان المؤتمر الوزاري الطارئ لوزراء خارجية دول القمة الإسلامية، الحياة (١١/ ١٠/ ٢٠٠١م).

(٢) الموقعون يمثلون كل الحركات في دول العالم العربي والإسلامي. وهم أربع وسبعون شخصية.

(٣) الحياة، العدد (١٤٠٧٠) في (٢٣/ ٩/ ٢٠٠١م).

أمريكا توجه الاتهام لابن لادن:

لقد أعلن الإعلام الأمريكي للوهلة الأولى أن الطائرات لم يكن فيها أحد من الركاب العرب، ثم عاد فذكر أن في هذه الطائرات تسعة عشر عربيًّا هم الذين نفذوه. ثم أعلن أن الشيخ أسامة بن لادن هو المتهم الأول بالتخطيط له. كما ذكر الإعلام الأمريكي أن هناك أربعة آلاف محقق يدرسون أربعين ألف دليل للتعرف على هوية المنفذين للهجوم. وقياسًا على تفجير المدمرة كول؛ فقد استغرقت التحقيقات عامين كاملين، ولم يصدر بعد التقرير النهائي عن الهجوم. وأعلن مدير التحقيقات الأمريكية في (٢٢/ ٢/ ٢٠٠٣م) عن كشف كثير من المعلومات والأدلة الجديدة في تفجير المدمرة كول والذي حدث في شهر (٣) سنة (٢٠٠٠م). وقياسًا على هذه الدقة في التحقيق فيحتاج حادث الأبراج لأربع سنين على الأقل للتثبت من هوية المنفذين والمخططين؛ لكن العالم فوجئ بعد أقل من أسبوع واحد بأن التسعة عشر هم المنفذون، وأن المخطط والمدبر للعملية هو ابن لادن. وأعلنت أمريكا الحرب على ابن لادن وطالبت دولة طالبان بتسليمه من دون تقديم أي دليل على أنه هو الذي خطط ونفذ الهجوم على الأبراج والبنتاغون. وأعلنت دولة طالبان استعدادها لتسليمه إلى محاكمة عادلة لو قدمت أمريكا الأدلة على ذلك، ورفضت أمريكا العرض الأفغاني، وأعلنت الحرب على دولة طالبان ما لم تسلم ابن لادن إليها خلال مدة معينة (أقل من شهر).

أمريكا تدمر أمة من أجل فرد:

فـ(قد أخذت الولايات المتحدة زمام القانون بيدها في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر الماضي، وأصبحت هي الخصم والحكم في مواجهة كل من تعتقد أنه يهدد أمنها ومصالحها دون حاجة إلى أدلة أو إثباتات؛ فقامت بحرب طاحنة في أفغانستان أزالت فيه نظام طالبان عن السلطة، وولَّت نظامًا جديدًا حليفًا لها.

ونتج عن حملتها العسكرية على أفغانستان تدمير عشرات القرى ومقتل آلاف الأفغان من المدنيين وتشريد عشرات الألوف عدا القتلى من تنظيم القاعدة وحركة طالبان؛ وذلك وفق تقارير عديدة أهمها التقرير الذي أصدره البرفسور الأمريكي (مارك دبليو هيرولد) من جامعة (ديوهامبشير) حول القتلى المدنيين الأفغان الذين قدرهم من بداية الهجوم الأمريكي في السابع من أكتوبر حتى الثالث من ديسمبر الماضي فقط بأنهم (٣٧٦٧) قتيلًا من الأطفال والنساء والعجائز والعُزَّل. ولا يزال القصف الأمريكي مستمرًّا حتى الآن. والآن

تدور في الأفق سيناريوهات عن أهداف أخرى على رأسها العراق والصومال)[١].

ويصف المرشد العام للإخوان المسلمين هذه الحرب بأنها حرب تستهدف الإسلام والمسلمين (تدمر القرى والمدن وتهلك الحرث والنسل، ولم يتعرض الشعب الأفغاني في تاريخه الطويل لمثل ما يتعرض له اليوم من فتنة من خلال المال، والتلويح بمناصب ومظاهر للحكم والجاه والسلطان، وتخريب الذمم، وتدمير القيم، وزرع الشقاق بين فئات الشعب المتعددة، وتشريد الألوف من المواطنين أو سحقهم بالصواريخ وأسلحة الدمار الشامل مع توجيه الاتهامات إلى شتى الجهات العربية الإسلامية)[٢].

زعماء أمريكيون يدينون حكومتهم:

نذكر على سبيل المثال أربعة نماذج:

١ - **عضو الكونغرس (دينيس كوشيتش)** ديمقراطي من أوهايو قال في كلمته الرائعة التي ألقاها في (٢٧ شباط ٢٠٠٢م):

لِم يخوِّل الرئيس ورجاله أن يعلنوا الحرب (عملية الحرية الدائمة) ضد العالم دون قيد أو سبب؟ ولِم يخولوا زيادة الإنفاق العسكري أكثر من (٤٠٠) مليون دولار في السنة؟ ولم يخولوا إبطال (لائحة الحقوق)؟ وأضاف في أول تصريح لمسؤول منتخب: لم نطلب أن يثأر لدماء الأبرياء الذين قضوا في (١١) أيلول بسفك دماء القرويين الأبرياء في أفغانستان[٣].

٢ - **كشف الكاتب الأمريكي ديفيد ديول رئيس منظمة الحقوق الأمريكية الأوروبية والعضو السابق في مجلس النواب الأمريكي** عن ولاية لويزيانا في دراسة مهمة له عبر موقعه الخاص عن تورط إسرائيل وممارستها للإرهاب المنظم، ليس ضد الشعب الفلسطيني والعربي؛ بل ضد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. ومما قاله: إنه من السذاجة تصديق مقولة: إن العالم يكره أمريكا من أجل الحرية..

ويضيف أن العديد من السياسيين الأمريكيين خانوا شعبهم بدعمهم غير المحدود لأكبر دولة راعية للإرهاب على وجه الأرض (إسرائيل).

وهم سمحوا لدولة أجنبية إرهابية بالسيطرة على الإدارة السياسية الأمريكية، مستشهدًا

---

(١) من مقدمة المقابلة مع وزير العدل الأمريكي الأسبق لأحمد منصور.

(٢) من كلمة كتبها المرشد العام مصطفى مشهور في (١٥/ ١/ ٢٠٠٢م).

(٣) أفكار بشأن أمريكا. لإدوارد سعيد، الحياة (٧/ ٣/ ٢٠٠٢م).

بقول وليم فولبرايت: (إن إسرائيل مسيطرة على مجلس الشيوخ الأمريكي؛ هم يملكون المصارف في هذا البلد، وكذلك الصحف، ويستطيعون فعل ما يريدون)[١].

٣ - **رمزي كلارك وزير العدل الأمريكي الأسبق أيام جونسون. ومؤسس ورئيس مركز العمل الدولي**. قال في مقابلته مع الأستاذ أحمد منصور في برنامج (بلا حدود) في (٩/ ١/ ٢٠٠٢م) يصف السياسة الخارجية الأمريكية:

(هناك أكثر من (٧٥) تدخلًا عسكريًّا أمريكيًّا رئيسيًّا في مناطق العالم منذ عام (١٩٤٥م) ونحن نشاهد واحدًا الآن في أفغانستان، ولا نزال نملك قواعد عسكرية دائمة في كوريا وفي غرب أوروبا وفي اليابان وربما في مناطق لا يعرف عنها الأمريكيون، وهم الآن في جنوب وسط آسيا وفي الصومال، ونحاول السيطرة على المياه في المنطقة، وليس في شبه الجزيرة العربية فقط.

إن السياسة الخارجية كانت كارثة لشعبنا وأبقتنا في حالة نزاع عسكري مستمر وميزانية عسكرية ضخمة، ولكن لدينا فقراء هنا؛ فهناك (٣٥) مليون أمريكي يعيشون تحت خط الفقر، وبدلًا من أن نساعد الناس نحن نضرُّ بهم. وفي إسرائيل كانت سياستنا قائمة على أساس دعم قيام إسرائيل؛ قلنا: إن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض... والشعب الفلسطيني يتعرض للقمع باستمرار ويذل. هذه هي السياسة الخارجية الأمريكية أقول: إنها كارثة على الشعب الأمريكي...)[٢].

٤ - **إدوارد سعيد أستاذ الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا**: (يمكن لكل من تابع الصحافة العالمية في الأسابيع القليلة الماضية أن يتأكد من أن الناس خارج الولايات المتحدة يشعرون بالحيرة والذعر على السواء إزاء سياسة الولايات المتحدة التي تعطي لنفسها الحق في أن تتخيل وتخلق أعداء على نطاق عالمي. ثم تشن حروبًا ضدهم من دون إبداء اهتمام يُذكر لدقة التعريف أو صواب الغاية أو - وهو الأسوأ إطلاقًا - شرعية مثل هذه الأعمال. ماذا يعني دحر الإرهاب الشرير في عالم كعالمنا؟ إنه لا يمكن أن يعني استئصال كل من يناهض سياسة الولايات المتحدة؛ فهي مهمة غير محدودة وعبثية على نحو غريب. كما لا يمكن تغيير خريطة العالم كي تلائم سياسة الولايات المتحدة لتحل أشخاصًا تعتقد أنهم أخيار محل مخلوقات شريرة مثل صدام حسين. ويبدو التبسيط المفرط لهذا كله جذابًا

---

(١) حقائق دامغة عن الإرهاب الإسرائيلي ضد الولايات المتحدة، الثورة الدمشقية (٤/ ٣/ ٢٠٠٢م).

(٢) من المقابلة مع الوزير المذكور في برنامج: بلا حدود.

لبيروقراطيي واشنطن الذين يمتاز نشاطهم بطابع نظري صِرف، أو يميلون - لأنهم يجلسون وراء مناضد في البنتاغون - إلى رؤية العالم كهدف بعيد لقوة الولايات المتحدة الحقيقية تمامًا، والتي لا تلقى أي مقاومة. فإذا كنت تعيش على عشرة آلاف ميل من أي دولة شريرة معروفة، ويوجد تحت تصرفك أعداد وافرة من الطائرات و (١٩) حاملة طائرات وعشرات الغواصات زائد مليون ونصف مليون جُندي تحت السلاح كلهم مستعدون لخدمة بلادهم بدوافع مثالية؛ سعيًا إلى تحقيق ما يواصل بوش وكوندوليزا الإشارة إليه باعتباره قوًى شريرة. فالأرجح أنك ستكون مستعدًّا لاستخدام كل هذه القوة في وقت ما في مكان ما إذا استمرت الإدارة تطلب وتحصل على إضافة بلايين الدولارات إلى وزارة الدفاع المنتفعة بالفعل.

بالفعل أكثر الأشياء إثارة للاشمئزاز في نظري هو أن معظم المثقفين والمعلقين في هذا البلد مع بضعة استثناءات قبلوا برنامج بوش... ولا يرون ضرورة لذكر مئات الآلاف الذين قتلوا بأسلحة أمريكية من قِبل إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة أو مئات الآلاف الذين قتلوا نتيجة العقوبات التي تدعمها الولايات المتحدة ضد سكان العراق الأبرياء)[1].

هذا هو الإرهاب وهذه آثاره في تدمير العالم، وبث الكراهية بين الشعوب. ولا بد أن نقدم قبل انتهاء الحديث عن الإرهاب رأي الإسلام فيه من خلال المجمع الفقهي في رابطة العالم الإسلامي الذي يضم نخبة من خيرة علماء المسلمين في الأرض؛ وذلك في البيان الذي أصدره المجمع في ختام دورته السادسة عشرة في شوال (١٤٢٢هـ) كانون الثاني (٢٠٠٢م). ومما ورد في البيان:

أولًا: خطورة الحملات الإعلامية والثقافية على الإسلام والمسلمين:

وأشار في هذا السياق إلى خطورتها على أمن الناس؛ إذ تسعى إلى:

١ - دفع المجتمعات الغربية خصوصًا إلى اتخاذ الإسلام عدوًّا جديدًا مكان الشيوعية، وشن الحرب الثقافية على أصوله وتشريعاته وأحكامه الإلهية.

٢ - إثارة النعرات الصليبية لدى الشعوب الغربية والحث على ما سموه وجوب انتصار الغرب على الإسلام.

٣ - إثارة أنواع الكراهية والتمييز العنصري ضد الإسلام والمسلمين، والعمل لمضايقة الأقليات والجاليات الإسلامية.

---

(١) أفكار بشأن أمريكا، للكاتب الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد، الحياة (٧/٣/٢٠٠٢م).

٤ - الترويج لنظرية صموئيل هنتنجتون في صراع الحضارات، ولفت النظر إلى ما نتج عن هذه الحملات المسعورة من إيقاع الأذى بفئات من المسلمين في المجتمعات الغربية وسجن العديد منهم والإضرار بمساجدهم ومراكزهم الثقافية؛ مما جعلهم يعانون معاناة قاسية. وأدان المجمع هذه الحملات المغرضة والمغالطات والافتراءات المتعمدة على الإسلام، مستنكرًا إيذاء المسلمين وإيقاع الضرر بمؤسساتهم من دون سبب، وذكَّر المجمع وهو يتابع ما يحدث للمسلمين في الغرب بسبب انتمائهم للإسلام - بأن الإسلام يشجع على التواصل والتعارف والتعاون بين المسلمين وغيرهم في مصالحهم المتبادلة.

ثانيًا: تكريم الإنسان للإنسان من دون تمييز:

وفي هذا السياق أكد المجمع أن سمو الإنسانية وتقدمها ورقيها وتعايش شعوبها في أمن وسلام وتعاون تكون بسيادة منظومة المبادئ والقيم وفي مقدمتها قيمة العدالة، وباحترام الشعوب للشعوب وفق التوجيهات التي نزلت بها الكتب الإلهية، وشدد على أن تكريم الإنسان للإنسان اقتضى حمايته؛ حيث جعله معصوم الدم والمال. واعتبر الإسلام غير المسلم في البلد المسلم محميًّا « **له ما لنا وعليه ما علينا** » وفق النص النبوي الذي تتقيد به الأمة المسلمة.

ثالثًا: الإسلام والإرهاب:

وجاء في البيان أن مفاهيم التطرف والعنف والإرهاب ليست من الإسلام في شيء، وأنها أعمال خطيرة لها آثار فاحشة وفيها اعتداء على الإنسان وظلم له.

- تعريف الإرهاب:

الإرهاب: يعني الاعتداء على الآخرين من دون وجه حق. وعرفه البيان بأنه « العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيًا على الإنسان (دينه، ودمه، وعقله، وعِرضه، وماله) ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصورة الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد يقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر. ومن صنوفه: إلقاء الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر؛ فكل هذا من صور الفساد في الأرض ».

وأعلن المجمع الفقهي « أن اللَّه شرع الجزاء الرادع للإرهاب والعدوان والفساد واعتبره محاربة للَّه ورسوله. وأكد أن (من أنواع الإرهاب إرهاب الدولة، ومن أوضح صوره وأشدها

شناعة الإرهاب الذي يمارسه اليهود في فلسطين وما مارسه الصرب في كلٍّ من البوسنة والهرسك وكوسوفا) واعتبر أن هذا النوع من الإرهاب (من أشد أنواعه خطرًا على الأمن والسلام في العالم) وأن مواجهته هي من قبيل الدفاع عن النفس والجهاد في سبيل اللَّه ».

رابعًا: العلاج الإسلامي للتطرف والعنف والإرهاب:

وفي هذا السياق شدد بيان المجمع على أن (الإسلام سبق جميع القوانين في مكافحة الإرهاب وحماية المجتمعات من شروره، وفي مقدمة ذلك حفظ الإنسان وحماية عِرضه وحياته وماله ودينه وعقله من خلال حدود واضحة منع الإسلام من تجاوزها) وزاد (أن الإسلام منع بغي الإنسان على أخيه الإنسان. وحرم كل عمل يُلحق الظلم به) كما (شنّع على الذين يؤذون الناس في أنحاء الأرض ولم يحدد ذلك في ديار المسلمين) وأضاف أن (الإسلام أمر بالابتعاد عن كل ما يثير الفتن بين الناس) وفي الإسلام (توجيه للفرد والجماعة للاعتدال واجتثاث نوازع الجنوح والتطرف وما يؤدي إليهما من غلو في الدين) وتابع (أن الإسلام عالج نوازع الشر المؤدية إلى التخويف والإرهاب والترويع والقتل بغير حق، وأن اللَّه أوصى بمعاملة أهل الذمة بالقسط والعدل؛ فجعل لهم حقوقًا ووضع عليهم واجبات، ومنحهم الأمان في ديار المسلمين، وأوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأً، كما حرم قتل الذمي الذي يعيش في ديار المسلمين).

وأعلن المجمع أن (جريمة قتل النفس الواحدة بغير حق تعادل في الإسلام في بشاعتها قتل جميع الناس سواء كان القتل للمسلم أو لغيره بغير حق) وأشار إلى أن تنفيذ الحدود والقصاص من خصائص ولي أمر الأمة وليس للأفراد والجماعات.

خامسًا: الجهاد ليس إرهابًا:

وركز البيان على أن الجهاد في الإسلام شُرع نُصرةً للحق، ودفعًا للظلم، وإقرارًا للعدل والسلام والأمن، وتمكينًا للرحمة التي أرسل محمد ﷺ بها للعالمين ليخرجهم من الظلمات إلى النور؛ مما يقضي على الإرهاب بكل صوره. فالجهاد شرع لذلك وللدفاع عن الوطن ضد احتلال الأرض ونهب الثروات، وضد الاستعمار الاستيطاني الذي يخرج الناس من ديارهم، وضد الذين يظاهرون ويساعدون على الإخراج من الديار، وضد الذين ينقضون عهودهم، ولدفع فتنة المسلمين في دينهم أو سلب حريتهم في الدعوة السلمية إلى الإسلام ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ

وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة ٨، ٩].

ونبه إلى أن للإسلام آدابًا وأحكامًا واضحة في الجهاد المشروع تحرم قتل غير المقاتلين، كما تحرم قتل الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال، وتحرم تتبع الفارين أو قتل المستسلمين أو إيذاء الأسرى أو التمثيل بجثث القتلى أو تدمير المنشآت والمواقع والمباني التي لا علاقة لها بالقتال.

وأعلن (أنه لا يمكن المساواة بين إرهاب الطغاة وعنفهم، الذين يغتصبون الأوطان ويهدرون الكرامات ويدنسون المقدسات وينهبون الثروات، وبين ممارسة حق الدفاع المشروع الذي يجاهد به المستضعفون لاستخلاص حقوقهم المشروعة في حق تقرير المصير) وحضَّ المجمع على (ضرورة التمييز بين الجهاد المشروع لرد العدوان ورفع الظلم وإقامة الحق والعدل، وبين العنف العدواني الذي يحتل أرض الآخرين أو ينتقص من سيادة الحكومات الوطنية على أرضها أو يروع المسالمين ويحولهم إلى لاجئين).

ودعا العالم إلى (معالجة العنف العدواني ومنع إرهاب الدولة الذي يمارسه الاستعمار الاستيطاني في فلسطين) وأدان (كل ممارسات إسرائيل العدوانية ضد فلسطين وشعبها والمقدسات الإسلامية فيها) كما دعا الدول المحبة للسلام إلى (مساعدة شعب فلسطين وتأييده في إعلان دولة فلسطين المستقلة وعاصمتها مدينة القدس).

وأكد (أن تجاهل العدالة في حل المشكلات الإنسانية وانتهاج أسلوب القوة والاستعلاء في العلاقات الدولية هو من أسباب كثير من الويلات والحروب، وعدم حل قضية الشعب الفلسطيني على أسس عادلة أوجد بؤرة للصراع والعنف، ولا بد من العمل لرد الحقوق ودفع المظالم) وذكَّر بأن (دين الإسلام يحرِّم الإرهاب ويمنع العدوان ويؤكد على معاني العدالة والتسامح وسمو الحوار والتواصل بين الناس) داعيًا الشعوب والمنظمات الدولية إلى (التعرف على الإسلام من مصادره الأساسية لمعرفة ما فيه من حلول للمشكلات البشرية)[1].

ثم قدَّم توصيات للمسلمين للاعتصام بكتابهم وسنة نبيهم ﷺ وتأصيل منهاج الوسطية، ورفض التدخل في مناهج المسلمين، والدعوة لتوحيد كلمة المسلمين وتكوين اتحاد عالمي للعلماء المسلمين، ووضع ميثاق للعمل الخيري، وعون الأقليات المسلمة والاتصال بالعالم.

---

(١) بيان مكة المكرمة للمجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في (٢٦ شوال ١٤٢٢هـ) الحياة (٢١/ ١/ ٢٠٠٢م).

المبادئ الأمريكية بين النظرية والتطبيق:

تعلن أمريكا صراحة أنها تقاتل في سبيل مبادئ، وأسمت حملتها ضد الإرهاب بالحملة للحرية الدائمة، وتُوهِم الناس بأنها في حرب مشروعة للدفاع عن النفس في نفس الوقت الذي تعلن فيه أنه مَن لم يكن معها فهو ضدها؛ فهي المرجعية في المبادئ والمواقف، وعلى الجميع أن يذعنوا لها ويقبلوا بمواقفها وكأنها الوحي أو الحق المنزل من السماء وتمثل الخير في الدنيا. والذي يقول لها في شيء: (لا) يمثل محور الشر في الأرض. ووجد مُطبِّلون ومزمِّرون لها من أدعياء الثقافة ينصحون العالم بالخضوع والرضوخ لفكر أمريكا وقوة أمريكا ومواقف أمريكا. يمثل هذا الأمر تمامًا ما أعلنه بوش في خطابه؛ حيث يجدد الخطاب أهداف الحرب عبر (صيغتين):

تسرد الأولى منهما الدول والمنظمات المستهدفة، وباستثناء كوريا الشمالية؛ فإن كافة الأطراف المستهدفة إما عربية أو إسلامية (العراق، إيران، حماس، الجهاد الإسلامي، حزب اللَّه، جيش محمد، أبو سياف، بالإضافة إلى القاعدة).

... ويُذكر في هذا الصدد أن معظم لوائح المنظمات الإرهابية الصادرة عن السلطات الأمريكية تتضمن أقلية ضئيلة من المنظمات غير الإسلامية بما يضفي على اللوائح من وجهة نظر شعبية أمريكية طابعًا من المصداقية والموضوعية من دون أن يبدو الواقع الذي يتفق عليه معظم الأمريكيين - ضمنًا - من أن الخطر الإرهابي هو أولًا خطر إسلامي.

أما الصيغة الثانية التي يعتمدها خطاب حال الاتحاد في تحديد أهداف الحرب فهي التي تؤكد الطبيعة العقائدية للمواجهة؛ وذلك عبر إعلان المبادئ (غير القابلة للتفاوض) وفق نص الخطاب والتي تعتزم الحكومة الأمريكية العمل بها في مختلف أرجاء العالم وهي:

حكم القانون، الضوابط على سلطة الدولة، احترام النساء، الملكية الشخصية، حرية التعبير، المساواة أمام القضاء، التسامح الديني ويمكن بالطبع نقد استعمال خطاب بوش لهذه المبادئ من حيث الانتقائية في اختيارها، ومن حيث اعتبار الحكومة الأمريكية ضمنًا الجهة المخولة للحُكْم على سلامة تطبيقها؛ فحق تقرير المصير، والحق بعدم الرزوح تحت الاحتلال الأجنبي - مثلًا - ليسا مدرجين على هذه القائمة... ويقدم خطاب الرئيس بوش للمستمع الأمريكي في استخلاصه العبر من مجريات الأحداث في أفغانستان تأكيدًا على أن القيم والمبادئ الأمريكية - ولا سيما الحرية والعدالة - هي الأسمى؛ إذ يقول: (إذا كان ثمة من لديه شكوك في هذا الصدد فعليه أن ينظر إلى أفغانستان حيث استقبل الشارع المسلم سقوط الطغيان بالغناء والاحتفال) وفق نص الخطاب.

فالحرب على الإرهاب من وجهة نظر معظم الأمريكيين ليست - بالطبع - حربًا صليبية، ولا علاقة للمسيحية بها بتاتًا؛ لكنها رغم ذلك - بالإضافة إلى كونها حربًا دفاعية مشروعة - حرب عقائدية بين مفهوم مستنير متطور وآخر ظلامي متخلف للحاكمية والعدالة الاجتماعية. وتأكيد خطاب الرئيس حول إصراره على دعم (الرجال والنساء) يرضي المستمع الأمريكي الذي يطمئن إلى أن معتقده سَوف ينتشر[1].

المثقفون الستون والمبادئ:

صدر بيان عن ستين مثقفًا أمريكيًّا وُجِّه إلى (إخواننا وأخواتنا في المجتمعات الإسلامية). وكان من بين أبرز الموقعين: هنتنجتون وجيرار برادلي وصاموئيل فريدمان.. ويلحظ من هذه الأسماء أننا إزاء تنظير لمثقفين (على الأقل أغلبهم) رسميين أو شبه رسميين. وقد نشرت (السفير) النص الكامل في (١٦/ ٢/ ٢٠٠٢م)...

يحدد البيان خمسة مبادئ أو حقائق أساسية يريد القول: إنها أهداف الحرب الأمريكية:

المبدآن الأول والثاني هما: أن البشر يولدون متساوين في الكرامة والحقوق، والشخصية الإنسانية هي العنصر الأساسي في المجتمع، وتكمن شرعية الحكم في حماية هذه الشخصية.

المبدأ الثالث: مبدأ رغبة البشر بطبيعتهم في البحث عن غاية الحياة.

المبدأ الرابع: مبدأ حرية الضمير والحرية الدينية.

المبدأ الخامس: القتل باسم اللَّه مخالف للإيمان باللَّه ويعد خيانة عظمى لكونية الإيمان الديني[2].

*** ولو أخذنا المبدأ الأخير على علاته لوجدناه ضعيفًا أمام أسئلة، مثل:**

- هل القتل باسم الحرية والديمقراطية والحقائق الأربع السابقة - مخالف لها وخيانة عظمى كونية؟

- هل احتلال فلسطين وتشريد أهلها وسرقة ممتلكاتهم واغتصاب بيوتهم وإقامة الدولة العبرية، ومن قتل منهم تحت اسم الوعد الإلهي - مخالف لها وخيانة عظمى كونية؟

- أَوَلا ينطبق المبدأ الخامس على من أباد الهنود الحمر باسم اللَّه فيكون مخالفًا لها وخيانة عظمى كونية؟

---

(١) حال الاتحاد والواقع الأمريكي د. حسن نعيمة، الحياة (٣/ ٢/ ٢٠٠٢م).

(٢) من مقال لـ: د منير شفيق عن البيان ومُوقِّعيه (بتصرف) الحياة (٢٤/ ٢/ ٢٠٠٢م).

فأمريكا تعلن إذن وأبواقُها الثقافية أنها تخوض الحرب ضد الإرهاب في العالم لتثبت هذه المبادئ التي لا تقبل النقاش. **ونحن نقول لها: هذا هو سجلك في هذا القرن في قتل الأبرياء باسم هذه المبادئ:**

- في ليلة واحدة (١٣ - ١٤ فبراير ١٩٤٥م) بلغت الخسائر البشرية في صفوف المدنيين في مدينة درسن مائة ألف قتيل نتيجة الغارات التي قامت بها (٣٣٠) قاذفة قنابل أمريكية وبريطانية.

- ساهمت القوات الأمريكية في تدمير أربعين مدينة ألمانية وأكثر من (١٥٠) مدينة صغيرة، وألقت خلال الحرب مع بريطانيا ما قدره مليون طن من القنابل.

- ولنا أن نتصور مقدار الخسائر البشرية التي تذهب المصادر على أنها بلغت الملايين.

- شهدت مدينة طوكيو في ليلة (٢٣ مايو ١٩٤٥م) أعنف غارة حربية في التاريخ؛ فقد ألقت (٥٢٠) قاذفة قنابل أمريكية أربعة آلاف طن في مساحة لا تتعدى (١١كم٢)؛ مما أدى إلى حدوث عاصفة النار التي أتت على حياة مائة ألف نسمة.

- إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناغازاكي.

- حرب فيتنام: هذه الحرب وضع فيها سبعة ملايين إنسان في معسكرات الاعتقال وقتل (١٦٠٠٠٠) وعذب (٧٠٠٠٠) سجين وفي (١٦٠٠٠) معسكر وصفتها مجلة (ذي نيشن) بأنها حرب قذرة وضروس وشبيهة بحرب فرنسا بالجزائر[١].

- في حرب كوريا سقط (٣,٥) مليون مدني كما ذكر وزير العدل الأسبق كلارك.

- نعوم تشومسكي يتحدث عن حرب أفغانستان التي شنها بوش عليها بأنها عرَّضَت ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين مدني للمجاعة والموت.

- قتل مئات الآلاف من الأطفال العراقيين الذين ماتوا بسبب الحصار.

فهل هؤلاء المدنيون الذين قتلوا بالسلاح الأمريكي كلهم قتلوا من أجل هذه المبادئ؟

هذا هو سجل الإرهاب وهذا ما فعله بالبشرية.

ونبحث عن الحوار وما فعله بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بعد أن تحدثنا عمَّا فعله الإرهاب الأمريكي والصهيوني في الساحة العالمية.

---

(١) الحرب العالمية الثانية، دار المعارف (١٩٦٥م)، وجرائم الحرب في فيتنام لراسل.

أيام في تاريخ أمريكا والإسلام:

ينقل هذا الحديث الدكتور أحمد الفتيحي عضو هيئة تدريس كلية طب جامعة هارفارد بوسطن.

... في يوم الثاني عشر من سبتمبر انهارت علينا الصحف وقنوات التلفاز والمذياع تمطرنا بالأسئلة من كل مكان. ودُعيت إلى قناتين تلفازيتين وعدة صحف محلية ودولية. ونحن نحاول أن نثبت إنسانيتنا وأننا برآء مما حدث. في يوم واحد وجدنا أنفسنا نقف على ثغر مفتوح، وينهال علينا الهجوم من كل مكان. وقلوبنا تدمي ولسان حالنا يقول: إن الدعوة إلى اللَّه قد تراجعت خمسين عامًا في أمريكا والعالم أجمع.

في يوم الثالث عشر من سبتمبر اجتمع في الساحة المقابلة لمقر عمدة مدينة بوسطن عشرة آلاف شخص، وتحدث رؤساء الديانات بما فيهم المسلمون، وجرى شرح موقف الإسلام، وشاهد الملايين ذلك واستمعوا إلى القرآن الكريم أيضًا. وحدث مثل هذا في ولايات أمريكا كلها.

- في يوم الجمعة الرابع عشر من سبتمبر دُعينا مرة أخرى للمشاركة في برامج تلفازية عدة، وقد شاركتُ في أحدها كما شارك في صلاة الجمعة في المركز الإسلامي للجمعية الإسلامية في بوسطن - في خيمة مخصصة لذلك - رؤساءُ الكنائس المجاورة وعمدة مدينة كامبردج، وشرحنا الإسلام للحاضرين تحت تغطية إعلامية.

- في يوم الخامس عشر من سبتمبر ذهبت إلى أكبر كنيسة في بوسطن تلبيةً لدعوة للجمعية الإسلامية هناك لتمثيل الإسلام في دعوة خاصة، وقد حضر عمدة المدينة ورؤساء جامعات، وزاد عدد الحاضرين على الألف. استُقبلنا استقبال السفراء، وتحدث كبير القساوسة في خطبته ودافع عن الإسلام كدين سماوي، وأعلم الحاضرين بوجودي ممثلًا للجمعية الإسلامية في بوسطن. وبعد الانتهاء من المحاضرة وقف بجواري كبير القساوسة وقرأت البيان الذي صدر من كبار علماء المسلمين والذي يدين العمل الشائن، ويشرح موقف الإسلام ويبين مبادئه وتعاليمه السامية. ثم قرأت ترجمة معاني آيات من القرآن الكريم باللغة الإنجليزية أولًا ثم مرتلًا ترتيلًا، وارتفع قول اللَّه تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ... ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ... ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ... ﴾ [النساء: ١٣٥] وكانت لحظات لن أنساها تلك التي انقلبت فيها الكنيسة إلى بكاء عند سماع آيات من كتاب اللَّه تعالى،

وفي لحظات قليلة أحسست بحكمة اللَّه تعالى بطريقة لا تدركها عقولنا المتواضعة.

- وفي يوم الأحد السادس عشر من سبتمبر وجهت الجمعية الإسلامية في بوسطن دعوة مفتوحة في مقر المركز الحالي في كامبردج والموجود بين جامعتي هارفارد ومعهد ماساتشوستش للتكنولوجيا، ولم نتوقع حضور أكثر من مائة شخص. وكانت مفاجأة أن يحضر أكثر من ألف شخص من الجيران من أساتذة جامعات ورجال دين؛ بل حضر كبار القساوسة من الكنائس المجاورة التي دُعينا إليها لإلقاء كلمات عن الإسلام. وتحدث الجميع تضامنًا مع المسلمين، وانهالت علينا أسئلة كثيرة تريد أن تعرف الإسلام وتفهم تعاليمه. ولم يكن بين الأسئلة سؤال واحد تهجمي؛ بل على العكس من ذلك فقد رأينا الأعين تدمع وهي تسمع عن الإسلام ومبادئه السامية، ومنهم الكثيرون ممن لم يسمعوا قبل عن الإسلام إلا من وسائل الإعلام المغرضة. ودعيت مرة أخرى في اليوم نفسه لأشارك في اللقاء الذي عقد في الكنيسة التي شاركت فيها في اليوم السابق. وتكرر الحدث وتكرر المشهد وتكررت رغبة الكثير في زيارة المركز الإسلامي لمعرفة المزيد من الإسلام وسماع كلمات اللَّه تتلى. وتكررت التغطية الإعلامية والمشاركة فاستضافتنا أكثر من خمس محطات تلفزيونية.

- وفي يوم الأربعاء دعينا من قِبَل عمدة المدينة المجاورة لشرح موقف الإسلام أمام الآلاف من سكان المدينة.

- وفي يوم الخميس زارت مركز الجمعية الإسلامية بعثة من ثلاثمائة طالب وطالبة وأساتذة جامعة هارفارد برفقة سفيرة الولايات المتحدة في فيينا.

وجلسوا جميعًا على أرض ساحة المسجد، وامتلأ المكان وشرحنا تعاليم الإسلام الغراء ودفعنا الشُّبه التي تثار حوله، وقرأت آيات اللَّه عليهم مرة أخرى، ودمعت العيون وتأثر الحاضرون، وطلب كثير منهم الحضور للمشاركة والاستماع للدروس الأسبوعية التي يعقدها المركز لغير المسلمين. ودعيت في مساء اليوم نفسه للمشاركة في برنامج على مستوى أمريكا كلها مع البروفيسور (آلان ديرشوفينز) من جامعة هارفارد لمناقشة الحقوق المدنية والإنسانية في القوانين الأمريكية والدولية، وشارك في البرنامج إخوة وأخوات لنا من المسلمين حول أمريكا.

- وفي يوم الجمعة الموافق الحادي والعشرين من سبتمبر شارك المسلمون في اجتماع مغلق مع حاكمة ولاية ماساتشوستش، وتمت مناقشة إدخال مادة لتعليم الإسلام في المدارس كمنهج دراسي لتوعية الشعب ومحاربة العنصرية ضد المسلمين والناتجة عن جهل الشعب

الأمريكي بالإسلام. وتمت الموافقة والتأييد من حاكمة الولاية وبدأت الخطوات لدراسة كيفية تحقيق هذا الهدف.

أما صلاة الجمعة في مركز الجمعية الإسلامية ببوسطن فقد غطتها بالكامل قناة (سي إن إن) وكذلك الحال بالنسبة للدرس الأسبوعي ليلًا. وما ذكرت لكم إلا أمثلة لما حدث ويحدث في مدينة بوسطن في تلك الأيام ويحدث مثلها في كثير من المدن الأمريكية الأخرى. إن الدعوة إلى اللَّه لم تتقهقر وتتراجع خمسين عامًا كما كنا نحسب في الأيام الأولى بعد الحادي عشر من سبتمبر؛ وإنما شهدنا أحد عشر يومًا هي بمقدار أحد عشر عامًا في تاريخ الدعوة إلى اللَّه. وها أنا أكتب إليكم هذه الكلمات وكلي ثقة أن الإسلام سينتشر إن شاء اللَّه في أمريكا والعالم أجمع خلال الأعوام المقبلة أسرع مما كان ينتشر سابقًا؛ حيث إن العالم أجمع يسأل: ما الإسلام؟؟؟

ومن يرى بأم عينيه ليس كمن يقرأ ويسمع[1].

البرزنجي في خطابه أمام وزراء خارجية الدول الإسلامية:

في سابقة هي الأولى من نوعها وقف ممثل للمسلمين في الولايات المتحدة أمام المؤتمر الطارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية ملقيًا كلمة باسم المسلمين هناك.. والرسالة التي ألقاها الدكتور جمال البرزنجي تمثل خطابًا مفتوحًا إلى المسلمين في العالم تناشدهم المساعدة والتعضيد لاستثمار الفرصة النادرة التي لاحت هناك للإسلام والمسلمين.

كان مما قاله:

إننا جميعًا أمام فرصة تاريخية نادرة عاجلة؛ فالمجتمع الأمريكي بفصائله المختلفة يلهث طلبًا لفهم هذا الإسلام، ويريد أن يقرأ عنه بأقلام أبنائه لا بأقلام المستشرقين وأصحاب المصالح الخاصة الذين ضللوه زمنًا طويلًا...

إننا اليوم أمام مطالبة الملايين من الشعب الأمريكي بالمواد والمعلومات التي يُفهم من خلالها الإسلام وقضايا المسلمين.

إن ما يلاحظ من إمساك البعض مؤخرًا عن دعم الجاليات ومؤسساتها قد أثر في قدرتها على تحقيق نجاحات أكبر في خدمة الإسلام، وتمكين صوت أعلى فى ترشيد السياسة الأمريكية بشأن قضايا الأمة المسلمة العادلة. لا بد من إقامة جسور أقوى ودعم أكبر

---

(١) أيام في تاريخ أمريكا، د. أحمد الفتيحي، المجتمع، العدد (١٤٧٤) (٢٧/ ١٠/ ٢٠٠١م).

لمؤسسات الجالية للقيام بدورها التاريخي في خدمة شعبها وإقامة جسور حوار حضاري بين الأمة الإسلامية والغرب نحو مستقبل أفضل للإنسان في القرية العالمية...

إن الجالية المسلمة في أمريكا تسعى لأن تدفع بالإدارة الأمريكية ولمصلحة الشعب الأمريكي نفسه بعيدًا عن سياسة الهيمنة والبطش؛ فلا تبقى للعنف ولا للإرهاب حاجة ولا محضن يستنبت فيه، فضلًا عن أن يترعرع ويزعزع أمن الشعوب ورخاءها.

إن الأحداث الأخيرة قد وفرت - فيما وفرت - فرصة لأمريكا نفسها لتنظر إلى دخيلتها أفرادًا ومؤسسات دينية وسياسية وتشريعية وإعلامية في مراجعة أمينة تواجه أسئلة مهمة مثل لماذا يكره العالم الثالث أمريكا؟ وأين الخلل في أدائنا؟ ولماذا يضحي الناس بأرواحهم لإيذائنا؟[1].

أمريكا: إقبال لافت للتعرف على الإسلام:

واشنطن - رويترز: تشهد الولايات المتحدة إقبالًا منقطع النظير للتعرف على الإسلام منذ الهجمات المدمرة على نيويورك وواشنطن في (١١) أيلول/ سبتمبر ثم الحرب في أفغانستان؛ إذ أرسل المجلس الإسلامي الأمريكي خلال الشهر الجاري إلى وكالات حكومية حوالي (١٠) آلاف نشرة ملونة تشرح المبادئ الأساسية للإسلام الذي يدين به أكثر من بليون نسمة في مختلف أرجاء العالم، وأوسع الأديان انتشارًا في الولايات المتحدة. وقالت الناطقة باسم المجلس زلفية قادر: في (١٢، ١٣) أيلول لم يتوقف الهاتف عن الرنين؛ كل الناس يطلبون معلومات عن الإسلام أو يريدون التعبير عن آرائهم، وغالبيتهم كانوا متعاطفين. وأضافت أنها ذهلت بحجم تنامي الاهتمام بكل ما يتعلق بالإسلام من أسئلة أساسية عن مبادئه، وزادت: إن المجلس يشعر بالارتياح إلى المساحات الكبيرة والبرامج الكثيرة التي خصصتها وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية عن الإسلام والملايين السبعة من المسلمين في الولايات المتحدة. واستجابت (سيكولا ستبك كورب) - وهي شركة نشر وإعلام ضخمة للأطفال - بسرعة بعد هجمات (١١) أيلول لدعوة الرئيس جورج بوش إلى تجنب التفرقة ضد المسلمين والعرب الأمريكيين، وأصدرت الشركة التي تتعامل مع نحو (٢٥) مليون طفل في كل مدارس أمريكا تقريبًا مجلات أسبوعية مليئة بمعلومات عن الهجمات وخرائط لأفغانستان وشرح عن الإسلام والمسلمين، وكلها تحث على التسامح

---

(١) من الخطاب الذي ألقاه الدكتور جمال البرزنجي في مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، المجتمع، العدد (١٤٧٤) في (٧/ ١٠/ ٢٠٠١م).

وتثير الانتباه إلى انتهاكات الحرية الدينية والتفرقة ضد العرب والمسلمين والأمريكيين[١].

صورة أخرى من الداخل:

التقت (المجتمع) في الدوحة المدير التنفيذي للمعهد الإسلامي في واشنطن وأحد النشطاء داخل الحزب الجمهوري الذي كان يشارك في المؤتمر الوزاري لوزراء خارجية الدول الإسلامية. وأجرت معه الحوار الآتي:

* من وجهة نظرك كيف كان رد الفعل الشعبي الأمريكي تجاه تفجيرات واشنطن ونيويورك؟

- الشعب الأمريكي صُدم بشدة من هول الحادث بشكل لم يعرفه منذ الحرب الأهلية الأمريكية؛ فلم يقتل مثل هذا العدد من الأمريكيين في يوم واحد؛ لا في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو الهجوم الياباني على ميناء بيريل هاربر. وهو في نفس الوقت لم يكن على استعداد لرؤية ما جرى.

* وبالنسبة لكم كجالية مسلمة وكيف كنتم تفكرون؟

- بالنسبة لنا في الأيام الأولى للحادث كان الهدف هو ضمان حماية الجالية العربية والإسلامية من ردود الفعل الغاضبة؛ خاصة أن الاتهامات وجهت كلها صوب العرب والمسلمين بالمسؤولية عن التفجيرات، وهو انطباع كان سائدًا لدى قطاع كبير من الشعب الأمريكي غذته جهات معادية لنا، وبالفعل وقعت عدة اعتداءات على محجبات وتعرضت مساجد للتخريب ولقي عدد من الأشخاص مصرعهم بعد الحادث مباشرة بلغ عددهم خمسة أشخاص منهم سيخي وقبطي مصري.

ومن خلال الاتصال بعدد من المسؤولين.. طالبناهم بإصدار بيان لحماية الجالية، وقد وجدنا تجاوبًا منهم، وبالفعل صدر البيان الأول في شكل تصريح للرئيس بوش.

* وهل كانت الاستجابة سريعة من الإدارة الأمريكية نحوكم؟

- نعم فبعد الحادث بيومين اتصل البيت الأبيض بنا وأخبرنا بأن الرئيس بوش يريد الاجتماع بكم. وقال الرئيس إنه يسعده أن يكون اللقاء في مسجد المركز الإسلامي في واشنطن تعبيرًا عن التضامن مع الجالية المسلمة، وكان لقاء مثمرًا استمر نحو الساعة. وعندما دخل الرئيس المسجد خلع ومرافقوه أحذيتهم قبل الدخول، كما ارتدت مساعداته من النساء الحجاب

---

(١) أمريكا إقبال لافت للتعرف على الإسلام، الحياة (١٩/ ١٢/ ٢٠٠١م).

احترامًا للمسجد، وأصدر بيانًا ممتازًا. وأذكُر أنه أثناء الاجتماع قال أحد الحاضرين للرئيس: إن زوجتي لا تستطيع الخروج إلى الشارع خشية تعرضها إلى مضايقات؛ لأنها محجبة. فقام بوش بإضافة فقرة جديدة إلى بيانه تدعو الأمريكيين إلى احترام المحجبات ووصف الاعتداء عليهم بأنه في حجم عمليات نيويورك وواشنطن.

* هل تعني أن الجالية الإسلامية استفادت من الحدث رغم كل التوقعات السيئة؟

- أنا أرى أن الجالية استفادت من الحادث بقوة، والآن وضعها أصبح أفضل بكثير مما كانت عليه وأصبح هناك اهتمام كبير بالإسلام وإقبال على المراكز الإسلامية؛ بل إن الإقبال على اعتناق الإسلام تضاعف عدة مرات.

فمثلًا مركز آدم فى فرجينيا استقبل بعد أيام من الحادث أكثر من أحد عشر شخصًا - منهم أحد القساوسة - اعتنقوا الإسلام، وهي ظاهرة فريدة لم يشهدها أي مركز إسلامي خلال السنوات العشر الماضية. إضافة إلى قيام متطوعين من الكنائس وجيران المراكز الإسلامية بجمع تبرعات لترميم وإصلاح ما جرى لها على أيدي بعض المتطرفين، إضافة إلى نفاد كل الكتب والمطبوعات عن الإسلام ونُسخ ترجمات معاني القرآن الكريم[١].

لكنه بعد ثلاثة أشهر أو أربعة تحدث عن تفاقم التهجم على الإسلام والجالية الإسلامية في لقائه مع مجلة العالم الإسلامي - لسان حال رابطة العالم الإسلامي - فذكر:

- هناك قوى معادية مؤثرة في صنع القرار الأمريكي وراء الحملة لتشويه صورة الإسلام؟

- لا تخلو الصحف الأمريكية يوميًّا من هجوم سافر على الإسلام.

- اعتناق الأمريكيين للإسلام تضاعف بعد أحداث سبتمبر.

- الإعلام الأمريكي يصر على استخدام مصطلح الإرهاب الإسلامي.

- التبرع للمنظمات الإسلامية أصبح مشبوهًا.

- قوائم الترحيل تطارد (٦٠٠٠) مسلم، مع العلم أن هناك (٣٠٠) ألف شخص في أمريكا من عدة جنسيات صدر بحقهم قرارات ترحيل.

ثم يقول: بالرغم من كل الصعوبات التي نواجهها نتيجة لأحداث سبتمبر؛ إلا أنها أيضًا أوجدت لنا فرصة لشرح الدين الإسلامي الحنيف؛ فنحن لا نكاد نجد الوقت الكافي للتحدث مع كل من يطلب منا المشاركة في البرامج التلفزيونية والإذاعية والمقابلات

(١) المجتمع الكويتية، العدد (١٤٧٣) في (٢٠/ ١٠/ ٢٠٠١م).

الصحفية أو المحاضرات في الجامعات ومراكز الدراسات والكنائس. وهناك اهتمام لم نشهد له مثيلًا للتعرف على الإسلام؛ وقد أدت هذه الرغبة إلى اعتناق الكثير من الأمريكيين الإسلام بنسبة أعلى من السابق، وإلى إيضاح الصورة الصحيحة عن الإسلام عبر المنابر الإعلامية والثقافية والدينية. ونسأل اللَّه ﷻ أن يوفقنا إلى إعلاء شأن هذا الدين الحنيف، وأن يجعل مع هذا العسر يسرًا[١].

لماذا هذا الإقبال على الإسلام؟

هذا السؤال العريض رغم كل الكتابات والتحليلات التي صدرت بعد مرور ستة أشهر على أحداث سبتمبر - لم أجد جوابًا عليه أبدًا.

- لماذا هذا الإقبال على الإسلام؟ وفي أمريكا بالذات؟

قد يكون الجواب الظاهري عليه - وهو هروب من الجواب في الحقيقة - أنه ثمرة الحوار والجهد المتواصل الذي تبذله الجالية الإسلامية في أمريكا وشرحها مبادئ الإسلام للناس. ويأتي السؤال الأعمق الذي يفر كل الباحثين من الجواب عليه:

- ما الذي أوجد هذا الحوار؟ وما الذي جعل له هذه القيمة والمسلمون موجودون في الساحة منذ سنوات والأمريكيون موجودون؟

والجواب التلقائي غير المباشر: أنه نتج بسبب أحداث أيلول.

إذن، هل ظاهرة الإرهاب هي التي فتحت المجال للحوار؟

وخشية الباحثين إن أجابوا: نعم، أن يقال لهم: الإسلام إرهابي، أو يقال لهم: الإرهاب لا بد منه للحوار؛ فيفرون بعيدًا عن الجواب. وآمل أن يكون هذا التحليل جوابًا واضحًا على كل تلك التساؤلات.

الذي يؤكده الدكتور الكبيسي في لقائه مع العالم الإسلامي ما يأتي:

- السؤال: وهل الأمريكي يعتقد جازمًا أن العرب المسلمين يقفون وراء الأحداث؟ أم الصورة بدأت تتضح معالمها بعد مرور أربعة أشهر عليها؟ بمعنى: هل الأدلة التي ساقتها الإدارة السياسية عندكم كانت كافية في تأكيد التهم، أم أن وسائل الإعلام هي التي أكدت الصورة السابقة؟

- **الجواب: لدى الأغلبية الساحقة من الأمريكيين القناعة الكاملة بأن من قام بخطف الطائرات**

---

(١) مجلة (العالم الإسلامي) مكة، العدد (١٧٣٢) (٨/ ٢/ ٢٠٠٢م).

الأربع يوم (١١) سبتمبر هم (١٩) عربيًّا مسلمًا، وأن من ورائهم تنظيم القاعدة الذي درَّبهم وأرسلهم ومولهم للقيام بالعملية. ولم يعد هذا الموضوع حتى مجالًا للحوار لا على المستوى الإعلامي ولا السياسي في أمريكا؛ فقد تحول جُل النقاش إلى كيفية التعامل مع الإرهاب[1].

وهنا في رأيي يمكن الجواب:

فالأغلبية الساحقة من الأمريكيين عندها القناعة الكاملة بأن الذي نفذ الاعتداء هم تسعة عشر عربيًّا مسلمًا، ووراء هم تنظيم القاعدة الذي موَّلهم ودرَّبهم وأرسلهم للقيام بالعملية.

هذه الأغلبية الساحقة نحن بحاجة إلى أن ندرس وضعها النفسي قبل الأحداث وبعدها.

قبل أحداث سبتمبر:

ونقول: إن هناك جيلين كاملين على الأقل لم يشهدا مثل هذا الذعر الذي شهدوه في سبتمبر.

أفهذه الأجيال التي تمثل الأغلبية الساحقة كانت آمنة مطمئنة لا تخشى أحدًا في الأرض؛ لأن أمريكا هي الأقوى في العالم؟

وخمسون عامًا من الحرب – ضد السوفييت – الباردة والحارة – لم تدخل الرعب على قلوبهم أو الخوف من الخطر السوفيتي، وازدادت هذه الأغلبية الساحقة ثقة بقيادتها بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وازدادت أمنًا وطمأنينة. هذه الأكثرية يتناهى إلى سمعها حروب واعتداءات خارج القارة الأمريكية.

لكن هؤلاء جميعًا لا يُذكرون أمام القوة السوفيتية. وتسمع بهجوم على بعض المصالح الأمريكية من قِبل الإرهابيين؛ لكنَّ هؤلاء الإرهابيين لا يمكن أن يصل خطرهم إلى أمريكا. ولعل حرب العراق وصدام حسين والانتصار الكبير الهائل الذي حققته أمريكا عليه – زاد قناعة الشعب الأمريكي بأن أمريكا هي الأقوى وهي الأعلى، ولا قوة في الدنيا تستطيع أن تمس أمنها أو سلامتها بشيء.

خمسون عامًا على الأقل منذ الحرب العالمية الثانية والشعب الأمريكي وأغلبيته الساحقة يعيش حياته يسعى لتحسين ظروف حريته، يعمل لديمقراطيته بشفافية عالية، يضع القوانين لصيانة حقوق الإنسان من الوحوش المتخلفين خارج أمريكا لإنقاذهم من جهلهم وتخلفهم؛ فأمريكا هي الأقوى، وأمريكا هي الأرقى، وهي التي يجب أن تحكم العالم كله. والعولمة تفعل فعلها في بسط النفوذ الثقافي الفكري الأمريكي في الأرض.

---

(١) العالم الإسلامي، المقابلة في العدد (١٧٣٢) في (٨/ ٢/ ٢٠٠٢م).

بعد أحداث سبتمبر:

نضطر هنا إلى أن نستعير تعبيرات (المجتمع) في حديثها عن أحداث سبتمبر الماضي التي كانت من الشدة بحيث لا يقارن بها الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر عام (١٩٤١م) حين سقط ما يقارب (٢٥٠٠) قتيل؛ وهو ما دفع أمريكا لدخول الحرب العالمية الثانية، بل إن بعض الصحف الأمريكية شبهت الواقعة بالمفاجأة التي حققها الجيش المصري عام (١٩٧٣م) ضد الصهاينة، في حين يرى بعض الخبراء أن الضربة لا تعادلها إلا حادثة (١٨١٢م) حين احتل الإنجليز واشنطن وأحرقوا البيت الأبيض وتاه الرئيس الأمريكي جيمس ماديسون يبحث عن ملاذ، مثلما جرى في سبتمبر مع فارق مهم هو أن الولايات المتحدة آنذاك كانت لا تزال ضعيفة بخلاف الوضع الحالي فهي القوة الكبرى[(١)].

ويقول الدكتور عبد الرحمن العمودي عن الحدث:

الحدث نفسه - حدث (١١) سبتمبر - هو الذي صنع الكابوس، ثم زاد الأمر سوءًا مسارعةُ الإعلام الأمريكي باتهام أسامة بن لادن، وتوافق مع ذلك التقارير الأمنية التي خرجت من المؤسسات الأمنية بعد ساعتين من الحادث وتثبت وجود عرب شرق أوسطيين على الطائرات التي نفذت الحوادث؛ فزاد ضغط الإعلام كثافة وأصبح الجو العام معبَّأً ضدنا وقد تجمدت أمريكا كلها في هذا اليوم. الكل كان في بيته مذهولًا مما حدث عربًا ومسلمين وأمريكيين، ولأول مرة أرى الحكومة الأمريكية بهذه الصورة المتخبطة، لا تدري من أين تأتيها الضربة؛ بل إن الولايات المتحدة عاشت بلا حكومة لمدة (١٢) ساعة لا أحد يدري ماذا يجري بالضبط، كل الناس تقريبًا في واشنطن ونيويورك أوقفوا أنشطتهم لمدة (٢٤)ساعة[(٢)].

نحن بحاجة لهذا الوصف للحديث عن الوضع النفسي للأغلبية الساحقة من الشعب الأمريكي بعد أحداث سبتمبر؛ لنرى من خلالها ما يأتي: القوة الوحيدة التي هزت أمريكا وعرضتها للخطر وأحرقت أبراجها وضربت البنتاغون فيها هي قوة إسلامية، نفذت بتسعة عشر انتحاري عربي مسلم، قائد هذا التنظيم أسامة بن لادن، واسم جيشه « القاعدة ».

إذن يوجد من هو أقوى من أمريكا ويعرضها للخطر، ويدفع الرئيس الأمريكي للاختباء، ويصدِّع أعظم أبراجها الاقتصادية.

ما هذه القوة؟ قوة عربية إسلامية منظمة استطاعت أن تنفذ كل أهدافها أمام عجز القوة

---

(١) المجتمع، العدد (١٤٧٨) في (٢٤/ ١١/ ٢٠٠١م).

(٢) المجتمع. من لقاء مع الدكتور العمودي رئيس المؤسسة الإسلامية الأمريكية، العدد (١٤٧٨) في (٢٤/ ١١/ ٢٠٠١م).

الأمريكية بصواريخها النووية ومخابراتها؛ العالمية نفذتها بطائرات مدنية.

وساهم الإعلام الأمريكي بتضخيم هذا العدد، وأصبح اسم ابن لادن يتكرر أكثر من أي اسم في وسائل الإعلام العالمية.

إذن بالفعل والحقيقة - وليس بالكلام - اقتنعت الأغلبية الساحقة الأمريكية بأن القوة العظمى المواجهة لدولتها هي قوة العرب والإسلام ومن أجل هذا اندفعت بلا وعي وبلا توقف تسأله:

ما هذه القوة؟ من العرب؟ من المسلمون؟ ما الإسلام؟ من ابن لادن؟ ما القاعدة؟

إنها تريد أن تعرف كل شيء عن هذا العدو الذي جرح كبرياء أمريكا ومرغها بالتراب وأدخل الرعب في قلوب شعبها.

إنه عدو، خطر، قوي، رهيب، ما هو؟ من يمثله؟ ولهذا اتجه الأمريكيون إلى المسلمين من أبناء جلدتهم ووطنهم يسألونهم عن الإسلام، وعن الأفغان، وعن ابن لادن، وعن الإرهاب. واستغلت الجالية الإسلامية هذا الاهتمام وهذا التساؤل لتقدم كل ما في رصيدها عن الإسلام من كتب ونشرات وأشرطة ومحاضرات وندوات ولقاءات.

إن السبب الذي رفع الإنسان الأمريكي بهذا الهيجان للسؤال عن الإسلام ليس حبه فيه وليس حسن المعاملة من المسلمين له؛ إنه الخوف والرعب والفزع. ماذا عساه أن يعمل مرة ثانية؟ هل يستطيع أن يدمر أمريكا وينهيها من الوجود؟

إنها القوة، إنه الإرهاب الذي فتح المجال لهذا الحوار.

ولا أود أن يفهم من هذا الكلام أننا لا طريق لنا إلا الإرهاب حتى نفرض الحوار؛ إنما الذي أريد أن أقوله: إن حوار القوي للقوي يختلف كثيرًا عن حوار الضعيف للقوي، وإن حوار الند للندِّ يختلف كثيرًا عن حوار الطاغية للضحية.

- وحتى أُقرب الصورة أكثر أقول: إن مليار مسلم في العالم لم يهز الشعب الأمريكي كما هزه ابن لادن، وإن دول الأرض العظمى والصغرى لم ترعب الشعب الأمريكي ولم تفزعه كما أفزعه هذا الهجوم المنظم؛ ومن أجل هذا يتخلى عن حريته، ويساند حكومته ورئيسه ليحطم هذا البعبع، وينهي هذا الإرهاب من الوجود.

- وحتى أقرب الصورة: أذكر صلح الحديبية؛ فبعد أن كانت الجزيرة العربية تنظر إلى محمد ﷺ وأتباعه على أنهم هاربون وخارجون على سلطة قريش، وبقي العرب على الحياد حتى يروا لمن يكون النصر، وعندما وقع ميثاق الحديبية - شعر العرب أن محمدًا قوة لا تقهر، وأن قريشًا اعترفت به؛ فراحوا يسألون عن الإسلام ويدخلون في دين الله؛ وذلك

عندما صار المسلمون أندادًا مكافئين لقريش باعتراف قريش بذلك.

هذه القوة المعنوية الكبرى هي التي فتحت المجال للحوار.

يقول الزهري - رحمه اللَّه -:

فما فتح في الإسلام فتح قبله وكان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلُّهم بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة؛ فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه. ولقد دخل في الإسلام في تينك السنتين مثل ما كان دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر[1].

هذا هو سر الإقبال للسؤال عن الإسلام بعد أحداث سبتمبر، لكن الدخول في الإسلام واعتناقه لم يتم إلا من تأكد أن الإسلام بريء من أحداث سبتمبر، وأن الإسلام لا يقر قتل الآمنين ولا إرهاب الأبرياء الوادعين.

الذي أريد أن أقوله بملء فمي:

إننا إذا أردنا أن يأخذ الحوار مداه في الأرض؛ فلن يتسنى ذلك إلا عندما يكون للإسلام دولة عظمى مرهوبة الجانب تشارك في مصير العالم وصنع الأحداث فيه ولا يقطع في قرار فيه بدونها.

ألا نرى اليوم من يتحكم في مصير العالم؟ دول خمس عظمى تملك قوة الفيتو، وتملك منع أي قرار لا تقتنع به.

هذه القوى العظمى كما يقول هنتنجتون - وصدق وهو كذوب -: إن وصول القوة الغربية إلى العالمية تقريبًا في أواخر القرن التاسع عشر، والسيطرة الكونية للولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين قد نشرا قدرًا كبيرًا من الحضارة الغربية في أرجاء العالم.

ويقول: في عالم متعدد الحضارات، الوضع المثالي أن يكون لكل حضارة من الحضارات الرئيسية مقعد واحد دائم على الأقل في مجلس الأمن. في الوقت الحاضر ثلاث حضارات فقط لها مقاعد دائمة..

البرازيل اقترحت خمسة أعضاء دائمين جدد بدون حق الفيتو وهي: ألمانيا، اليابان، الهند، نيجيريا، البرازيل. ومعنى ذلك أن يظل بليون مسلم في العالم بدون تمثيل إلا إذا حملت نيجيريا هذه المسؤولية[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) صراع الحضارات: لهنتنجتون (٥١٤).

ولعل ما أشار إليه مؤتمر القمة الإسلامي الأخير يمكن أن يكون نقطة انطلاق وتفكير جاد لإقامة دولة إسلامية واحدة.

فلأول مرة في هذا القرن يعلن ملوك ورؤساء وأمراء الدول والحكومات الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي المجتمعون في الدورة التاسعة لمؤتمر القمة الإسلامي في الدوحة عاصمة دولة قطر في الفترة من (١٦ - ١٨ شعبان ١٤٢١هـ) والموافق (١٢ - ١٤ نوفمبر ٢٠٠٠م) إذ نؤكد على الأهمية التي تكتسبها هذه القمة، وهي الأولى التي تعقدها منظمة المؤتمر الإسلامي في فاتحة الألفية الثالثة، والتي تشهد تحولات جذرية في مختلف المجالات وكافة الأصعدة...

ومن هذا المنطلق فإن مؤتمر القمة الإسلامي التاسع يشكل منعطفًا جديدًا نحو تحقيق الأهداف السامية لمنظمتنا... نعلن وبكل اعتزاز أن التعاليم السامية لديننا الحنيف تقدم حلولًا مثلى للمشكلات المعاصرة التي تعترض سبيل المجتمعات الإنسانية؛ وذلك لأن الإسلام دين المحبة والتسامح والتقدم واحترام كرامة الإنسان وحقوقه.

- نعتبر أن مبادرة الحوار بين الحضارات تشكل إطارًا جديدًا ورؤية عالمية لبناء نظام دولي، والمشاركة والتفاهم المتبادل والتسامح بين الشعوب والأمم.

- نتعهد بمواصلة الجهود من أجل نشر الصورة الحقيقية للإسلام، وإبراز أهميته كمصدر أساسي للحضارة الإنسانية في الوقت الذي تتوالى فيه الأحداث لتشويه هذه الصورة بأساليب شتى.

- العزم على تحقيق وحدة الأمة الإسلامية عن طريق التمسك بقيم هذا الدين، وإذكاء روح التضامن والتسامح والإخاء التي ينادي بها الإسلام؛ لكي نعزز ما يجمع بيننا من قيم ومصالح مشتركة[1].

نحن نرفض الإرهاب وقتل الآمنين، وفي الوقت نفسه نؤمن أنه لا بد للإسلام والمسلمين من دولة عظمى مرهوبة الجانب - كما هو الحال لدى دول الغرب والشرق - لا يمكن أن يتقرر مصير البشرية أو أي جزء من أجزائها إلا بعلمها ومشاركتها وموافقتها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠].

إن الحوار هو الخط الأصيل للإسلام في كل حالاته؛ حالات ضعفه ونشأته، وحالات

---

(١) إعلان الدوحة للمؤتمر التاسع للقمة الإسلامية.

قوته، حالات كونه فصيلًا من فصائل الشعب، ودعوة يدعو إلى اللّه، وحالات كونه دولة عظمى تساهم في تقرير مصير العالم؛ فالعقائد لا تفرض بالقوة:

- ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

لكننا نؤمن أن القوة الذاتية للإسلام في دولة موحدة عربية إسلامية تجعل الناس مستعدين للحوار مصغين له، وإلا فلِمَ يتحاور الغرب معنا إذا كنا متخلفين متفرقين متخاذلين متناحرين؟

إن أول ما يحرك ذهن الإنسان الغربي النظرية التي تقول:

إذا كان الإسلام عظيمًا فلماذا لا يكون المسلمون عظماء؟ وهل أتحاور معهم لأصير مثلهم؟ لا أريد أن أزداد فرقة وتخلفًا وجهلًا وذلًّا.

القوة المرهوبة الجانب هي التي تفتح باب الحوار على مصراعيه، وعندها: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف: ٢٩].

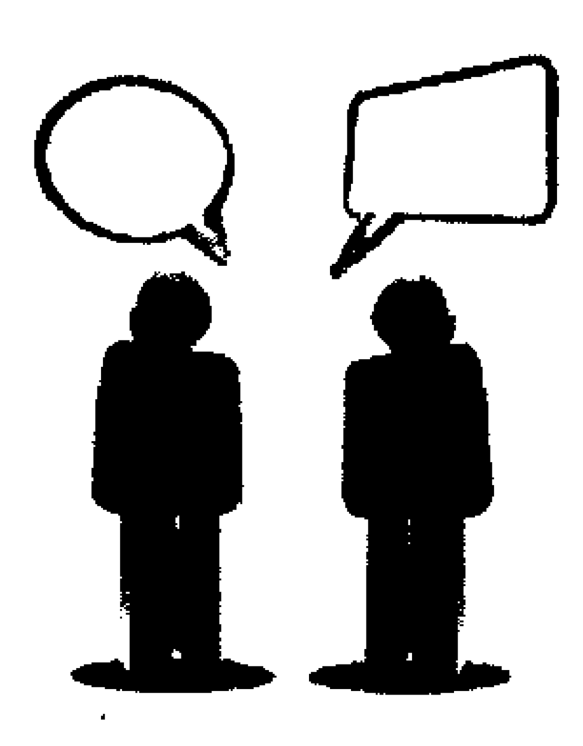
وإن فلسفة الإسلام العظمى في صراع الطغاة والمستبدين إنما تكمن في إزاحتهم عن طريق المستضعفين ليصل الإسلام إلى كل قلب وإلى كل إنسان، وهذا هو الانتصار الحقيقي: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦].

وأخيرًا نقول:

- لا حوار مع الإرهاب.

- ولا حوار بعيد المدى بدون دولة قوية مرهوبة الجانب. إننا الدعاة إلى اللّه في كل عصر ومَصْر، نحاور ونجادل في سبيل اللّه ونتبع التي هي أحسن. والجهاد سبيلنا لفتح أبواب الحوار على مصاريعها؛ ولهذا جاء المنهج الإسلامي متكاملًا في آخر سورة النحل يضع القوة في مكانها والحوار في مكانه، من دون أن يطغى جانب على جانب ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

* * *



حل المعادلة
بين الحوار والقوة

لا شك أن وضع القضية بهذه الصورة - في أن يكون أحدهما بديلًا عن الآخر - هو وضع خاطئ، وببساطة فنحن بحاجة إليهما معًا، ولا يمكن أن يكون أحدهما بديلًا عن الآخر؛ لأن لكل منهما مجاله وتداخلهما أحيانًا يشي بتلك المعادلة الخاطئة.

فقد يكون بين الدائرتين التقاء في مكان ما؛ لكن يبقى لكل منهما دائرته ووظيفته ومهمته.

إننا إذا استعرضنا أهداف الجهاد في الإسلام نستطيع أن نحددها بما يلي:

١ - الإذن بالقتال عند العدوان على الأرض والدين:

وكان ذلك في أول آية نزلت في الإذن بالقتال بعد أن كان الأمر بكف اليد هو الذى يمثل المرحلة المكية.

يقول ابن إسحاق - رحمه اللّه -: وكان رسول اللّه ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تُحلَّل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى اللّه والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم؛ فهم من بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم. منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه. فلما عتت قريش على اللّه ﷻ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ ونفوا من عَبَدَه ووحَّده وصدَّق نبيه واعتصم بدينه - أذن اللّه ﷻ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم؛ فكانت أول آية أنزلت في إذنه له بالحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم - فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء - قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١]. يعني النبي ﷺ وأصحابه - رضي اللّه عنهم -.

٢ - الأمر بالقتال لمن يمس الحرية الدينية:

فالأصل أن الإنسان حر في اختيار دينه، والذي يمس هذه الحرية يجب أن يقاتل.

يقول ابن إسحاق: ثم أنزل: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣]؛ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون الدين للَّه، أي حتى يُعبد اللَّه لا يُعبد معه غيره.

٣ - الجزية بديل عن الإسلام:

فمن أراد أن يعبد غير اللَّه ولم يقتنع بدين اللَّه؛ فالجزية دينونة لحكم اللَّه، ويأتي دور الحوار بعدها للإقناع. إن مفهوم الجزية هو عدم إعلان الحرب على اللَّه؛ فالذي يدفع الجزية يبقى على دينه ويعلن السلم مع الإسلام والمسلمين وبالتالي **فيقدم له الإسلام ثَمَنين مقابل هذه الجزية:**

الثمن الأول: أن يحميه من عدوه بكل أنواع الحماية؛ يحمي عِرضه وماله ومقدساته وأرضه، وحين لا يقدَّم له هذا الثمن فهو غير مكلف بدفعها، ويشارك في الدفاع عن هذه المقدسات.

الثمن الثاني: الحرية الدينية؛ فيعبد ربه كما يشاء دون أن يتدخل أحد فيها.

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

- الواقع العملي:

وواقع المسلمين خلال ستة عشر قرنًا يؤكد هذه المعاني؛ فالقوة جانب سياسي، والحوار جانب دعوى؛ ومن أجل ذلك وجدنا المسلمين بجوار المسيحيين واليهود والمجوس في البلد الواحد، يتعايشون ويتزاورون ويتناكحون ويتوادون دون أن يعتدي أحد على أحد.

وإن كان وقع - استثناءً - بعضُ الخلافات بينهم والحروب؛ فهي مخالفة للأصل مثل الخلافات التي تقع بين المسلمين أنفسهم أو بين النصارى أنفسهم، ولا علاقة لها بتوجيهات الإسلام أو أوامره.

ونعود لنؤكد ثانيةً أن القوة مرتبطة بالمواقف السياسية لا بالمواقف العقدية أو الدينية.

وهذا قول اللَّه تعالى الفصل في ذلك:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وكم الفرق كبير بين الصورتين:

- صورة التعايش المشترك بين المختلفين في الدين من الحكم بالعدل والقسط بينهم دون تمييز، ومن البر - وهو أعلى مستويات التعامل - هو الذي يكون بين الولد ووالديه؛ فبر الوالدين كَبِرٌ المخالفين في الدين.

- وصورة الحرب القائمة بينهم بحيث لا ولاية بينهم ولا تقارب حتى يعلنوا ولاءهم للسلطة المسلمة، لا أن يعتنقوا مبادئ هذا الدين.

ولا يمكن للإسلام أن يتناقض مع بعضه بعضًا؛ فقد أُقر هذا الحق - حق الحرية الدينية - بصريح كتاب اللَّه ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

صيغ المعاهدات الدولية بين المسلمين وخصومهم:

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه اللَّه -:

إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده أن يكون الدين كله للَّه، وأن تكون كلمة اللَّه هي العليا؛ فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين.

وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة؛ كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزَّمِن ونحوهم؛ فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتِل بقوله أو بفعله؛ لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا أن نظهر دين اللَّه...[١].

وقد رجح أستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي هذا المعنى الواسع جدًّا لمفهوم غير المقاتلين في بلاد الحرب قال:

المحاربون: هم كل من نصب نفسه للقتال بطريق مباشر أو غير مباشر؛ وذلك كالجنود الإجباريين والمتطوعين...

أما المدنيون الذين ألقوا السلاح وانصرفوا إلى أعمالهم وكل من له صفة حيادية فضلًا عن معاونة العدو كالملحقين العسكريين الأجانب ومراسلي الصحف ورجال الدين التابعين للقوات الحربية؛ فهؤلاء لا يُعتبرون من المحاربين الذين يُهدر دمهم[٢].

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية (ص ١٣٢، ١٣٣).

(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي (ص ٤٨٠).

*** وكانت هذه الصيغ هي التي تحكم المسلمين مع الأمم على امتداد العصور، ويتحاكم إليها الجميع.**

١ - في الشام:

أ - مع أهل دمشق:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالدُ بن الوليد أهلَ دمشق: إذا دخلها أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم، لا يُهدم ولا يُسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد اللَّه وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية)[1].

ب - مع أهل بعلبك:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك - رومها وفُرسها وعربها - على أنفسهم وكنائسهم وأموالهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم. وللروم أن يرُعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلًا، ولا ينزلوا قرية عامرة. فإذا مضى شهرا ربيع وجمادى ساروا إلى حيث شاؤوا، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا حيث شاؤوا من البلاد التي صالحنا عليها. وعلى من أقام منهم الخراج والجزية. شهد اللَّه وكفى باللَّه شهيدًا)[2].

جـ - في القدس:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها - أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهلُ المدائن... فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو ابن العاص... وكتب وحضر سنة خمس عشرة)[3].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص١٢٨).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٦).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٩).

٢ - فتح الري (طهران اليوم):

العهد:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى نعيم بن مقرن المُزَني، أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء طاقة كل حالم[١] كل سنة. وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يغُلُّوا ولا يسُلُّوا وعلى أن يقْروا[٢] المسلمين يومًا وليلة، وعلى أن يفخموا المسلم، فمن سب المسلم أو استخف به نهك عقوبة...)[٣].

٣ - فتح قومس:

العهد:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى سويدُ بن مقرن أهلَ قومس من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية عن يدٍ، عن كل حالم بقدرته وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا وعلى أن يدُلّوا. وعليهم نُزُلُ من نزل بهم من المسلمين يومًا وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعدهم فالذمة منهم بريئة. وكتب وشهد)[٤].

٤ - فتح جرجان:

العهد:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان؛ إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا ووقَّروا المسلمين.. شهد سواد بن قطبة وهند ابن عمرو،... وكتب في سنة ثماني عشرة)[٥].

٥ - فتح طبرستان:

العهد:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرُّخان إصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو؛ إنك آمن بأمان اللَّه ﷻ أن تكف لصوتك وأهل حواشي أرضك ولا تؤوي لنا بغية، وتتقي من ولي فرْج أرضك بخمسمائة ألف درهم من

---

(١) حالم: بالغ.

(٢) يقروا: يُضيِّفوا.

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٧).

(٤، ٥) المصدر السابق (٢/ ٥٣٨).

دراهم أرضك؛ فإن فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يُغيرَ عليك ولا يتطرق أرضك ولا يدخل عليك إلا بإذنك. سبيلنا عليكم بالإذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا تؤوون لنا بغية ولا تسلُّون لنا إلى عدو ولا تغلون؛ فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم. شهد سواد بن قطبة التميمي وهند ابن عمرو المرادي... وكتب سنة ثماني عشرة)[١].

وهذا نموذج يختلف عن سابقيه حيث يقبل الاستقلال الكامل مقابل مبلغ من المال، ويكون الصلح تامًّا بين الفريقين.

٦ - فتح أذربيجان:

العهد:

(بسم اللَّه الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عتبةُ بن فرقد - عاملُ عمر بن الخطاب أميرُ المؤمنين - أهلَ أذربيجان؛ سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية قدر طاقتهم، ليس على صبي ولا امرأة ولا زمِن[٢] ليس في يديه شيء من الدنيا. وعليهم قِرى المسلم من جنود المسلمين يومًا وليلة ودِلالته، ومن حُشر[٣] منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة... ومن خرج فله الأمان حتى يعود إلى حرزه. وكتب جندب وشهد بكير بن عبد اللَّه... وكتب في سنة ثماني عشرة)[٤].

عشرون عامًا من الهجرة، وكانت أكثر الأرض المعمورة آنذاك بيد المسلمين، ومن خلال هذه السياسة لم يمرَّ ثلاثون عامًا حتى تحولت هذه البلدان أو معظمها إلى الإسلام. أما بعد نصف قرن من الزمان فقد صارت تشارك في الجهاد وتصل إلى سدة الحكم وتقود الجيوش، وكانت موجة القرن الأول من الفتوحات الإسلامية تحمل في طياتها كثيرًا من القادة والفاتحين غير العرب.

لقد تم هذا التحول كلُّه من خلال الحوار الذي ابتدأ حوارًا وانتهى انصهارًا في بوتقة الأمة المسلمة الواحدة.

العدل في الحكم والوفاء في التعامل كانا وسيلة إقناع الناس بالإسلام:

حين ننقب خلال هذه الفتوحات لا نجد صورًا أو نماذج من الحوار إلا ما سبق وألقينا عليه الضوء. فنعجب كيف دخل الناس في هذا الدين؟ والجواب يعود إلى عنصرين رئيسيين في هذا الدين وجنوده:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٤٣٩).
(٢) زمِن: مريض عاجز.
(٣) حشر: قاتل مع المسلمين.
(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٥٤٠).

العنصر الأول: العدل في الحكم، والعنصر الثاني: الوفاء في الذمة.

وحتى نوضح هذا الجانب نعرض إلى مشكلة أهل العراق الذين اضطربوا في بداية الأمر بين الوفاء بالعهود والنكث فيها، وحيث كان الفرس لا يزالون قادرين على تخويف أهل سواد العراق وتهييجهم ضد المسلمين. وعندما عرف أهل العراق أن سلطة الفرس قد زالت نهائيًّا عن الساحة عادوا فطالبوا بعهودهم السابقة وتابوا عن نكثهم السابق. ولن نقف مع الحادثة بمقدار ما نقف مع المنهج الذي رسمه الإسلام بشخص عمر ﷺ:

كتب سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى عمر مع أبي الهيَّاج الأسدي قال: إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا، فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن.

فأحدث إلينا فيمن تم، وفيمن جلا، وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم. فإنا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لنا ولعدونا تألُّفهم).

فالكتاب يطلب أمر أمير المؤمنين في هذه الأنواع الخمسة وكيفية التعامل معهم وهم:

١ - فيمن تم: أي ثبت على عهده واستقام.

٢ - وفيمن جلا: غادر أرضه خوفًا ولا يجرؤ على العودة.

٣ - فيمن ادعى أنه استكره وحُشر فهرب.

٤ - ولم يقاتل.

٥ - أو استسلم.

ومن حق سعد ﷺ أن يقترح الحل وهو تألُّف هؤلاء جميعًا. ودواعي هذا التألف ثلاثة: الأرض الرغيبة، وعدد المسلمين القليل، وكثرة أهل الصلح.

واستدعى عمر ﷺ أهل شوراه، واتخذ قراره بعد ذلك مع تبيان منهج الإسلام العام في الحكم، فقام عمر في الناس واستشارهم ثم كتب الجواب: أما بعد، فإن اللّه ﷻ أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة، والذكر.

فأما الذكر (ذكر اللّه) فلا رخصة فيه على حاله، ولم يرض منه إلا الكثير. وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا في رخاء. والعدل وإن رُئي لينًا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل والجور، وإن رئي شديدًا فهو أنكش للفكر.

١ - فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية.

٢ - وأما من ادعى أنه استكره.

٣ - فمن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض؛ فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا، فانبذوا إليهم وأبلغوهم مأمنهم.

٤ - وأما من أقام ولم يَجْلُ وليس له عهد؛ فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك فصَدَق فَلهم الذمة وإن كذبوا نُبِذَ إليهم.

٥ - وأما من أعان رجلًا فذلك أمر جعله اللَّه لكم؛ فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء اللَّه عليكم منهم.

وأهم ما في الكتاب هو ذلك النصُّ العمري الخالد المنبثق من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

(وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد).

كما يقول ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

(ولا في شدة ولا في رخاء)

ثم يعود فينبه إلى أن (العدل وإن رُئي لينًا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل) وذلك كما يتبادر لكثير من الطغاة وأتباعهم لا بد من القوة والإرهاب حتى يستقيم الناس؛ فهم يرون أن الظلم الذي يتبعه استقرار وطاعة أَولَى من العدل الذي يتطاول فيه الناس وتعم فيه الفوضى.

إنه دائمًا حجة دعاة الدكتاتورية على دعاة الديمقراطية، وهذه الحجة مدحوضة بهذا النص العمري الإسلامي الخالد.

(وإن رئي شديدًا فهو أنكش للفكر).

لأن هذه الشدة هي التي تجعل الأمة يقظة دائمًا وحارسة على المبادئ، ولاحظنا كيف طبّق ﷺ هذه المبادئ في كل الجزئيات التي عرضت عليه... أوضح الحق في كثير منها،

وترك مساحة للمصلحة فيما هو أقرب للعدل، وميز بين كل حالة وأخرى تمام التمييز[١].

هذان الركنان - الوفاء والعدل - هما اللذان قادا الناس إلى الإسلام. شهدنا العدل في الحادثة السابقة، ونشهد الوفاء فيما يأتي:

وفي اللحظات الحرجة التي شعر المسلمون فيها أنهم عاجزون عن حماية أهل الذمة الذين عاهدوهم على ذلك أعادوا الجزية لأصحابها وطلبوا منهم أن يشاركوا في الدفاع عن الوطن أمام الهجوم الكاسح من العدو، وكان هذا في العهد الراشدي.

ولا تظنن أن شرط المنعة في الجزية إنما كان يقصد به مجرد تطييب نفوس أهل الذمة وإسكان غيظهم ولم يقع به العمل قط؛ فإنَ من أمعن النظر في سير الصحابة واطَّلع على مجاري أحوالهم عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدًا ولا ذكروا شروطًا إلا عضُّوا عليها بالنواجذ وأفرغوا الجهد في الوفاء بها. وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحى الكلام عليها؛ فقد روى القاضي أبو يوسف في كتابه (الخراج) عن مكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم - صاروا أشد على عدو المسلمين وعيونًا للمسلمين على أعدائهم؛ فبعث أهل كل مدينة يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعًا لم ير مثله. فأتى رؤساءُ أهلِ كلِّ مدينةِ الأميرَ الذي خلّفهُ أبو عبيدة يخبرونه ذلك وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة؛ فاشتد ذلكَ عليه وعلى المسلمين وكتب أبو عبيدة لكل والٍ ممن خلفه في المدن - التي صالح أهلها - يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبِيَ منهم من الجزية والخراج، كتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه قد بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا اللَّه عليهم.

فلما قالوا ذلك وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا: ردكم اللَّه علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقي حتى لا يدعوا شيئًا.

هل يقع الأمان والسلم بدون جزية؟

رأينا فيما مضى أن الخيارات الثلاثة هي الإسلام أو الجزية أو الحرب. والجزية مقابل المنعة، فهل يمكن أن يشارك أهل البلاد في الدفاع عن وطنهم ويقع السلم والأمن بدون جزية؟ وهل وقع مثيل لذلك في التاريخ الإسلامي في عهد الفتوحات الأولى؟ يجيب العلامة رشيد رضا - رحمه اللَّه - على هذه الأسئلة - مجتهدًا - بجواز ذلك فيقول:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٦).

أما ما ادعينا من أن أهل الذمة إذا لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا في الذب عن حريم الملك لا يطالبون بالجزية أصلًا فعمدتنا في ذلك أيضًا صنيع الصحابة وطريق عملهم؛ فإنهم أوْلى الناس بالتنبُّه لغرض الشارع وأحقُّهم بإدراك سر الشريعة. والروايات في ذلك وإن كانت جمة نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير:

فمنها كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرّن أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان وأهل دهستان: (... ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا عن جزائه...)[١].

ومنها الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد عامل أذربيجان وهذا نصه: (.... ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة...).

ومنها العهد الذي كان بين سراقة - عامل عمر بن الخطاب - وشهر براز. كتب به سراقة إلى عمر فأجازه وأحسنه وهاك نصه:

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو - عاملُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقضوا وعلى أهل أرمينية - الطراء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم - أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر - ناب أو لم ينب - رآه الوالي صلاحًا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك. ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء، فإن حشروا وُضع ذلك عنهم. شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير ابن عبد اللَّه، وكتب مرضي بن مقرن وشهد[٢].

ومنها ما كان من أمر الجراجمة (... فلما قدم أبو عبيدة أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم؛ إذ خافوا على أنفسهم.... ثم إن أهل أنطاكية نقضوا العهد وغدروا فوجَّه لهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها بعد فتحها حبيبَ بن مسلمة الفهري فغزا الجرجومة؛ فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح. فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا ومسالح في في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حربًا في مغازيهم)[٣] ثم إن الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط، حتى إن بعض العمال في العهد

---

(١) سبق أن عرضنا النص الكامل للكتاب.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٤٠، ٥٤١).

(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٦٤).

العباسي ألزمهم جزية رؤوسهم؛ فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم)[١].

إن هذه الصورة التي يعرضها رشيد رضا - رحمه الله - تمثل اليوم في المجتمع الحديث ما يقوم كل مواطن لا يريد دخول الجيش بتقديم بدل نقدي حتى يعفى من الخدمة الإلزامية في جيش بلاده.

وعلى ضوء هذا الاجتهاد فيمكن الحديث عن مساواة المواطنين في الدولة الحديثة في الحقوق والواجبات.

الحرية والحوار اليوم من ثمار المنهج الإسلامي:

وندع الشهادة هنا كذلك لعالمين أحدهما ألماني والآخر مسلم مسيحي وهما يتحدثان عن الحرية في الإسلام والتى انبثقت عنها الحرية في العصر الحاضر.

يشهد العالم الألماني آدم ميتز أن صَارَ أكبرُ فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى - يتمثل في وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، ويضيف قائلًا:

إن أهل الذمة استندوا إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق؛ فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود والنصارى على أن تظل (دار الإسلام) دائمًا غير تامة التكوين[٢]؛ حتى إن المسلمين ظلوا دائمًا يُعدُّون في البلاد المفتوحة أجانب[٣] منتصرين لا أهل وطن. وليس أدل على ذلك الاستقلال المبني على الاحترام من أن قبط مصر مثلًا لم يستخدموا اللغة العربية إلا في أواخر القرن الرابع الهجري. أي أنهم ظلوا خلال (٣٥٠) عامًا بعد الفتح الإسلامي يتكلمون اللغة القبطية. ويذهب ميتز إلى أن « وجود النصارى بين المسلمين كان سببًا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون. وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق - نوعًا من التسامح الذي لم يكن معروفًا في أوروبا في العصور الوسطى. ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان؛ أي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم »[٤].

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا (١٠/ ٢٩٥ - ٢٩٧).

(٢) إنه يفسر (دار الإسلام) بأنها دار المسلمين فقط. وعلى ضوء ذلك قال هذا الكلام.

(٣) مع التحفظ على هذا التعبير.

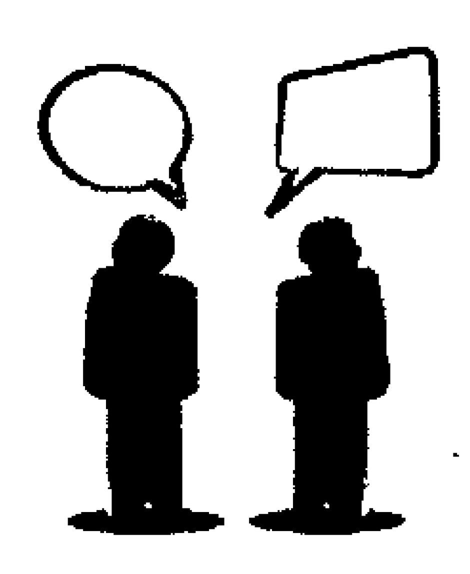
(٤) مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي (ص ٦٤، ٦٥)، عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم ميتز (١/ ٥٧٥، ٥٩٣) ت. د. محمد عبد الهادي أبو ريدة.

غير أن ما ينبغي أن يستوقفنا في هذا السياق حقًّا هو تلك الشهادة التي سجلها الأستاذ أدمون رباط في بحثه المهم « المسيحيون في الشرق قبل الإسلام » وفيها يقول: إنه للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة هي دينية في مبدئها ودينية في سبب وجودها ودينية في هدفها؛ ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة من عسكرية وتبشيرية إلى الإقرار في الوقت نفسه بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها؛ وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين؛ كما كان الأمر عليه في المملكتين العظيمتين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم. وهو المبدأ، بل القاعدة السياسية المعروفة بصيغتها اللاتينية... أي (لكل مملكة دينها؛ مما يؤدي لأن يصبح الشعب على دين الملك) هذه القاعدة التي لم تندثر في البلاد الغربية إلا بفضل الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان لابد لهذه السياسة الإسلامية - المنحدرة عن القرآن - من أن تسفر عن نتيجتين حاسمتين، ما لبثت آثارهما ماثلة في الشعوب العربية. وهما بقيام الطوائف المسيحية على أساس النظام الطائفي من جهة، ودخول سكان الأقطار التي فتحها العرب في دين الإسلام من جهة أخرى.

« فتلك الجماهير الكثيفة - التي تشكل أغلبية أهالي سوريا ومصر والعراق - إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة منذ القرن الأول للهجرة بملء حريتها. في حين أنه من بقي من هؤلاء النصارى - موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة - إنما هم شهود عدل عبر التاريخ ليس على سماحة الإسلام - وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي إنما كان مبنيًّا على قاعدة شرعية وليس على شعور من طبيعته أن يتضاعف أو أن يضعف - وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء في القرآن، وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية كاملة؛ بل وأيضًا بالمواطنية الشاملة في عصرنا الحاضر الذي زال فيه نظام الذمة؛ لكي يحل محله نظام الحريات العامة المنطوية لزامًا على مبدأ المساواة التامة في المواطنة »[1].

* * *

(١) مواطنون لا ذميون، د. فهمي هويدي (ص٦٥، ٦٦)، عن كتاب المسيحيين العرب لـ: د. آدمون رباط (ص ٢٧).



السيرة الذاتية للمؤلف

*** د. منير محمد الغضبان.**

*** من مواليد:** التل، دمشق سنة (١٩٤٢م).

*** السجل التعليمي:**

- إجازة في الشريعة، جامعة دمشق (١٩٦٧م).
- دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق (١٩٦٨م).
- ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة (١٩٧٢م).
- دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان (١٩٩٧م).
- حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية عام (٢٠٠٠م).

*** السجل الوظيفي:**

- التدريس في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية بدمشق عام (١٩٧٢م).
- موجه تربوي بـإدارة تعليم البنات بالطائف (١٣٩٣ - ١٣٩٥هـ).
- موجه العلـوم الدينيـة برئاسة تعليـم البنات بالمملكـة العربيـة السعوديـة (١٣٩٥-١٤٠٠هـ).
- داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة) (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).
- باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).
- باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

*** السجل الفكري والعلمي:**

- مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.
- مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنـات في الـريـاض (أصول

التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).

* له العديد من المؤلفات الإسلامية والفكرية؛ منها:

١ - أبو ذر الغفاري الزاهد المجاهد (١٩٧٠م).

٢ - الحقوق المائة للمرأة المسلمة (١٤٣٢م).

٣ - من معين التربية الإسلامية (١٣٩٨هـ).

٤ - هند بنت عتبة (١٣٩٩هـ).

٥ - إليك أيها الفتى المسلم (١٤٣٠هـ).

٦ - إليكِ أيتها الفتاة المسلمة (١٣٩٩هـ).

٧ - الحركات القومية في ميزان الإسلام (١٤٠٠هـ).

٨ - معاوية بن أبي سفيان الملك المجاهد (١٩٨٠م).

٩ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجهادية)، (ثلاثة مجلدات) (١٤١٤هـ).

١٠ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية القيادية)، (أربعة مجلدات)، (١٤١٩هـ).

١١ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجماعية)، (مجلدان)، (١٤٢٠هـ).

١٢ - عمرو بن العاص الأمير المجاهد (١٤٣٢هـ).

١٣ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية السياسية)، (مجلدان) (١٤٢٤هـ).

١٤ - التربية السياسية للطفل (رؤية من خلال السيرة النبوية) (١٤٢٥هـ).

***

رقم الإيداع

٢٠١٠/٢٢١٠٢

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 977 - 342 - 973 - 7

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « الحوار شريعة وواقعًا وتاريخًا » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:**.................

هاتف : [ ] / [ ] : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨]

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

إن من عظيم حكمة الله تعالى أن جعل الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وما كان لهذا التعارف أن يتم لولا أن شرع الله الحوارَ بينهم. وما عرض لنا القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة من نماذج عالية للحوار حققت أهدافها المرجوة منها - هو ما يعطينا القدوة والقدرة العالية والفهم العميق لهذه النماذج ومن ثم السير على هداها.

وإذا كان سيد الخلق ﷺ مأمورًا من ربه بأن يقتدي بمن سبقه من الرسل؛ فنحن بدورنا مأمورون بالاقتداء بالرسول الكريم ﷺ وبصحبه الطيبين الطاهرين، والاهتداء بنماذجهم في الحوار البنَّاء لنصل إلى الصورة المثلى للحوار في الإسلام التي من خلالها يمكننا استعراض دوره وأهميته في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فلا شك أن استنباط آداب الحوار وشروطه من خلال النصوص أجدى النظري بلا نموذج يحتذى.



Dar-Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-342-973-7

